الشبهات والأخطاء الشائعة

في الأدب العربي

الفكر الإسلامي

الثقافة والتاريخ

السياسة والاجتماع

تراجم الأعلام

أنور الجندي

الشبهات والأخطاء الشائعة

في الأدب العربي والتراجم والفكر الإسلامي

بقلم أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

كشاف

الباب الاول : فى العلوم والمناهج

الباب الثانى : الادب

الباب الثالث : الفقه

الباب الرابع ـ قضايا الفكر والاجتماع

الباب الرابع : قضايا الفكر والاجتماع

رقم البحث الصفحة

الباب الخامس : الدعوات والمذاهب

الباب السادس — التاريخ

الباب السادس — التاريخ

الباب الثامن — الكتب والمؤلفات

الباب السابع — السياسة

الباب التاسع . تراجم الأعلام

الباب التاسع تراجم الاعلام

مدخل إلى البحث

فى طريق مسيرة الفكر الإسلامى والثقافة العربية الطويلة عبر القرون الطويلة وبالإحتكاك مع الثقافات المختلفة فانه قد صارف عديداً من المذاهب والدعوات التى حاولت أن تنحرف به عن مفاهيمه وقيمة، وقد عادت هذه الشبهات والأخطاء فتجمعت مرة أخرى فى السنوات المائة الأخيرة مجددة كل التحديات والإفتراءات التى بثتها الباطنية والمجوسية والفلسفات الوثنية ودعوات التحلل والانحراف والزندقة والإباحة التى عرفت فى عصور ما قبل الاسلام وجمعها الاستعمار والصهيونية العالمية تحت اسم (التغريب والغزو الثقافى)وجند لها قوى متعددة منها التبشير والاستشراق والشعوبية ومعاهدالارساليات وكثيرا من الصحف والدعاة والأسماء اللامعة.

ولقد استشرت فى السنوات الأخيرة هذه الشبهات والأخطاء وأصبحت نتيجة لترديدها المتصل ولتسربها إلى مناهج الدراسة وإلى أصول الثقافة وإلى مصادر التاريخ - خاصة تلك النظريات الوافدة التى فرضها التغريب فى مجال الأدب والأجناس ومقارنة الأديان وعلم النفس وفلسفات الاجتماع والاقتصاد والتربية والقانون - كل هذا جعل كثيراً من هذه الشبهات تبدو وكأنها حقائق، أو يجرى التسليم بها دون مراجعة أو تعمق فى ظل من الغفلة عن الأهداف الماكرة التى تختفى وزاءها.

بل أن كثيرا من هذه الشبهات قد أغرت كثير من أصحاب الأقلام المخلصة من غير قصد، نتيجة لاستشراء الخطأ المتداول مثل ما يسمى باستبداد السلطان عبد الحميد أو ما يسمى بالاستعمار العثمانى وكلاهما من الكلمات التى نسفتها يد التآمر فى محاولة تمزيق وحدة العالم الاسلامى وإثارة الشبهات حول حقائق تاريخية أريد لها أن تدفن وتختفي.

والحق أننا فى أشد الحاجة اليوم إلى العمل المتصل لتحرير الفكر الاسلامى والثقافة العربية من دخائل التبشير والتغريب والشعوبية والكشف عن الأخطاء الشائعة وتصحح المفاهيم وتطبيق قانون الجرح والتعديل على الكتاب الذين عرفوا بالخصومة لفكر العرب والمسلمين والذين لا يتركون فرصه تمر دون النيل من قيم فكرنا وذاتية أمتنا وكياننا وليست هذه المحاولة بدعا فى تاريخ الفكر الاسلامى والثقافة العربية ولكنها تبدو متواضعة أزاء محاولات ضخمة فى هذا المجال منها :

رد ابن تيمة على المناطقة ، ورد الغزالى على الباطنية ، ورد ابن حزم على الفرق وكتاب تلبيس إبليس لابن الجوزى وكتاب العواصم من القواصم للقاضى ابن العربى وكتب أخرى فى العصر الحديث منها الرد على الدهرين لجمال الدين الافغانى والاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية للشيخ محمد عبده وشبهات النصارى وحجج الاسلام للسيد رشيد رضا .

ومن الحق أن يقال أنه قد أصبحت هناك ضرورة لقيام علم يطلق عليه .

(علم المواجهة وكشف الشبهات وتصحيح المفاهيم) .

يقوم على أساس تحرير قضايا الفكر ، ودراسة المصطلحات المختلفة السارية المتداولة وكشف وجهة نظر الفكر الاسلامى فيها ، وابراز مفهوم الاسلام للقيم المختلفة وهو مفهوم يختلف قطعا عن مفاهيم الفكر الغربى والفكر الشرقى جميعا لهذه القيم .

ولاشك أن الدعوة إلى تصحيح المفاهيم هو عمل كبير الاهمية فى هذه المرحلة من حياة أمتنا وحياة الفكر الاسلامى والثقافة العربية إذا يتطلب القاء نظرة واسعة على الأخطاء الكثيره التى ترددت فى العصر الحديث وتضمنتها الأبحاث والمؤلفات والكتب الدراسية المقررة والمفاهيم التعليمية المختلفة التى حاول النفوذ الأجنبى والاستعمار الفكرى فرضها ودعمها وتعميقها وصقلها وتجديدها كلما بليت وإعطائها صورة الحقائق الأساسية التى لا تقبل الشك بينما هى زائفة ليس لها أصل علمى تعتمد عليه أو سند تاريخى يضمن الثقة بها ؛ وقد شجع على ذلك وعماسقوط فكرنا فيما يسمونه غفلة التقليد والترويد الببغائى دون وعى حصيف أو تقليب واع أو محاذرة يقظة لكل ما يقوله خصوم هذه الأمة وهذا الفكر .

ونحن لا ندعو إلى الخصومة ازاء كل ما يقال ولكن نطالب بالحذر واليقظة حتى لا نخدع ولا يداس علينا بالزائف من القول الذى ينقض حقنا وحقائقنا .

ولقد ظهرت فى السنوات الآخرة مجموعات متعددة من الشبهات والأخطاء :

منها شبهات التبشير ، وشبهات الاستشراق وشبهات بروتوكولات صهيون والاسرائيليات الجديدة وشبهات المذاهب والدعوات المادية والاباحية الوثنية التى صيغت فى قوالب علمية براقة خادعة لا تستطيع أن تصمد أمام ضوء الحقائق الكاشف الذى يعريها ويفضح خبيئتها .

ولقد كان الفكر الاسلامى ولا يزال ـ استمداداً من مصادره الإسلامية القرآنية ـ على المحجة البيضاء ولكنه أصيب بالإنحراف والاضطراب حين انصرف أهله عن أصوله القائمة على التوحيد والحق والعدل وترابط المادى والمعنوى معا .

ولقد واجه الفكر الاسلامى عملية الغزو الفكرى والثقافى منذ قديم ، واستطاع فى معركته الأولى أن يتحرر من كل هذه الزيوف وأن يستعيد طابعه وذاتيته بعد حرب عنيفة مع الوثنيات اليونانية والمجوسية والهندية القديمة .

وهو اليوم قادر أيضا على أداء هذه الرسالة ، يقظ لكل ما يراد به ، متفتح الآفاق لكل الثقافات والمفاهيم يأخذ منها ويرفض على قاعدته الأساسية العميقة الجذور . وهو بقوته الذاتية المستمدة من القرآن قادر على كشف الزيف ورفض الخطأ ودخض الشبهة .

ولقد كان على طلائع اليقظة العربية الاسلامية فى العصر الحديث أن تعرف هدف حركة التغريب من بث هذه الشبهات والأخطاء وهو هدف واضح يرمى إلى توهين القيم الاسلامية وتفتيت وحدة الفكر الاسلامى والثقافة العربية وإثارة الخلاف بين الشعوب الاسلامية والعربية ووضع اسفين ضخم بين العرب والامم الاسلامية كالترك والفرس وغيرهم وكذلك بعثرة القوى الوطنية :

ولقد كانت حركة اليقظة العربية الاسلامية منذ جمال الدين الأفغانى ومحمد

عبده على علم تام بأن هناك محاولة دائمة مستمرة لتحريف الفكر الاسلامى (أصوله وتعاليمه وأحكامه) تارة بالنقص منها أو بالزيادة فيها وثالثة بتأويلها على غير وجهها .

وكان هدف التبشير والاستشراق أساساً هو العمل على الحط من شأن العرب والمسلمين فى نفوسهم وتشجيع العاميات جريا وراء تفكيك عروة وحدة الفكر .

ولقد جرت محاولات كثيرة لفصل الأدب العربى المعاصر والفكر العربى المعاصر عن أصولهما الاسلامية ومصادرهما الأصيلة، ثم تبين أن هذا العمل كان عسيراً ومستحيلا .

كما جرت المحاولات لتدمير الشخصيات النابغة فى تاريخنا وفكرنا، وخاصة تدمير الغزالى والمتنبى وابن خلدون ، كما جرت لاعلاء شأن أبى نواس وبشار والحلاج، وعمدت الشبهات إلى اتهام الفكر الاسلامى بانتقاص الحرية ، وعرضت حياة ابن رشد والسهرورى أمثلة على ذلك ، واتصلت الشبهات بمختلف ميادين الفكر سياسية واجتماعية، كما ظهرت عشرات من الكتب تحاول أن يفرض مفهوما زائفاً أو خاطئاً فى سبيل خدمة هدف التبشير والاستشراق لحساب الغزو الثقافى والإستعمار والصهيونية . ، وجرى البحث لاعلاء شأن كتب المحاضرات والنوادر والأساطير التى رددها الرواة، وجرت المحاولات على أن تكون هذه الكتب مصادر علمية يعتمد عليها فى استخراج صورة للمجتمع الاسلامى .

وقد نسقت هذه الشبهات فى موسوعات ودوائر معارف أنيقة أصبحت فى أيدى الباحثين يلجأون اليها فى كل وقت ، دون معاناة ، غير آبهين بمدى الخطر الذى يحيط بها والهدف البعيد المدى الذى يراد من وراء نشر هذه الشبهات الزائفة ووضعها فى قالب علمى براق .

ولقد تبين بما لا يدع مجالا للشك أن هذه الشبهات والأخطاء إنما يراد بها القضاء على ذاتية العرب والمسلمين وإخراجهم من قيمهم ومزاجهم النفسى ولإثارة اليأس فى نفوسهم وتشكيكهم فى مقدراتهم وتشويه معالم فكرهم وأدبهم، ومازال هذه الحملات مستمرة لم يتوقف ، بصورها المتعددة ومصادرها الكثيرة ، وهى

تدور حول جزئيات منفصلة ، من هنا ومن هناك ، ترتفع وتخفت ، تغير أثوابها بين حين وآخر ، وتلون أساليبها ، دون أن تغير أهدافها وغايتها الكبرى وذلك فى محاولة للتأثير على النفس العربية الاسلامية وإفساد ثقتها بقيمها ودفعها إلى طريق اليأس والشك والنظر بعين الانتقاص إلى مقوماتها التى هى مصدر قوتها، والتى هى الطريق الوحيد الذى يجب عليها أن تسلكه فى سبل دحر عدوها ، ورد عدوانه فى مختلف مجالات الفكر والسياسة والحرب، ومن الحق أن يقال أن المنطلق الوحيد للقوة والنصر والحرية ، هو تصحيح المفاهيم وتحريرها من الزيوف والشبهات والتماس المنابع الأولى والمصادر الأصيلة وهذه نفسها هى القوى التى اتخذها المسلمون والعرب كلما إدلهمت أمامهم الأحداث ووقعوا فى الأزمات والأخطار .

ومن أبرز التحوطات ضد الشبهات والأخطاء العمل على تصنيف الكتاب، وأخطر الكتاب هم أصحاب الولاء الأجنبى ، هؤلاء الذين لا يؤمنون بقيمنا ولا بأمتنا والذين يكشفون أنفسهم دائماً عند ما يعادون التراث والقيم والدين وحيث لا يجرؤن على مهاجمة القيم العربية الاسلامية صراحة فإنهم يتحدثون عن العقل والنقل ، والسلفية والتراث والماضى والقديم، وينسون أنهم بذلك يكشفون دخيلتهم فهم يقصدون الاسلام ويعجزون عن إعلان اسمه ، ولعلهم يعلمون جيداً أن هناك فوارق بعيدة بين حملة الغرب على الدين باسم القديم والتراث وبين موقفنا من الاسلام الذى ليس تراثاً ولكنه قيم حية متجددة نابضة بالقوة ، تختلف إختلافاً كبيراً عن الأساطير التى يريدون تحديدها . ونظريات الاباحة والمادية والوثنية التى يروجون لها .

ولقد عرضنا فى هذا البحث أبرز هذه الشبهات وأقربها إلى المثقف العربى فى المجال العام على نحو مختصر موجز يمكن من النظرة الخاطفة فالإحاطة السريعة.

ولا ريب أن الباحث المتطلع إلى التوسع فى البحث والافاضة فى تقصى عناصره وأبعاده يحتاج إلى مصادر تفصيلية فى كل مادة من المواد الموجزة وقد أشرنا هنالك إلى بعض المراجع لمن أراد الاستقصاء والاستزادة.

وان كنا قد تناولنا هذه الموضوعات جميعاً فى مؤلفاتنا وخاصة فى هـــذه الدراسات :

(١) القيم الأساسية للفكر الاسلامى والثقافة العربية .

(٢) أصول الثقافة العربية .

(٣) خصائص الأدب العربى .

(٤) العروبة والاسلام .

(٥) الاسلام وحركة التاريخ .

كما يستطيع الباحث على وجه الاجمال أن يجد جذور هذه النظريات فى كتابات فريد وجدى ومحب الدين الخطيب والدكتور محمد البهى ومالك بن نبى والدكتور محمد محمد حسين ومحمد أحمد الغمراوى وعمر فروخ وعلى سامى النشار ومحمد المبارك ودكتورة بنت الشاطىء وكثيرون غيرهم .

هذا وبالله التوفيق ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

فى المناهج والعلوم

١ — الثقافة

٢ — الدين

٣ — التوحيد

٤ — الأخلاق

٥ — التربية

٦ — التصوف

٧ — التراث

٨ — الفلسفة

(١)

الثقافــة

« الثقافة » كلمة مستحدثة فى فكرنا الاسلامى العربى الحديث وهى مشتقة من مادة (ثقف) القرآنية (وأن أى إدعاء بأن واحداً من الكتاب قد تمثلها من خارج اللغة العربية هو وهم باطل) وهى فى أبرز مفاهيمها « الفكر القوى للامم » وتقوم القومية على اللغة والوطن والعنصر ، ويمكن القول تفسيراً لهذا : أن الفكر الاسلامى يمثل العالم الاسلامى كله ولكنه ينقسم الى ثقافات عربية وفارسية وهندية وتركية وأندونيسية وهكذا . فهذه الثقافات منبثقة أساساً من الفكر الاسلامى ولكنها مرتبطة أيضاً باللغات والامم والاجناس والاوطان فلها أصول عامة مشتركة تتصل بالإسلام ولها طوابع خاصة قومية تتصل بالامم ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن الثقافة العربية مثلا تختلف عن الثقافة الغربية فى أن مقوماتها ليست واحدة فكل مقوماته يستمد من عناصر أساسية مختلفة ، فالثقافة العربية تستمد كيانها من الاسلام واللغة العربية والعروبة بتراثها ، بينما نجد الثقافة الغربية (أيا كان نوعها فرنسية أم المانية أم أمريكية) إنما تستمد مصادرها من الفكر اليونانى والقانون الرومانى والمسيحية واللغة اللاتينية وهكذا يبدو الفارق واضحا فى مصادر الثقافة ومن هنــا فأن القول بوحدة الثقافة العالمية قول يحتوى على قدر كبير من الخطأ والخطر فالثقافات لا تنصهر ولا تذوب فى وحدة واحدة ولكنها تتلاقى وتتعارف وتتفتح فيأخذ كل من الآخر مايزيده قوة ، أو يرفض مايضاد وجوده أو كيانه أو ذاتيته .

وهناك إرتباطات وإختلافات بين (الثقافة والعلم) وبين الثقافة والمعرفة وبين الثقافة والتعليم وبين الثقافة والحضارة .

(بين الثقافة والعلم) : العلم عالمى بطبيعته يلتقى مع كل مجتمع ، ولكن الثقافة قومية ووطنية ويمكن تلقيح الثقافة بالعلم دون أن تفقد ذاتيتها ، والعلم يرمى الى تنمية الملكات وهو فى نهاية المطاف وسيلة واداة وقد يستعمل للخير كما يستعمل للشر على السواء .

(بين الثقافة والمعرفة) : المعرفة هى المعلومات العامة المنوعة المختلفة المتعارف عليها فى كل الثقافات ، أما الثقافة فليست معارف فقط ولكنها موقف وإتجاه

وعواطف وعادات فى الحياة وممارسة ،أما المعارف فهى المادة الخامة للثقافة .

(الثقافة والتعليم) : الثقافة هى الدرجة الاعلى من التعليم ، فالتعليم قاصر على الاعداد الدراسى لتكوين العقلية المؤهلة للثقافة . أما الثقافة فهى الدرجة الاعلى التى تكون الفرد تكويناً يجعله ممتازاً .

(الثقافة والحضارة) وهناك علاقه بين الثقافة والحضارة فالثقافة فى كل أمة هى مقدمة الحضارة مرتبطة بها فى فكرها وفى محيطها ، ولكنها بالنسبة للامم الاخرى ليست مرتبطة ومن حق الامم أن تقتبس الحضارة لانها عالمية ولاتقتبس الثقافة لانها قومية .

الحضارة ملك للانسانية كلها . وهى نتاج الحضارات البشرية المتعددة ، كل منها تتم حلقة وتسلمها الى الاخرى وللمسلمين والعرب دورهام فى بنائها وانمائها أى دور ، فقد قدمت المذهب العلمى التجريبى الذى قامت عليه النهضة العلمية .

أما الثقافة الغربية المرتبطة بالحضارة فان الامم المخالفة أن تقف منها موقفاً مختلفاً ، وأن تنظر اليها فى ضوء قيمها ومفاهيمها ، ومن حقها أن تنقل الماديات (أى الحضارة) ولا تنقل المعنويات (أى الثقافة والمذاهب الاجتماعية) فان لكل أمة مقوماتها وقيمها الاساسية التى لا تتخلى عنها ولها أيضاً مفاهيمها للقيم الانسانية العامة بما يختلف مع الامم الاخرى .

وهذا المفهوم أمر مقرر بين جميع الباحثين والمفكرين والعلماء والمصلحين لاسبيل الى نقضه أو معارضته ، وكل الدعوات التى تقول بأن على الامم أن تتقبل الثقافة والحضارة معا ،هى دعوات مضللة هدامة يقف من ورائها الاستعمار والتغريب والتبشير وتستهدف تحطيم معنويات الامم وتدمير مقوماتها والقضاء على شخصياتها وهدم ذاتياتها واسلامها الى أن تذوب فى بوتقة الامية والعالمية فتفقد وجودها وتصبح غير قادرة على مقاومة الغزو الاستعمارى .

الديـــن

الدين فى مفهومه العام هو الصلة الاكيدة بين الانسان والخالق الاعظم، ايمانا من الانسان بوحدانية الله الخالق وإقراراً له بالعبودية .

والاديان السماوية كلها ترتبط بمفهوم واحد ، لانها من مصدر واحد ، والاسلام هو خاتمها ، وفيه جماعها وجوهرها الصادق .

وقوام (الدين) فى الاسلام التوحيد وسيادة الانسان تحت حكم الله ، والتقاء القيم الروحية مع القيم المادية ، وترابط القلب والعقل والدنيا والاخرة ، فالدين واحد على لسان جميع الانبياء والرسل ، والاديان عقيدة وعمل ، ومعرفة وطاعة ولقد قامت البشرية على أصل راسخ من غريزة التدين ، بحسبان أن العالم مجموعة متناسقة تقودها قوة مدبرة حكيمة عادلة . وقد رافق (الدين) الجماعة البشرية منذ نشأتها ، ولم تخل جماعة بشرية من دين يلائم طباعها ويوافق بيئتها ، فهو ظاهرة إجتماعية ضرورة وحاجة روحية وعقلية ولقد تغير هذا المفهوم بالنسبة لاديان مختلفة ، ولكنه ظل هو مفهوم الدين فى الاسلام وقد عمدت أوربا فى الوصول الى نظرية عن مفهوم الدين تصفه بأنه (لاهوت) يصور العلاقة بين الله والانسان ، وبذلك تنكر العلاقة بين الدين والمجتمع ، ومن هنا وقع الخلاف بين الفكر الاسلامى والفكر الغربى من أجل هذا الخلاف الجوهرى حيث قام الإسلام على الترابط بين الدين والمجتمع معا بينما رأت أوربا أن الدين ليس الا علاقة بين الانسان والله والغت علاقة الدين بالمجتمع .

وقد ظهرت نظريات مختلفة تنكر الدين جملة وتدعو الى (الوجود المادى الخالص) وعلت أصوات تقول بأنه لايوجد خالق ، وحاول كثير القول بأن البشرية تستطيع أن تعيش بغير دين

• • •

وطبيعة الاسلام تنافى وجود الانفصال بين أمور الدين والدنيا ، والإسلام بطبيعته دين جامعى لادين عبادى محض .

وليس فى الإسلام هيئة كهنوتية ، ذات سلطة فعليه ، يخشى من سيطرتها على الحكم

ولم يكن لعلماء الاسلام أى نفوذ سياسى ما ، أو سيطرة على الحكم ، والاسلام حركة إجتماعية شاملة والدين جانب من جوانبها ، فقد جاء الاسلام عقيدة وعبادة وإصلاحاً إجتماعياً ، وليس الاسلام دين محتكر فى يد طائفة تتحكم فى أصوله وفروعه كما تشاء ، وإنما هو دين إصلاح عام لسائر الاديان ، شرعة الله عندما تبدلت الاديان تصحيحاً لها وخاتماً .

. . . .

والفكر الاسلامى فكر شامل والدين جزء منه لاينفصل ، وقد كانت صيحة التغريب هى صاحبة دعوى التفرقة بين الدينى والدنيوى ، والقول بأن هناك علوماً دينية وأخرى دنيوية ، فأخذوا يطلقون كلمة (دينى) على كل مايتصل بالاسلام وهو إطلاق غير صحيح ، ذلك أن كل شىء من الفكر والحياة فى مفهوم الاسلام متصل به ولا سبيل لانفصاله ومن هذا التحريف الخطير الذى حاوله التغريب محاولة فى الفصل بين السياسة والاخلاق وبين الاجتماع والاخلاق وهدف المحاولة فصل الاسلام عن المجتمع وفصل الاخلاق عن الدين والسياسة ولاشك أن وصف الفكر الاسلامى (بالفكر الدينى) خطأ محض ، فأن الاسلام ليس دينياً بمفهوم (اللاهوت الغربى) ولكنه دين عالمى إنسانى جامع .

ويخطىء الغربيون فى دراسة الاسلام قصداً أو نقصاً فى الفهم حين يقدرون أنه (دين فقط) محاولين المقارنة بينه وبين أديانهم ، ذلك أن الاسلام حركة إجتماعية ومنهج حياة والدين جانب من جوانبه فقد جاء الاسلام عقيدة وعبادة واصلاحاً إجتماعياً ، والاسلام ليس دين العرب وحدهم ولكنه دين الانسانية جميعاً .

والمسلمون يعتقدون أن جميع الديانات السماوية جزءاً من تراثهم الفكرى بل جزءاً من التراث الاجتماعى للبشرية جميعاً .

وليس من شك أن الرابطة بين الدين وبين مقومات المجتمع الاسلامى والفكر الاسلامى هى رابطة عضوية ، فالدين هو أول ركائز الاجتماع والثقافة ، ومن هنا يتأكد باطل مايقوله الغربيون من أن سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين .

ويرى إبن خلدون أن العرب لايحصل لهم الملك الا بصبغة دينيه

والاسلام يكرم السيد المسيح ويعترف بالاديان المنزلة لأنها من أصل واحد، وقد كانت علاقة الاسلام بالحضارات والنهضات مخالفة للعلاقة بين الغرب والمسيحية والنهضة الاوربية يقول العلامة مسمر : أن تقدم العلوم فى الغرب حصل رغما عن الدين المسيحى ، أما الاسلام فهو لايبق على قيد الحياة الا بانتشار العلوم وتقدمها ، فأن بين الاسلام والعلوم رابطة كلية وان الغربى اذا صار عالما يترك دينه بخلاف المسلم فأنه لايترك دينه الا اذا صار جاهلا ، وقال أنه لايمكن نسبة التمدن الحالى الى الدين النصرانى ، لانه ماجاء الا بعد خمسة عشر قرنا من ظهوره ولايمكن نسبة الانحطاط الى الاسلام لانه جاء بعد انحراف المسلمين عنه ويقول : لم تتقدم أوربا فكراً وثقافة وعلما واقتصاداً الا بعد أن ثارت على سلطان الكنيسة وتحررت تحرراً تاما .

ومن هنا يبدو الخلاف واضحا بين علاقة الدين المسيحى بالغرب وعلاقة الاسلام بالحضارة التى أقامها العرب والمسلمون . . .

التوحيد

إذا قيل أن لكل دين طابعا فان طابع الإسلام هو : « التوحيد » فهو لبابه ومنهجه وقوامه والقائم المشترك على قيمه المختلفة ، والعامل الأساسى الذى يفصل بين الإسلام وبين عديد من المذاهب والفلسفات والعقائد ، التى تقوم على أساس الوثنية ، أو الالحاد ، أو تعدد الآله ، أو إنكار الله الحق .

« والتوحيد » هو دين الله الحق المنزل على جميع الأنبياء والرسل ، والذى بدأت به البشرية مسيرتها منذ (آدم) أبى الأنبياء والبشر جميعاً ، وهى الدعوة الحق التى حملها جميع الأنبياء الى أممهم حتى انتهت الى صورتها النهائية التى يمثلها الإسلام خاتم الديانات والرسالات الى العالمين جميعاً ولقد حاول كثير من الفلاسفة وأصحاب المذاهب والدراسات الادعاء بأن البشرية كانت وثنية ثم إهتدت الى التوحيد من بعد، غير أن هذه النظرية ظهر بطلانها باكثر من دليل من دلائل العلوم والحفريات والبحث العلمى الخالص ، فالحقيقة التى لاشك فيها أن الناس كانوا أمة واحدة ، وكانوا على التوحيد جميعاً ثم ضلوا وعبدوا عدداً من الآلهة وتحولوا بعد التوحيد الى الوثنية ولقد كان التوحيد رسالة السماء الى الناس كافة منذ خلق الانسان الى اليوم وكان الناس على التوحيد اساساً ثم تحولوا تحت تأثير أخطاء وإنحرافات عن التمسك بالحق ، وجرى هذا حين إتخذ الناس الصور والرموز لتذكرهم بالاله الواحد ، ثم لم يلبثوا مع الزمن أن تحولت هذه الصور الى أصنام وأوثان ، وتحولوا هم الى عبادة هذه الأصنام أو عبادة أبطالهم ورؤسائهم ومن ثم تعددت الالهة فكانت الأديان فى موالاتها وتتابعها دينا بعد دين ترد الناس عن هذا الخطأ والانحراف ، ثم لايلبث الناس حتى يعودوا الوقوع مرة أخرى فى الخطأ . ولقد كانت الأديان فى جوهرها دعوة الى الله : الاله الواحد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . والى هدم الأصنام ونبذ فكرة الشرك ، ودحض الوثنية .

ولقد واجهت البشرية إنحرافاً خطيراً فى الفترة السابقة لظهور الإسلام ، حيث ظهرت الوثنية اليونانية الفلسفية التى قامت على مفاهيم خطيرة أساسها : الاباحة والتعدد ، ، قد نبتت هذه المفاهيم نتيجة لتقديس الافراد ثم تحولت الى

(عبادة الابطال) وإتخاذهم آله وأنصاف آله ، ثم أصبح لكل ظاهرة من الظواهر الكونية والاجتماعية إله : فاله الخمر واله الحصاد واله الحب ثم كانت وثنية فارس التى أقامت اله النور واله الظلام وكانت الوثنية العربية أقل هذه الوثنيات إنحرافاً وإضطراباً وفلسفة ، فقد أعتمدت على عبادة الاصنام والاوثان لتقربهم الى الله زلفى .

وكانت الجزيرة العربية قد عرفت (التوحيد) منذ دعوة ابراهيم عليه السلام وبناء الكعبة ، غير أن الامم التى هاجرت كانت تحمل معها أحجاراً تذكاراً لارضها وبلادها ، ثم مالبثت بعد قليل أن عبدت هذه الاحجار ، ولكنها كانت فى مجموعها وثنية ساذجة على أى حال لم تقم لها فلسفة عميقة ، كفلسفة الوثنية اليونانية والفارسية التى هاجرت الى الحضارة الاوربية الحديثة وأصبحت جذراً من جذورها .

وقد أشار (أرنست رينان) الى هذا المعنى حين قال : إن العرب موحدون بطبعهم وأن دياناتهم هى ديانات التوحيد ، ولقد كانت الاديان السماوية جميعاً على التوحيد ، فانحرف بعضها ودخلها من فلسفات اليونان والهنود والفرس ماحولها عن طبيعتها .

ومن هنا كانت دعوة الاسلام الحارة المتجددة الى إنكار الرموز أو تقديس الموتى أو عبادة الأبطال والعظماء أو إقامة القبور الضخمة أو التماثيل أو غيرها من الدواعى التى إنحرفت بالبشرية من قبل عن التوحيد وذلك حرصاً على بقاء المفهوم الاصيل الذى نزل به القرآن .

ولقد كان التوحيد ولا يزال فيصلا ضخما وخطيراً بين الإسلام وبين مفاهيم الفلسفات والمذاهب والاديان المختلفة ، على نحو يحرر النفس الانسانية من كل وثنية وعبودية .

الاخـلاق

يشكل الاسلام منهجاً إنسانيا متكاملا الفرد والجماعة قوامه : « العقيدة والشريعة والاخلاق، والاخلاق فى مفهوم الاسلام قاسم مشترك على مختلف القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتربوية .

ومفهوم (الأخلاق) فى الفكر الإسلامى تختلف إختلافا واضحا وجذريا عن مفهومه فى الأديان والفلسفات الاخرى فهو يقوم على هذا النحو المترابط المتكامل الشامل .

وهدف الاخلاق فى مفهوم الاسلام هو « التقوى : وتتمثل التقوى فيه عملا وسلوكا ولاتقف عند الناحية النظرية وحدها، والأخلاق الاسلامية أخلاق تقوى بكل ماتحمل التقوى من معان سلبية وإيجابية، بتجنب الحرام والاقبال على الحلال وتعنى التقوى الوقاية ومدافعة الخطر واليقظة الدائمة المحافظة على الاصول ومنعها من الانحراف .

وآيات القرآن فى منهج الاخلاق تحث على الايثار دون الأثرة ، وتجعل الفرد فى خدمة المجتمع فاذا تعارضت مصلحته مع مصلحة المجتمع ضحى الفرد مصلحته فى سبيل المجتمع — الايثار والتقوى هما لحمة الاخلاق الاسلامية وسداها على حد قول القائل « تقوى الاله مدار كل فضيلة » .

ومن هنـــا يخطئ الذين يعتبرون (الاخلاق) فى الفكر الاسلامى امتداداً للاخلاق فى الفكر والفلسفات السابقة له أو للفكر اليونانى خاصة . وما كتبه ابن مسكوية فى كتابه (تهذيب الأخلاق) وما أخذه (ابن سينا) إنما هذا كله من مفاهيم الاغريق التى تختلف إختلافا واضحا مع مفهوم الاسلام للاخلاق . وكذلك ماكتبه ابن المقفع وحاجى خليفه من مفاهيم الفرس قبل الاسلام عن الاخلاق ويتصل بهذا: كتاب الاخلاق الذى الفه أرسطو ، وكل ماجمعه اخوان الصفا وغيرهم لايمثل مفهوم الاسلام فى الأخلاق تمثيلا صحيحا .

وقد نشأ مفهوم الاخلاق فى الاسلام نشأة متميزة خالصة حولت مفاهيم العرب للقـــيم الاخلاقية عن إنحرافها الوثـــنى وردتها الى الوجهة الصحيحة الصادقة الخالصة لله وحده .

وقد أخطأ المستشرقون الذين ألفوا فى الأخلاق وعجزوا عن فهم هذه الفروق الواضحة بين الأخلاق الاسلامية والأخلاق اليونانية وغيرها ، ولذلك لم يوفقوا فيما ذهبوا اليــــه وفى مقدمتهم (دونالدسون) صاحب كتاب (دراسات فى الأخلاق الإسلامية) وقد إنتقده الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى وكشف عن هذا النقص فى نظرته الى مفهوم الأخلاق فى الإسلام ،ويقول الدكتور الأهوانى فى هذا :

« ظهرت فى تاريخ الحضارة الإسلامية كتب تبحث عن الأخلاق على الطريقة اليونانية ولـكنها لم تؤثر فى حياة المسلمين إذ حجبها كتاب الله ، ولم تستطع أن تبلغ الى مقامه ، ومنها كتاب ابن مسكوية المسمى (تهذيب الاخلاق) فانه يناقش الأخلاق الموروثة عن اليونانيين وعن أفلاطون وعن أرسطو بخاصة وعن مدرسة الأسكندرية » .

ويقول إن الأساس الذى تعتمد عليه الأخلاق الأفلاطونية يختلف عن أساس الأخلاق الإسلامية وقد ظل هذا الـكتاب بعيداً عن الشعبية والتداول، ولم تعرفه الا طائفة قليلة من المثقفين الذين كانوا يقرؤونه للذة العلمية فقط . ومن الطبيعى أن يحفل به جماعة المستشرقين ، ويقول : « أن الأخلاق الإسلامية ليست أخلاق سعاده وهى لغة اليونان ولـكنها أخلاق تقوى لانها أخلاق دينية » .

وأشار الدكتور الأهوانى رحمه الله الى ما كتبه الغزالى عن الأخلاق فقال : أنه كتب فى (ميزان العمل) على الطريقة اليونانية ، وكتب مرة أخرى عن الأخلاق فى كتاب (إحياء علوم الدين) ونحا فيه نحو الزهد والتصوف وهو الطريق الذى إختاره الغزالى « وهذا النوع من الأخلاق لا يمثل الاتجاه العام للأخلاق الإسلامية ذلك لأن الإسلام لم ينه عن الدنيا ولم يطالب الناس بالابتعاد عنها والزهد فيهـ ولم يحرم زينة الله » .

وجملة القول : ان الأخلاق الاسلامية المستمدة من الـكتاب والسنة هى أخلاق إيجابية تقـوم على رقابة الله وتقواه فى مختلف التصرفات وتدخل كعنصر أساسى فى المجتمع والاقتصاد والسياسة والتربية ولا تنفصل عنها وتستمد كيانها من التوحيد أساساً فلا تنعزل عن الإسلام بـل ترتبط به وهى أخلاق تقوى إجتماعية تحمل طابع الأثيار والتضحية بمصلحة الفرد لمصلحة المجتمع ، وهى أخلاق قوة وعمل مع المحافظة على رقابة الله واعلاء الخير والبر والوفاء .

التربيـــــة

فى مفاهيم الفكر الإسلامى يأخذ إصطلاح (التربية) مفهوما مخالفا ومنفصلا من مفهوم (التعليم) وفى رأى الكثير من الباحثين : أن التعليم هو إعطاء الذهن الإنسانى حاجته من أصول الأشياء ومفاهيم العلوم ، وتنمية القوى العقلية والروحية وتدريبها على معرفة أساليب الفكر والثقافة ، أما مفهوم (التربية) فهو عنصر موجه ومضىء لطريق الحق والخير فى إتجـاهات التعليم والثقافة نفسها ، ذلك أن التعليم حين ينفصل عن التربية قد يؤدى الى الخير أو يؤدى الى الشر ، أما التربية فهى مؤشر الخير والحق فيه ، والضوء الاخضر له حتى يكون وسيلة تحقيق التقدم للمجتمع ، ويكون فى نفس الوقت خالصا لله موجها لخير الامة والإنسانية جميعا ، بعيدا عن أى انحراف .

فالتربية فى مفهوم الإسلام : هى التى تسمو بمقاييس الفرد فى الحياة وتعلى من أهدافه وتقربه إلى الخير وتبعده عن الشر ، وهى التى تتجه الى تقوية الشخصية وغرس روح المسئولية والشعور بالواجب والاخلاص فى العمل والحياة .

وهى فى جوهرها : تهذيب النفس وترقيـة الذوق ، وبنـاء القدوة الحسنة والمثـل الاعلى من خلال البطولات والنماذج العظيمة التى يزخر بها تاريخ الامـة وفكرها ومن خلال القدوة الحسنة فى البيت والمدرسة والمجتمع .

والتربية فى مفهوم الفكر الإسلامى العربى وسيلة لبناء « الإنسان » بوصف فردا أو بوصفه جزءا من المجتمع الذى يعيش فيه ، مع إعداده بالقدوة وبالكلمة وبالعادة وبالمواقف المختلفة ولاحداث وهى تأخذ الفرد كبناء متكامل : قوامه الروح والعقل والجسم وتعنى به وفق فهم شامل أساسه الايمان بالله والعمل فى الأرض من أجل النماء والبناء والإنشاء . ويقوم منهج التربية الإسلامية على بناء الفرد فى البيت قبل المدرسة وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم الذين يباشرون الطفل منذ نشأته معاشرة مستمرة . والذين يؤثرون فيه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم .

يقول العلامة الزرنوجى المربى الإسلامى : إن من الضرورى قيام علاقة وطيدة بين البيت والمدرسة ، وأن التعليم يحتاج الى ثلاثة عناصر : المتعلم والاستاذ والاب كما أكد علماء التربية الإسلامية ضرورة تلقى العلم من الاساتذة لا من الكتب

وحدها . وقد ربطت التربية الإسلامية بين التعليم والتربية على أساس ان العلم وحده لايكفي مالم تصحبه تربية الذوق والعقل والروح ، والعلم في مفهوم الفكر الإسلامي هو العلم والعمل . وقوام التربية الإسلامية أساسا : « الأخلاق » .

ولذلك فان الفكر العربي الإسلامي لايقر مفاهيم الفكر الغربي التي تفصل بين التعليم والتربية أو التي تفصل بين التربية والأخلاق .

وفي مفهوم الإسلام : أن العلم لابد أن تحميه وتظاهره قيمة أخلاقية واضحة حتى لاينحرف أو يفسد أو يتجه وجهة ضارة بالمجتمع الانساني .

ويعارض الفكر العربي الإسلامي نظرية « ديوى » في التربية معارضة صريحة وهي نظرية وجدت معارضة ونقداً في بيئتها الأساسية التي أعلنت فيها ، كما يرفض مفاهيم (فرويدودوركايم) في الاباحة والتحلل ورفع التوجيه عن الشباب في مرحلة التربية والتعليم وذلك إيماناً من الفكر الإسلامي بأن الشباب في هذه المرحلة في حاجة الى البناء والتكوين والتوجيه الذي لايتم الا من خلال الانتفاع بتجربة المربيين والمعلمين ، الذين يجد فيهم الشباب القدوة ويجد عندهم الخبرة الطويلة . وليس في توجيه الشباب في الإسلام مايحول دون إستقلالهم الذاتي أو دون إتاحة الفرصة لهم ليأخذوا مناهج جديدة تتفق مع أجيالهم وأذواقهم فذلك كله يعترف به منهج التربية الإسلامية ويقره ويعمل على إيجاده إن لم يكن موجوداً .

ولكن الخطر كل الخطر هو في المتابعة للامم المختلفة في مناهجها الفكرية والثقافية والتربوية مع إختلاف العصور والبيئات والاديان فهذا هو من أخطر مايحتاج الى التنبيه اليه (١) .

راجع فصل التربية في كتابنا (القيم الإساسية)

التصوف

التصوف فى مفهوم الفكر الاسلامى « بدعة » حسنة ، تهدف الى إنشاء دائرة من دوائر تربية النفس والخلق من خلال التماس مفهوم الاستغناء عن المطامع والغايات الفردية والانانية ، والعمل من أجل الإنصراف عن الأهواء.

وقد استمد المتصوفه المسلمون مفاهيمهم من صور الزهد الذى عرف بها رسول الله وصحابته ، ثم توسعوا فى ذلك وكان لتحديات الحضارة والثراء والترف أثرها فى تعميق هذا الاتجاه وبروزه كعامل توازن طبيعى إزاء الانحراف الاجتماعى الذى أصاب المجتمعات الاسلامية بعد إنصرافها عن طوابع العصر الأول ومفاهيمه.

غير أن التصوف فى الاسلام لم يلبث أن اتصل بالفلسفة اليونانية ومفاهيم التصوف الهندى ونتاج الوثنية الفارسية والهلينية ، فاصابه إضطراب كبير ، ودخلت اليه مفاهيم كثيرة ليست من مفاهيم الاسلام أصلا ، وبذا انحرف إنحرافا خطيراً عن أصول الفكر الاسلامى وطوابعه الأصيلة ، إضطرب معه مفهوم «التوحيد» الذى هو أعلى قيم الإسلام نفسه وخاصة حين دخلت الى التصوف مفاهيم غريبة عنه معارضة لاصوله : تلك هى مفاهيم وحدة الوجود والحلول .

وهذا القطاع من التصوف الفلسفى لا يعد إسلامياً ، ولكنه يعد دخيلا ومنحرفاً وتجب التفرقه بينه وبين طابع التصوف المستمد من الاسلام أصلا ومن حياة الرسول وصحابته ، على ذلك النحو البسيط اليسير من الزهد ، القائم على أصول الشريعة .

ولقد عنى أعلام الصوفية الاول بأن يؤكدوا إرتباطهم بالقرآن والسنة ، وأعلنوا أنهم يتحركون من دائرة الشريعة الاسلامية والعقائد والأخلاق الاسلامية وقالوا فى ذلك : أن أى إرتقاء فى مجال التصوف لا يصرف صاحبه عن أداء فرائض الاسلام كامله ، وأن تطبيق حياة الرسول وتصرفاته هى المصدر الأول ، وأنه لاعبره أبدا بما يقال من رفع التكليف عن بعض الذين وصلوا الى درجات معينة فى العبادة أو الكشف وأن مثل هذا القول مناقض تماماً لمفاهيم الاسلام .

ويرى الباحثون أن هناك فارقاً كبيراً بين التصوف والفلسفة . أو بين الصوفى

والفيلسوف : ذلك أن الصوفى إنما يعتمد فى منهج المعرفة وعلى أسلوب العقل ومقاييس المنطق ، وبينما يعتمد (العلم) على أسلوب التجربة ونتائج الانابيق وتركيبات المواد .

وفى الفكر الاسلامى يقوم «منهج المعرفة» على هذه الأصول الثلاثة مجتمعة فلا يفصل بينها ولا يعلى أحدها ، وفى تاريخ الفكر الاسلامى محاولتان إحداهما : إعلاء العقل عند المعتزلة والاخرى إعلاء لوجدان عند الصوفية وفى الغرب محاولة جديدة هى إعلاء العلم والعقل والتجربة على الوجدان والبصيرة .

وكل هذه التجارب لا تمثل « المعرفة » فى أصلها الجامع الشامل الحقيقى القائم على ترابط العقل والوجدان ، والتجربة والغيب ، والعلم والوحى .

ومن هنا فقد كان إستعلاء التصوف فى المرحلة السابقة لليقظية الفكرية العربية الاسلامية الحديثة عاملا هاماً وخطيراً فيما أصاب المسلمون والفكر الاسلامى من إضطراب وتأخر وضعف وجمود ، فقد برزت ظاهرة « الجبرية» التى أصابت المسلمين بالانصراف عن الانشاء والعمل ، وكانت نتائجها الخطيرة فيما أصاب المسلمون من سيطرة النفوذ الاستعمارى الغربى .

غير أنه إذا ذكر ذلك فلابد أن يذكر : أن التصوف قد فتح للاسلام آفاقاً واسعة فى عديد من الأقطار ، وضم الى المسلمين ، عدداً كبيراً من الوثنيين فى جنوب شرق آسيا وإفريقيا ، وإن الطرق الصوفية التى كانت تحمل مفاهيم التوحيد والايمان والخلق الاسلامى قد جذبت الى صفوف الإسلام الكثيرين ، الذين آمنوا بالله وحده ، وأصبحوا فى حاجة الى عمل كبير من أجل تنقية إسلامهم من طوابع الوثنيات القديمة وتحرير فكرهم حتى يصبح إسلامياً توحيداً خالصاً .

التـــراث

كان من أبرز أهداف مخططات الإستعمار والتغريب : الحملة على التراث الإسلامى والعربى وإثارة الشبهات حوله ورميه بالانتقاص، بهدف واضح معروف هو العمل على قطع حاضر هذه الامه عن ماضيها ويقول أصحاب الدعوى إن سبيل النهضة هو تجاهل هذا الماضى الذى ذهب ومات، والذى يوصف بأنه يباؤه قد يعوق الحركة وهدف هذه الحملة الشعوبية التغريبية يتركز فى محاولة الفصل بين الماضى والحاضر فى مجال الثقافة العربية المستمدة من الفكر الإسلامى والتى لاسبيل لها أن تنفصل عن جذورها التى تشكل مختلف مظاهرها وقيمها الأساسية .

وحين يثير دعاة التبشير والتغريب والاستشراق هذه الدعوى إنما يتعارضون ومع أنفسهم ومع واقع التاريخ نفسه ومع منطلق النهضة الغربية الأوربية التى استمدت وجودها أساساً من الاتصال بالتراث الهلينى والفكر الإفريقى والادب اليونانى والرومانى القديم بعد أن انفصلت عنه أكثر من الف عام ، وقد أكدت جميع مصادر الفكر والادب والتاريخ ، أن النهضة الاوربية فى مجال الفن و الادب والحضاره إنما إرتبط وجودها بهذا الماضى واعتبرته أصلا من أصولها وأساسا للبناء ولم تعتد بأى مظهر من مظاهر الفكر إذا قام منفصلا عن هذه القاعدة المستمدة من التراث، هذا هو الموقف بالنسبة للفكر الغربى مع تراث قديم بائد ، مضى وانتهى وتم الانفصال عنه أكثر من الف عام فى لغة ميتة متحفية هى اللغة اللاتينية التى إنبثقت عنها لغات جديدة عصرية ،فكيف بتراث مازال متصلا لم ينفصل ماضيه عن حاضره لحظة ، وعن طريق نفس اللغة التى يستطيع القارئ العربى فى القرن العشرين أن يقرأ ما كتب بها قبل أربعة عشر قرناً ويتذوقه ويفهمه ، حيث لا يوجد مثيل لذلك فى الفكر الغربى كله ، ولكن هى الدعوة التغريبية الهادفة الى عزل المسلمين والعرب عن ماضيهم وتراثهم ومقوماتهم تقود هذه الحملة الضارية على التراث وتحاول أن تصوره بصورة التأخر والتخلف ، وترميه باتهامات متعددة من قصور وتعارض وإضطراب فى محاولة لهدمه وخلق الكراهية والاحتقار له فى نفوس الاجيال الجديدة .

وقد عرف الفكر الغربى قيمة التراث وحقيقته حتى ليقول « بسكال » :

(كل نسل لابد أن يستفيد أولا من الفكر الذى تركه من سبقوه ثم يزيده أن كان عنده إستعداد لذلك ، ولا تستطيع أمة ما أن تحيدعن هـذا القانون) ، ويقول جاك برك : (إن مستقبل العرب يتمثل فى احياء الماضى لأن المستقبل هو فى كثير من الحالات: الماضى الحى أو الماضى الذى وقع إحياؤه وعيشه من جديد .)

ويجمع الباحثون المنصفون على أنه لم تقم نهضة جادة فى أمة ما، الا سبقتها دعوة لاستحياء الماضى والإنتفاع به والبناء عليه ، خاصة إذا كان ذلك التراث على مثل عظمة التراث الإسلامى إستمداداً من القرآن الكريم والإسلام .

ويقول سيمون وايـل فى مقاله (الحاجة الى الجذور) : إن اتراث الماضى فى عنق الحاضر مسئوليـة قدسية فاذا إنهدم الماضى فان عودته ضرب من المحـال ، وأن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ماورثوه عن أسلافهم من تراث فما علينا الا أن نجعل همنا الأكبر الإحتفاظ بالذى تبقى لنا من تراث الماضى ، هذه الجذور ليست نزعة عاطفية معناها الرجعية والجمود ، وإنما هى غريزة روحيـة تكمن فى نفوسنا جميعاً ، وقد أشار الى أهمية التراث فلاسفة ومصلحون وقادة كثيرون ، وهم يرون أنه لاتعارض مطلقاً بين الاتجاه الى المستقبل والمحافظة على التراث بل أن التركيز على التراث كقاعدة إنما يجعل النظرة الى المستقبل أكثر قوة ووضوحاً يقـول (نهرو) : إن علينـا أن نتطلـع إلى المستقبل وأن نعمل له جاهدين وأن نحتفظ فى الوقت نفسه بتراثنا الماضى ماثلا أمامنا لـكى تستمد منه القوة والعزيمة وخير مستقبل هو ماكان قائمـاً على الحاضر والماضى على السواء ، أمـا أن نتنكر للماضى أو ننتزع أنفسنا منه فمعناه إقتلاع أنفسنا من تربتنا فنخرج منها وقـد يبس عودنا وجف مافيه من عصارة الحياة الحقه » .

وقد وجدت هذه الصيحة التغريبية معارضه متيقظة وتفهما بهدفها الضار وبأنها تقصد إلى غير مصلحة العرب والمسلمين ، كما أكد كثير من المستشرقين ذلك حتى اشار (هاملتون جب) الى أنـه ليس فى وسع العـرب أن يتحرروا من ماضيهم الحافل كما تجرد الأتراك ، وسيظل الإسلام أهم صفحة فى هذا السجل الحافل إلى درجة لا يمكن أن يغفل عنها الساعرن الى إنشاء مثل عربية عليا، وقدوجه كثير من المثقفين الدعوة الى العرب والمسلمين للاحتفـاظ بتراثهم الأصيل ، وقد أشار قسطنطين رزيق الى أهمية التراث حيث قال : إن لهـذا التراث العربى عنصر هام

من عناصر شخصيتنا ومميز من مميزاتها ودليل واضح على فاعليتنا الحضارية وفيه من الإنجازات والإبداعات ماهو خليق بالكشف والابانة لنا ولسوانا ، ومايجب أن يدفعنا الى إستعادة كسبه وتمثل جوهره فى حياتنا الحاضرة ، ويرد على أعداء التراث فيقول : (الغريب أن هؤلاء الداعين الى نبذ التراث العربى أو إهماله إنما يرددون ذلك فى عصر نرى الامم النازعة الى حياة جديدة تعمد الى ثقافتها القديمة فتحييها وتجعلها عنوان مجدها ، وقبلة آمالها ، ففى الوقت الذى تسعى كل أمة نشطه من أمم الشرق والغرب الى تقديس تقاليدها وتمجيد حضارتها لايسع الأمة العربية الا أن تعمل على بعث تراثها القديم وروحها التى ولدت تمدنها التالد ، فكل من لاماضى له لا مستقبل له ، والأمة التى لاتعى بروحها لايمكنها أن تؤدى رسالتها فى التمدن البشرى)

ومن الحق أن يقال أن تراثنا يتصل بواقعنا وأنه فكر حى متجدد ومتحرك فى مجال الحياة والمجتمع ، لم ينفصل ولم يتوقف ، وفضلا عن ذلك فهو ليس الا واحد من الأسس الرئيسية للحضارة العصرية والفكر البشرى القائم اليوم فقد أعطاهما عديداً من النظريات والأفكار القدمية البناءة وأهمها (المنهج العلمى التجريبى) ومذاهب الإجتماع والسياسة والإقتصاد والنفس والأخلاق والتربية .

راجع (القيم الأساسية للفكر الاسلامى) للمؤلف

الفلسفـــــة

لـكي نفهم تيارات الفكر العالمي يجب أن نفرق تفرقة واضحة بين العلم والفلسفة، وهذه التفرقة واضحة دوما فى الفـكر الإسلامى والثقافة العربية ، وقد عرفها الإمام الغزالى حين هاجم الفلسفة الإلهية الوثنية وكرم الفلسفة العلمية فى مجال الرياضيات والطبيعيات ، لأن هذه الأخيرة قد أقيمت على منطق واضح محسوس لتعلقها بموجودات واضحة بينما لم تقم الفلسفة الالهية الوثينية على منطق وأن قامت على الوهم والإفتراض لبعد مجالها عن المحسوس . نحن اليوم فى حاجة الى مثل هذه النظرة فى التفريق بين العلم والفلسفة فالعلم هو مايجرى داخل المعامل ، أما الفلسفة فهى مايقوله أصحاب الايدلوجيات ، العلم واقع قائم على حساب وتجربة ، أما الفلسفة فهى نظرية عقل نافذ ، قد تخطىء وقد تصيب ، لأنها قائمة أساساً على الفرضيات، هناك فرق بين نظريات العلم فى مجال الفلك أو الذره أو غيرها وبين نظريات السيكولوجية الفرويدية والوجودية والماركسية والبراجماتزمية، وغيرها من النظريات الفاسفية التى وضعها فليسوف ما من خلال تحديات عصره وبيئته وحياته الخاصه وتجربته وافتراضاته ، إن العلم حقائق أما الفلسفات فهى نظرات إصلاحية معرضة للخطأ والصواب ، صالحة لبيئة دون بيئة ، وعصر دون عصر ، أما العلم فهو تراث إنسانى مشترك بين سائر البشر يقوم على قواعد عامة ، أما الفلسفات فهى ليست كذلك ، إنها غير صالحة للاستيراد والتصدير ، فلكل فكر فلاسفة ولكل أمة نظرياتها المنبثقة من قيمها الأساسية ودينها وتاريخها وتشكيلها النفسى وذاتياتها الخاصة وروحها ووجدانها ومزاجها . إنها تتعلق بالانظمة الاجتماعية والأخلاقية ومناهج الحكم والقضاء والعلاقات الانسانية وهى تنبع أساساً من تاريخ الأمة نفسها ، فللغرب تاريخه وقيمه وفلسفاته ، وللعرب والمسلمين فلسفاتهم ومفاهيمهم التى تترجم نظرتهم الى الحياة وإسلوبهم فيها وهى ليست دائماً قابـــلة للتصدير أو الاستعارة والنقل .

فالوجودية والماركسية والبراجماتزمية والسيكولوجية ليست علوما لها قوة المنهج التجريبى ، وإنما هى فلسفات لها إتصالها بالنفس الانسانية والعقل والروح وكلها قوى لاتقاس بمقاييس المحسوس ومن هنا كانت الفلسفات وهى قائمة على النظر الخاصة المحدودة بحدود البيئة والزمن معرضة للخطأ ومعرضة للسقوط مع تغي

الأزمنة والأمكنة . أما العلوم فهى تراث إنسانى مشترك بين سائر البشر يقوم على قواعد عامة تجريبية .

ومن هنا كان خطأ قول القائلين حين يتكلمون عن نظرية من نظريات علم النفس أو الإقتصاد أو الإجتماع « العلم يقول » ذلك أن كلمة (العلم يقول) إنما توحى الى السامعين أن مايورد لهم هو حقائق معملية غير قابلة للنقض أو التغيير بينما نظريات النفس والاجتماع والإقتصاد على عمومها هى وجهات نظر افلاسفة وعلماء حاولوا أن يصلحوا مجتمعاتهم فى ظروف محددة ، ومن هنا فهى لاتصلح للنقل أو التطبيق فى بيئات أخرى لها ظروف تختلف وبيئات تتباين ، فضلا عن أن هذه النظريات جميعاً قد إستوحت الحضارة الغربية والبيئة الأوربية وتحدياتها الخاصة بالتراث اليونانى والرومانى والمسيحى ومن هنا فهى تختلف إختلافا واضحاً عن البيئة العربية الإسلامية بأديانها وتحدياتها وتراثها الفكرى ومزاجها النفسى وذاتياتها الخاصة . ومشاكلها المختلفة فى النوع والدرجة والتشكل .

ولذلك فان القول الحق هو أن الفلسفة وجهة نظر فلسفى صالح للنظر فيه للأخذ منه مايتفق مع البيئات والثقافات ولرفض مالا يصلح منه ولاعبرة بما يقال من أن الفكر عالمى فذلك قول يصدق بالنسبة للعلوم التجريبية وحدها ، أما الفلسفة الانسانية كالأخلاق والاجتماع والاقتصاد وغيرها فهى لاتخضع أبداً لقوانين العلم لأنها تتصل بالنفس الانسانية التى لاتخضع لقيود المقررات المعملية المحدودة .

الباب الثانى

• الادب

(٩) الادب العربى

(١٠) الاباحـة

(١١) الادب المكشوف

(١٢) التجـديد

(١٣) الفكر والادب

(١٤) القصـة

الادب العربى

أبرز مظاهر الادب العربى هى إنسانيته وطوابعه القائمة على الحق والخير والعدل ، وقد وجهت للادب العربى إتهامات متعددة وأثيرت شبهات كثيرة ، من أبرزها القول بتفشى السجع فى القرن الرابع الهجرى ومن الحق أن يقال أن السجع لم يجد قبولا من الكتاب العلماء ، ولدينا شهادة المقدسى فى هذا ولم يلق البديع قبولا من الكتاب الكبار ، وإنما نسب حب السجع والقوافى الى العامة وقد إستشرى السجع فى مرحلة ضعف الأدب العربى وتأثره بالآداب القديمة وانظلت الدراسات الثقافية فى مجـــال الاجتماع والأخلاق والسياسة وغيرها من الجوانب الايجابية فى الفكر الاسلامى قوية وقد جاء هذا الانحراف نتيجة لآثار الغزوة الشعوبية ، فقد إستمد الأدب العربى مفاهيمه أصـلا من الفـكر الاسلامى الذى يعـد « القرآن » قاعدته الأصيلة وبقى حريصاً على أن لا يجنح عن أرض الواقع الصلبة فلم يكن مهملا للقضايا الحيوية ، ولكنه تأثر فى مرحلة من مراحله بالآثار الواردة من الآداب القديمة والدخيلة فاضطرب أمره ثمة ثم عاد الى إصالته .

وقد كان الأدب العربى قادراً دوما على مغالبة أمرين : الأسطورية والخيال المغرق والاشراقية وهى طوابع وفدت الى الأدب العربى من الاداب الفارسية والهندية وغيرها ، وكان الأدب العربى فى واقعيته وإرتباطه بالطابع العملى والحياة أقرب الى مفهوم الاسلام وجوهره .

وحيث لم يكن هناك بد من هذا التأثر فقد كان الأدب العربى كالفكر الاسلامى حريصاً على أن لا يغرق فى الطوابع الدخيلة ، وكان قادرا على أن يتحرر منها وأن يأخذ مايزيده قوة دون أن ينصهر فى أى بوتقة تخرجه عن أصالته :

وقد إنحرف الادب العربى فى مجالين : مجال الشعر عندما أخرجه الشعراء الفارسيين الذين تأثروا بالمجوسية من أمثال بشار بن برد وأبو نواس وغيرهم ؛ أخرجوه من مفهومه الأصيل إلى الانحراف نحو الغزل الحسى والخمريات والغلمانيات وهو تيار بدأ غريباً ودخيـلا مدموغاً بالاتهام ، والمجال الآخر مجال النثر حين إنحرف الى السجع والمحسنات البديعية والمقامات واسرف فى ذلك إسرافاً إنصرف به عن طبيعته الأصيلة .

ويمكن القول بأن « الأدب العربى » فى مفهومه الحق قد تكون بعد الاسلام وأن ماسبق ذلك لم يكن سوى تلك الحصيلة من الشعر الذى ضاع أغلبه وما أثر من بعض الحكم وسجع الكهان فلما نزل القرآن تأسست القاعدة الأصيلة للادب العربى بمفهومه الصحيح القائم على قيم التوحيد والحق والعدل ، وكان القرآن باسلوبه ومضمونه معا هو المصدر الحقيق للادب العربى الاسلامى الذى تشكل فى ظل القرآن وجرى فى مجراه ، فقد جاء القرآن معجزاً ، هز النفس العربية ببلاغته ومضامينه معاً ، ولم يستطع بلغاؤهم أن يصلوا اليه ، وسقطت كل محاولاتهم فى تقليده ، ومن هنا نشأ الأدب العربى من خلاله ، وبدأ النثر العربى الاسلامى يسيطر ويأخذ طريقه ، متحرراً من سجع الكهان ، كما تحول الشعر ، فى مضامينه ونظمه وان كان النثر القرآنى قد أخذ المكانة الأولى ، وكان للقرآن نظرته الى الشعر والشعراء ، محرراً أياهم من الغرور والوثنية ومفاهيم الجاهلية ، وفى خلال ذلك نشأ أدب واسع الافاق حوته كتب السنة والشريعة والعلوم والتربية والتصوف .

غير ان مدرسة النقد الغربى الوافد التى تسلطت على الادب العربى الحديث قد حاولت ان تعزل هذا التراث عن مراحله الجديدة ، وان تقصره على جوانب معينة من شعر الشعراء وما وصف بالنثر الفنى والمقامات لتحجب تلك الثروة الضخمة من الادب العربى الاسلامى ثم كان لها أن أعلت من شان الادب ووسعت دائرته واذاعت شعر الشعراء الماجنين المسرفين واهتمت به وحاولت ان تتخذ من الأغانى وكتب المحاضرات مراجع ادبية وتاريخية ، وحاولت الحكم على العهود الاسلاميه الزاهرة من خلال هؤلاء الشعراء .

وكان هذا إنحرافاً خطيراً بالادب العربى الحديث عن طبيعته وعن إتصاله الوثيق بالادب العربى الاسلامى فى مراحله المتعددة بوصفها حلقات متصلة ، يسلم بعضها الى بعض ، وكان إعلائها لجوانب الكشف والغزل الحسى والاباحة هدفا من اهداف التغريب والغزو الثقافى لاخراج الادب العربى من مضمونه الاخلاقى الذى لا ينفصل عنه ، ومحاوله لدفعه الى الانصهار فى مفهوم الادب العالمية ، بينما تستحيل آداب الامم وثقافاتها عن التذويب والانصهار فى آداب الامم الاخرى لانها تستمد وجودها وكيانها من النفس والذات والمزاج الخاص ، الذى يختلف من امة الى امة والذى يختلف له الامة العربية الاسلامية الجوهر والمضمون كثيراً وعميقاً عن الآداب الاوربية التى تستمد جذورها ومصادرها من الآداب اليونانية الوثنية .

(١) راجع كتابنا (ذاتية الادب العربى)

الاباحة (فى الأدب)

كلمة « الاباحة » تعبير إشتقه الاستاذ محمد فريد وجدى معبراً به عن التحلل والخروج عن العرف وقد إتسع نطاق كلمة الاباحة فى مجال الكتابات الأدبية والإجتماعية على أثر موجه الدعوات المستحدثة الوافدة من الغرب والداعية إلى إطلاق حرية التعبير وحرية المجتمع فى مواجهة الضوابط الاخلاقية والأدبية . ولقد صنعت هذه الفلسفات المستحدثة للاباحة تبريراً متصلا بها لفقته المذاهب النفسية والإجتماعية التى تدعو الى أن للانسان مطلق الحرية فى القول والعمل. وهذا الإطلاق وهذه الحرية لاغبار عليها إذا ماصدرت فى حدود قاعدة واضحة أساسية فى بناء المجتمعات وقانونية وهى « عدم الإضرار بالغير » وترى مختلف الدعوات العقائدية سواء منها المستجمدة من الأديان السماوية أوالدعوات الأخلاقية البشرية أن للجماعة أصولا عامة تطلق بها الحريات ولكنها تحول دون تحطيم إنسانية الإنسان أو ازهاقها أو تدميرها بالاسراف أو الانحراف أو التمزيق ، وقد ربطت هذه الدعوات بين واقع الانسان الروحى والمادى معاً وحاولت أن تخلق له « توازنا » قادراً على بناء شخصيته والمحافظة عليها وانمائها . غير أن دعوات جديدة ظهرت فى الفكر الاوربى والغربى على السواء فى مجال إستعلاء الفلسفة المادية حاولت أن تدعو الى تحرير الفن والأدب من القيود وإطلاقها إطلاقاً كاملا . وقد جاءت دعوة الأدب الغربى والفن الأوربى الى الاباحة بمثابة رد فعل على موقف المسيحية والكنيسة والقسسين فى الغرب من مقاومتهم لحرية الفكر ، فكانت تلك الإندفاعة التى أخرجت الفنان والاديب من ضوابط الاخلاق وقيم المجتمع ، مما فتح الباب لموجة طاغية من موجات الاباحة فى المجتمع نفسه ، وكان ذلك فى الحضارة الحديثة متصلا أوثق اتصال بالحضارة الاغريقية ومفهومها الاباحى المتحلل من مختلف القيم والضوابط الاخلاقية قبل الميلاد .

فالفكر الغربى حينما يندفع الى موجات الاباحة والتحلل إنما يجد من مصادره وتاريخه وسوابقه وجذوره مايوصل له هذا الاتجاه ، أما فى الفكر الاسلامى العربى فان الامر يختلف إختلافاً كبيراً .

ذلك أن المجتمع العربى الاسلامى كان مرتبطاً طوال حلقات تاريخه بمقومات

وقيم ذات طابع أخلاقى فى مختلف مجالات العلاقة بين المرأة والرجل ، ومختلف علاقات المجتمع والسياسة والتجارة وغيرها وأن موجه القرن الثالث الهجرى خلال العصر العباسى التى كشفت عن جوانب من التحلل والاباحة تمثلت فى شعر بعض الشعراء لم تكن الا مرحلة عارضة وغزواً شعوبياً التمس مصادره من الفلسفات اليونانية والفارسية وديانات المجوس ومذاهب المانوية والزرادشتية وغيرها ، وقد جاء هذا الطابع من الاباحة المتمثل فى أبى نواس وبشار وغيره فى ظل تحديات خطيرة واجهتها الحضارة الإسلامية والمجتمع وهى تحديات اضطربت فيها معايير الفكر الإسلامى وتطبيق الشريعة الإسلامية حين ظهر طابع الترف العاصف وطوابع التسرى وأسواق الجوارى وغيرها مما كان مخالفاً فى حركته لمفهوم الإسلام نفسه ، ومما أدى الى رد فعل قوى من الناحية الأخرى بظهور فلسفات الزهادة والتصوف الفلسفى الى جوار مذاهب الباطنية وغيرها .

وقد انبعثت هذه الدعوات والحركات على أيدى رجال كانت لهم صلات سابقة بالديانات الفارسية والفلسفات الدخيلة ولم يكونوا فى حقيقة الامر منطلقين من مفهوم أصيل للفكر الإسلامى بما غير به مفاهيم المجتمع والحياة .

وما يزال مفهوم الفكر العربى الإسلامى الاصيل ان تقوم الضوابط الى جوار الحريات موازنة الكيان الإنسانى ويرى كثير من الباحثين — حتى فى الغرب نفسه مثل تولستوى — أن كل فكرة فنية لا تستقيم والشعور الدينى فهى ليست فناً أصيلا وأن شأن الفن أن يعلى من أمر الإنسان ويسمو به ويقيم بين الناس صلات المودة والاخاء وأن يدفع البشرية نحو الوصول الى الانسانية .

للتوسع راجع بابى الفن والاخلاق من كتابنا (القيم الاساسية للفكر الاسلامى والثقافة العربية)

(١١)

الأدب المكشوف

تجرى الدعوة التغريبية الدخيلة على الادب العربى والفكر الإسلامى والثقافة العربية الى القول بان الادب فن حر يصور النفس الانسانية وليس له أن يعطل عمله ليسأل عن قواعد الأخلاق . وهذا مفهوم غربى خالص ، وبعيد كل البعد عن الذوق والضمير والمزاج العربى والاسلامى فالمفهوم العربى الاسلامى للادب أنه وحدة من وحدات الفكر الكلية لاتنفصل عنها ولا تستقل بل تتكامل وتتلاقى مع وحدات الاخلاق والدين والمجتمع على نحو لايضحى فيه بأى قيمة من القيم فى سبيل إعلاء قيمة أخرى ، وهذا مايختلف مع المفهوم الغربى الذى يستقل فيه الأدب بانطلاقته وحركته الحركة بعيداً عما يتأثر به المجتمع أو الاخلاق أو الدين : بل أن الفن والادب فى الفكر الاسلامى والثقافة العربية والادب العربى يلتقى مع الدين والاخلاق ولا يتعارض معها ليؤدى دوراً بناءاً متساميا لحياة الجماعة والفرد معاً . فليس هناك تعارض أصلا بين الادب والاخلاق ، أو الفن والدين بل هناك تطابق واتفاق ، مثل ذلك التطابق القائم بين العلم والدين . وفى هذا يقول العلامة محمد أحمد الغمراوى « أن الفطره كلها منشئا واحداً هو الله والعلم والدين كلاهما إجتمعا على إستحالة التناقض فى الفطرة فاذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة وجب الا تخالف أو تناقض دين الفطرة ، ودين الاسلام فى شئ . فاذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمنا الى رزيله من أمهات الرزائل التى جاء الدين لدفعها عن الانسان حتى يبلغ ماقدر له من الرقى فى النفس والروح ، وإذا خالفت الدين فى شئ وإذا خالفت الفنون الدين فى شئ من هذا فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون قد جانبت الحق ودابرت الخير وأخطأت الفطرة التى فطر الله عليها الناس والخلق » ومعنى هذا أن الادب والفن يتطابقان مع الدين والأخلاق فى الفكر الإسلامى والثقافة العربية ولذلك فان الأدب المكشوف المستورد الغربى الاصل يبدوا وافداً غريباً لاجذور له ولا أصالة لانه معارض للمزاج والذوق والفطره جميعاً .

فاذا قيل أن الأدب العربى القديم قد عرف الأدب المكشوف قلنا أن ذلك لم يكن بدافع الفطره بل كان غزواً شعوبياً على النحو الذى نواجهه اليوم ونسميه بالغزو التغريبى ، وأن هذا اللون إنما دخل على أيدى المتصلين بالثقافات والديانات والفلسفات ... وثنية اليونان ومجوسية الفرس وفلسفات الهند

وأن الذين إنصهروا فى إصالة الفكر لاسلامى إنصهاراً تاما من الفرس أو الترك أو العناصر الاخرى قد إستجابوا لفطرة الفكر الاسلامى أما الذين ظلوا على مفاهيمهم القديمة وابتعثوها من جديد معارضة للدولة الاسلامية أو الاسلام أو خصومة لها فانهم هم الذين عرفت لهم هذه الالوان من أمثال : بشار وأبى نواس وغيرهم ، هذا هو الطابع المكشوف الذى أدخل على الادب العربى فى باب المجون والفحش واستشرى فى أبواب الهجاء والخمريات والشعر الخليع غير أن أدبنا العربى كان دائماً قد حدد موقفه على نحو يختلف عن الأدب الغربى فقال « الشعر الرفيع لايقاس بحسن الديباجة وبراعة المعنى فحسب ولكن بشرف الغرض » وهذه نظرة تختلف إختلافا بينا عن مفهوم الادب الغربى الذى يرى أن الادب هو الاداء الفنى بصرف النظر عن غايته وطابعه : مكشوفاً كان أو غير مكشوف .

وروح الفكر الاسلامى والادب العربى يقوم على القول الكريم ، دون الهجر، وعلى الاشارة العابرة الى الأمور المبتذلة دون الكشف والافاضة فى التبذل والتهتك وتصوير المحرمات الجنسية والميول المنحرفة ، وذلك بالقدر الذى يدل عليها ، أما هذا اللون من تصوير أخفى الغرائز البشرية والتحدث عن تطوراتها وتقلباتها على النحو المثير الذى تكون له إثارة البعيدة فى نفوس الشباب والفتيات فهو غير مقبول، هذا فى نفس الوقت الذى يستبيح فيه العلم كعلم دراسة قضايا الانسان والنفس البشرية ومعرفة أهوائها عن غير طريق الادب .

فالفكر الاسلامى والثقافة العربية إنما تلتمس عناصر الوحدة والتكامل فى جزئياتها على نحو يحقق لها بناء الفرد السليم والمجتمع السليم . حيث لا تعارض بين الروح والمادة ، ولا تصادم بين الأدب والاخلاق ، أو بين الفن والمجتمع ، ومقياس الجمال النفسى الإنسانى إنما تتمثل فى الوسطية بعيداً عن منحدر الشهوانيات واللذات ، وبعيداً أيضاً عن الجمود فالفكر الإسلامى قد أعطى الحرية فى متاع الحياة دون إسراف أو تبذل على هدى الفطره التى فطر الله الناس عليها ، والادب المكشوف لايقدم السعادة ولا السلامة ولا يرسم للنفس الإنسانية أسلوب الجمال والخير والحق ولكنه يكشف جوانب موغلة فى الاباحة والتهتك على نحو من شأنه أن يدمر النفس الانسانية لا أن يحييها ويسمو بها .

ولا شك أن الاتجاه الى الكشف فى الادب فن غربى له جذور أغريقية قديمة وله طوابع متصلة كل الاتصال بالوثنية وعبادة الأجساد والانفصال فى مجال الفن والادب عن المجتمع وعن الدين ، وإذا كان بعض الفلاسفة الغربيين قد عارض كل فن لايستقيم مع الشعور الدينى فان الفكر الاسلامى يرى أن التوازن بين هذه القوى جميعاً هو عامل قوة للشخصية الانسانية وحماية لها من التحطم والانهيار ودفعاً لها الى الخير والقوة، وعندنا أن هذه المذاهب التى تحمل طوابع لها مظهر علمى براق إنما هى دعوات مستتره الى الهدم وعوامل تغريبية ذات هدف بعيد فى محاولة القضاء على مقومات هذه الأمـــة وتحطيم روحها الإيجابى ذى الطبيعة المتكاملة ديناً ودنيا ، وروحا ومادة .

التجديد

كانت كلمة « التجديد » احدى الاصطلاحات الخطيرة التى اتكأ عليها النفوذ الاستعمارى والتغريب لشجب التاريخ واللغة والتراث والدين ومختلف فنون التراث القديم واتهامها بعدم الصلاحية للوجود ، ومعنى التجديد فى كتابات دعاته هو الانفصال الكامل عن كل قديم والاتجاه الشامل إلى الجديد ، دون تحفظ .

وفى مواجهة التجديد كانت هناك الحملة على الجمود والسلفية والتقليد والرجعية . غير أن استطراد هذه الدعوى وبلوغها اقصى مدى التحدى ، كشف عن خطأ الداعين لها ، حتى من وجهة نظر التقدم والنهضة ، وربطها ربطا أكيدا بالتغريب والنفوذ الاستعمارى ، فأن الدعوة الحقه إلى النهضة حين تدعو الى التجديد لاتفصله عن القديم ، ولا تعزله عن الماضى بل تجعل من الماضى سبيلا الى الجديد ومن التطور رابطة بين القديم والحديث ، والغربيون انفسهم الذين يلتمس بعض الكتاب مناهجهم انما يفهمون التجديد على هذا النحو ، فلا انفصال مطلقا بين الكلاسكيه والعصريه ، أو بين الاصالة والتجديد ، أو بين الماضى والحاضر ، وقد عرف أصحاب النهضات والحضارات بذلك الرابط الاكيد بين الماضى والجديد ، فالاصول الاولى لها قيمها الاساسية فى بناء كل جديد وهى ذات معنى بعيد يشمل كل شىء تقريبا ، فالاسس والارض والجذور كلها معالم طبيعيه لكل حركة تدعو الى التجديد .

وقد ذهب العلماء العقليون والتجريبيون مما وهم أبعد الناس عن أوهام الفلسفة ، ودعوات الغزو الثقافى والتغريب واقتلاع الامم من مقوماتها وجذورها الى أن المعنى الحقيقى لكلمة (جديد) هى فكرة نقد شىء فى ط
التجول ، فى حين أن كلمة قديم تعنى الموجود الساكن الموضوع مسبقا . و
كلمة قدم استعملت عند العرب بمعنى الموجود لم يزل ، وتجمع المفاهيم ال
التجديد عن أن التجديد فى الآداب كالتجديد فى العلم لايمكن أن يقوم إلا

أساس تعاون الماضي والحاضر، ويبنى العقل فى حاضره على أساس العقل فى ماضيه (١)

ويصور مصطفى صادق الرافعى التجديد فى الآدب على نحو على غاية فى العمق حين يقول أن التجديد يتمثل فى قاعدتين :

(الأولى) أبداع الادب الحى فى آثاره بفكره بما يخلق من الصور الجديدة فى اللغة والبيان

(الثانية) أبداع الحى فى آثار الميت بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثه وأساليب الفن الجديدة ، وفى الأبداع الاول إيجاد مالم يوجد وفى الثانى إتمام مالم يتم ، فلاجرم كانت منهما معا حقيقة التجديد بكل معانيها ولا تجديد الا ثمة ، فلا جديد الا مع القديم » .

ولا شك أن التجديد قانون طبيعى وقانون ثابت فاذا لم يكن تجديد فتدهور وانحطاط وهو فى الفكر شأنه فى الكائنات الحية ، بيد أن له أصوله ومقوماته وقواعده فهو لاينفصل عن أرضيته وقاعدته . ولاينقطع عن تطوره الطبيعى .

---

(١) عن بحث للدكتور محمد أحمد الغمراوى

الفكر والادب

هنالك خطأ كبير مشهور ، نبه إليه كثير من الباحثين ، وما يزال فى حاجة إلى التذكير، ذلك هو تحرير دائرة الآداب ، وتحديد مكانها من دائرة الفكر الاوسع والاشمل .

فالفكر هو الوحـــدة الأساسية الذى تصدر عنها جميع الفروع والاجزاء . ويضم الفكر فى بوتقته: الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والقانون والادب وكلها فى مفهوم الفكر لاسلامى تتكامل ولا تنفصل ولا تستقل فالادب قطاع من الفكر بوصفه أدبا له ومفاهيمه وطبيعتـــه ودوره الطبيعى ولكنه فى حركته هذه لاينفصل عن دائرة الفكر ولايخرج عن مهمته وطبيعته فيفرض نفسه على دوائر أخرى فيسيطر عليها ويتكلم باسمها .

غير أن الادب العربى الحديث قد دفع دفعاً إلى هذه المخاطرة ، وأطلقت له الحرية ، فخاض فيما ليس من أختصاصه ، فأخطأ كثيراً وجاوز هدفه ومهمته . وليس فى هـــذا ما يفهم منه معنى الحد من حرية الادب ولكن فيه دعوة إلى الارتباط بالقاعدة الأساسية التى قام عليها الفكر الاســلامى وهى قاعدة التكامل بين الفروع والاجزاء التى تشكل فى مجموعها عملا متكاملا ، ذلك لأنه إذا أطلق للآدب حريته على النحو الذى تدعو إليه الاداب الاوربية لكان فى ذلك عدوانا على دائرة الدين والاخلاق والمجتمع والادب العربى المستمد من الفكر الاسلامى هو أدب ملتزم بالعمل على ترقية المجتمع واعلاء شأن الاخــلاق ،فهو لايستطيع أن يتحرر من مهمته تلك ،

ولذلك فان الادب العربى بقيمه ومفاهيمه لا يستطيع أن يتقبل بسهولة نظرية تحرير الادب من أخلاقيته هذه النظرية التى دعا إليها الادب الغربى واستمدها من الادب اليونانى الذى فصل بين الادب والاخلاق ، وقد زاد هذه النظرية قوة، ظهور نظريات فرويد ومذاهب الفن للفن، وهى نظريات ثبت خطأها العلمى وانحرافها، ولقد حاول دعاة التغريب فرض هذا المنهج على الادب العربى ، ولكن الادب العربى الذى يتصل بالفكر الاسلامى اتصالا عضويا ضمن دائرة متكاملة ، تقوم

على أساس أن الفكر فى مجموعه إنما يعمل من خلال الشخصية الانسانية المسلمة فى بنائها وترقيتها والسمو بها وأعلائها ،هذا الأدب العربى رفض هذه الدعوة. ايمانا بأنه لايمكن أن يتجه فرع من الفكر الاسلامى للبناء بينما يتجه فرع أخر إلى الهدم .

واقد دعا الباحثون المنصفون الادب (أى أدب) أن يلتمس طريقه الاصيل معليا قانون الأخلاق القائم على حراسة الاجتماع .

واقد كانت هناك آثار سيئة لتعدى الادباء دائرة عملهم والتداخل فى دوائر أخرى بينما هم لم يؤمنوا أساساً بتكامل الفكر الاسلامى ولم تتح لهم الفرصة لدراسة الجوانب الأخرى على النحو الذى يمكنهم من استعراضها والحكم عليها .

وذلك أن بعض الادباء عرضوا فى العقد الثالث والرابع الى الدين والاخلاق، وتناولوا هذه المباحث على طريقة الماديين فأثاروا شكوكا كثيرة ،وكان لانتشار الادب فى الصحف أثره فى نفوس القارئين ، هذا الأثر السىء الذى قصد إليه التغريب من طرح قضايا الفكر الاسلامى عن طريق غير المتخصصين فيه ، وفى هذا يقول العلامة محمد فريد وجدى « كيف يرجى من إديب كل همه منصرف إلى تحليل عاطفة الهوى ودرس ثارات الجوى،وتصوير وقع الوعود الكاذبة وفضول العذال واللاهين وعدوان المنافسين والمعاكسين، أن يتناول بالبحث أعلى عواطف النفس وهى عاطفة الدين ، بمثل أسلوبه الذى مرن به عليه وأستولى على شعوره، وهى تستدعى أسلوبا يجافى هذا الاسلوب ولايمت إليه بصلة من درس النفس فى حالة عزوفها عن الشهوات وترفعها عن الغرائز ، رأيناهم يثيرون شكوكا يجرون فى مباحثهم التاريخية والاجتماعية على غير الاسلوب العلمى من التحقيق والتمحيص (١) .

من هنا نعرف الفرق بين دائرة الادب ودائرة الفكر ، وأن دائرة الأدب تقتصر على تصوير الانسانية ، أما الفكر فأنه الدائرة الاوسع التى تتصل بالشخصية الانسانية من جوانبها المختلفة العقلية والروحية والقانونيه والاجتماعية والاقتصادية.

وفى مفهوم الفكر الاسلامى أن الادب حلقه من حلقات الفكر لاتنفصل ولاتتحرك فى غير اتجاه التوازن والتكامل مع الحلقات الاخرى .

---

(١) راجع كتابنا (الاسلام والثقافة العربية)

القصـــة

« القصة » فن من فنـون الادب : كالشعر والنثر والترجمـة ، وهو فن قديم ومستحدث وهو فى حاجة إلى إلقاء أضواء كثيرة عليه ، حتى ينكشف موقفـــه الصحيح من الادب العربى وفيما قبـل ظهور الاسلام ونزول القرآن كان هنـاك كثير من الاساطير التى أطلق عليها من بعد اسم القصة : وهى أساطير اليونان فى الغرب وأساطير الفرس والهند ، وهناك أساطير العرب فى الوثينية العربية .

وكانت هناك الملاحم والمسرحيات التى عرفتها أوربا فى ظل الوثنية الاغريقية ثم فى ظـل المسيحية الغربية ، وقد أستمد كثيرمنهـا من الـكتب الدينيـة القديمة ، فلما جاء الإسلام ، ظهر عصر جديد وفهم جديد للقصة ، ذلك هو ما ألقاه القرآن الـكريم المنزل حيث عرض لعدد من قصص الأولين ، عـلى نحو له طابعه الخاص المتميز ، بالصدق والشمول والايجاز والاستعلاء على التفاصيل واستخلاص العبرة والتماس حكمة التاريخ ورسم نواميس الحضارات وقوانين قيام الأمم وسقوطها ، والعوامل ذات الأثر فى تطوير المجتمعات وإنهيارها وذلك من خـلال تاريخ الأنبياء والأمم والدول التى مرت بها البشرية من قبل .

وقد وصف القرآن قصصه بأنه (القصص الحق) القائم على الواقـع الصادق البعيد عن الخيال والتزيد والتفاصيل وذلك جريا مع منهج الايجاز والشمول والقصد .

ومن هنا فان مفهوم القصة الحديثة الذى عرفه الادب الغربى مستمدا أيـاه من التراث الهلينى اليونانى ، أو ماعرف من قصص مثل كليلة ودمنه أو ألف ليلة أو غيرها مستمدا من التراث الفارسى الهندى القديم ، هـــذا المفهوم لايتفق مع مفهوم الادب العربى الحقيقى المستمد من القرآن للقصة .

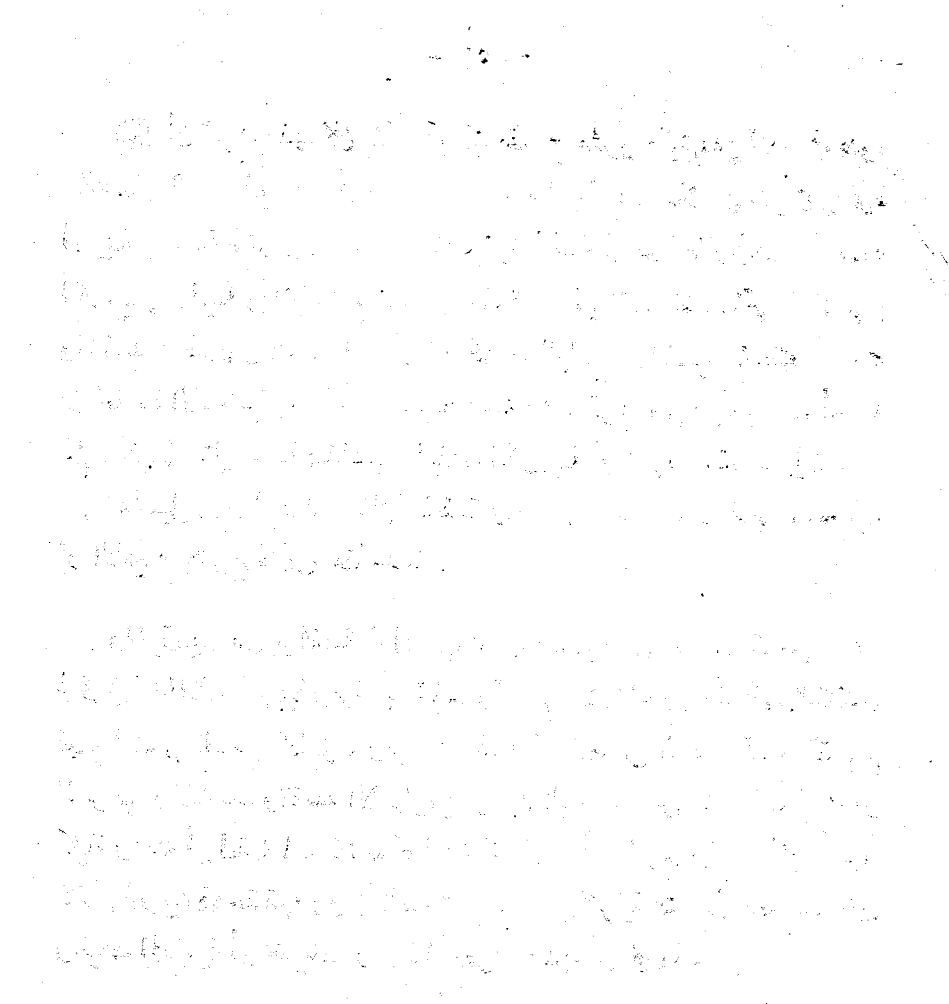
والفكر الاسلامى لايقبل من القصة غير لون واحد هو (القصص الحق) ذلك أن الادب العربى قد أتسم منذ ظهوره وإلى اليوم بخاصية واحدة تتمثل فى الصدق والوضوح والإيجاز وهى عناصر تكاد تكون مضادة للقصة الحديثة بل ومعارضة لها

ذلك أن العربى الذى كان يفكر فى أفق مفتوح مشرق طليق، من النور فى ضوء الشمس التى تطالع على أرض الصحراء الواسعة ، فضلا عن طبيعته الحرة الجريئة ، طبيعة الفارس المقاتل ، الذى يقول كلمته فى صراحة ووضوح ، هذه الملامح فى الطبيعة والإنسان لم تكن فى حاجة إلى فن القصة القائم على الرموز والمبالغة والظلال والاستخفاء ، أو على الشرح الواسع والتفصيل الكثير ، ذلك أن العقيدة الاسلامية كانت أيضا بسيطة سمحه وهى تقوم على التوحيد أساسا فلم تكن فى مثل حاجة المذاهب والعقائد الاوربية أو الشرقية القديمه إلى مزيد من التفاصيل وإلى إدخال فلسفاتها المعقدة فى قصص ومسرحيات تقام فى المعابد أو الاديره لتشرح للناس مقاصدها .

والفرق بين مفهوم القصة فى الادب العربى ومفهومه فى الاداب الأخرى، هو فرق فى ذاتية الامة العربية ومزاجها النفسى وتركيبها الاجتماعى والجغرافى والعقائدى البسيط السهل السمح الطليق ، ومن هنا فقد أختفت من الادب العربى القديم المسرحية والملحمة والقصة الاسطورية وحين ظهرت قصص مثل ألف ليلة أو كليلة ودمنه أو المقامات كانت كلها دخيلة على الآدب العربى ولم تكن تصور النفس العربية فى حقيقتها وربما كانت تصور النفس الشرقية التى مازالت تحت تأثير وثنيات المجوسية أو نظريات وحدة الوجود الهندية أو غيرها .

أما النفس العربيسة حتى فى وثنيتها القديمة وأساطيرها الجاهلية فقد كانت بسيطة غير مسرفة حيث لم تكن إلا انحرافا عن التوحيد القديم الذى جاء به ابراهيم .

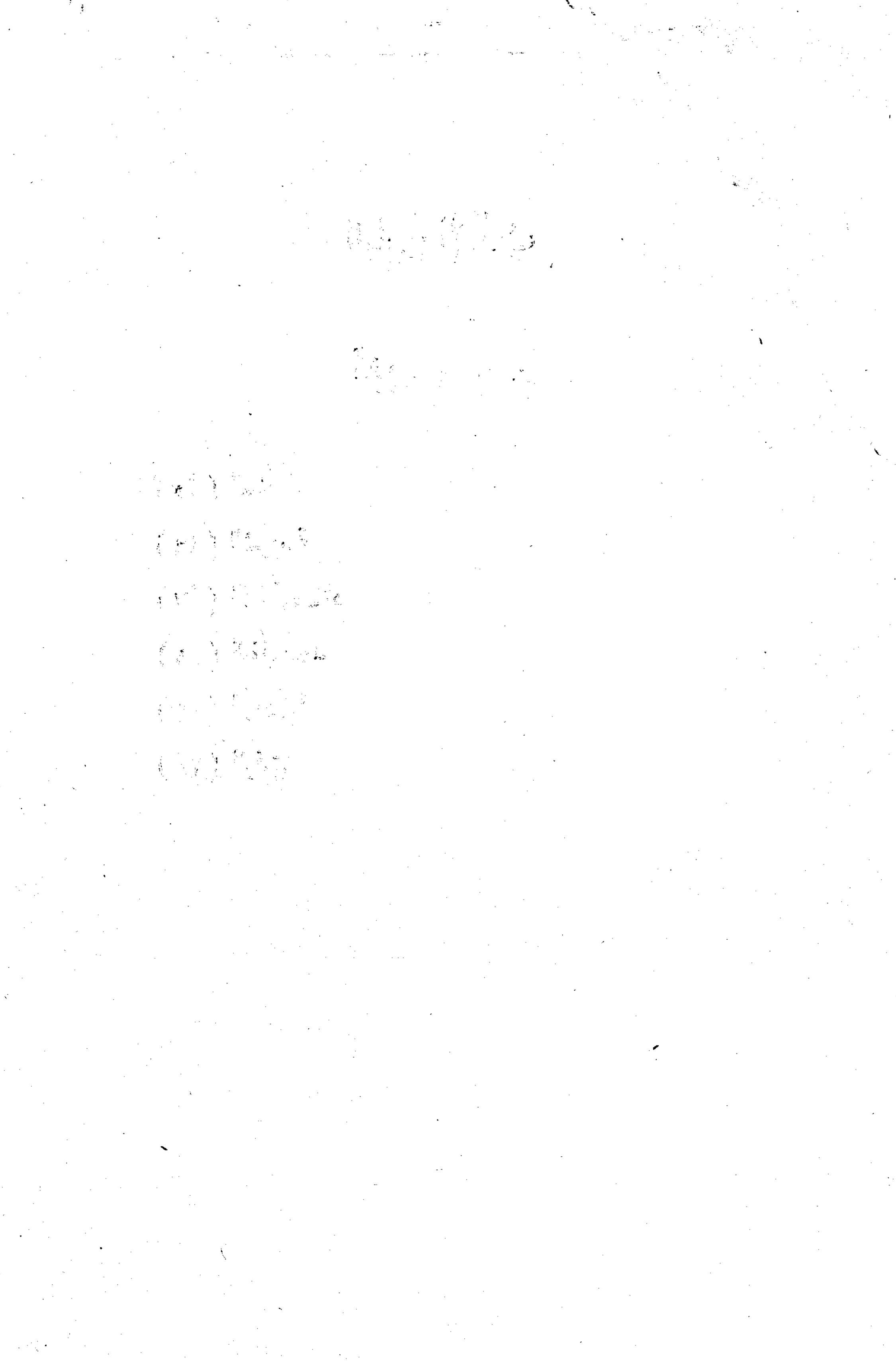
ومن هنا فان القصة فى مفهومها الغربى اليوم قائمه على الخيال والوهم ، وعلى العقدة والحل ، وعلى الاسراف فى التفاصيل ، وعلى أنتقاء الصدق ، وعلى طوابع الرمز والظلال إنما نجمح بعيدا عن جوهر النفس العربية ولا تكون الا صورة مقلدة للآداب الغربية ولذلك فانها تسقط وتختفى مع إشراق المفهوم الاصيل للذاتية العربية والمزاج النفسى الاسلامى الذى هو مصدر الادب فى الحقيقة .



الباب الثالث

الفقـــــه

(١٥) السنة
(١٦) الشريعة
(١٧) الاجتهـــاد
(١٨) التقليـــد
(١٩) الربـــا
(٢٠) الرقيق



السنة

السنة هى تفصيل ما أجمل القرآن والتطبيق العملى للاسلام . وتشمل السنة : الحديث النبوى وأعمال الرسول نفسه . وقد أثيرت الشبهات منذ وقت طويل حول السنة . وترددت دعوات كثيرة تطالب الاكتفاء بالنص القرآنى وتتهم الحديث النبوى بانطوائه على كثير من الدخائل ، والحق أن الدعوة إلى رفض السنة أو إنتقاصها والاكتفاء بالنص القرآنى وحده إنما هى دعوى تغريبية خبيثة ترمى إلى الفصـــل بين النص والتطبيق وبين القانون والواقع العملى الذى جرى عليه الاسلام منذ أقام مجتمعه وأنفذ نظامه .

فالسنة هى التطبيق الواقعى العملى المتمثل فى الأسلوب الذى اتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ النص القرآنى ، ومن هنا فالنص القرآنى وحده لايكفى المسلمين اليوم ولا يحقق لهم إسلاما حقيقياً ، وهذا فضلا عن أن (السنة) جزء من القرآن نفسه بنص القرآن : « ونزلنا إليك القرآن لتبين للناس مانزل إليهم » .

فهذا البيان الذى يفسر القرآن ويطبقه هو بإقرار القرآن جزء أساسى ، وفى هذا يقول العلامة ليولد فابس (محمد أسد) :

إن رفض الحديث يرجع إلى إستحـــالة الجمع بين حياتنا الحاضرة المتقهقرة وبين روح الاسلام الصحيح كما يظهر فى سنة النبى — فى نظام واحد ، ولـكى يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا تصورهم وتصور بيئتهم فانهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة إتباع السنة لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بامكانهم حينئـذ أن يتأولوا تعاليم القرآن الـكريم كما يشاءون على أوجه من التفكير السطحى ، أى حسب قبول كل واحد منهم وحسب طريقة تفـكيره هو ، وهذا هو الهدف الـكامن وراء مهاجمة السنة وإثارة الشبهة حول الحديث .

وقضية التقليد قضية قديمة قدم الفكر الاسلامى وهى فى نفس الوقت قضية أساسية يتخذ منها الاسلام موقفا واضحا أساسه التحذير من التقليد ومدى الخطر المترتب عليه . وفى هذا يؤثر عن رسول الله قوله : « لتتبعن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه »

قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ، قال فمن !

والمسلمون والعرب فى العصر الحديث خرجوا من تقليد قديمهم الى التقليد الغربى فكأنهم عادوا الى السنن السابقة حيث يقوم الفكر الغربى فى جوهرة على الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى ويعتنق نفس النظريات القديمة المتصلة بالوثنية واعلاء الاجناس والالوان والتفرقة العنصرية واعتبار مادون اللون الابيض (صاحب الحضارة) عبيد وأتباع ! ومن الخطر أن يظن المسلمون والعرب أنهم بخروجهم عن قديمهم وفيه الكثير من قيمهم الانسانية الفطرية المتجددة ، الى تقليد الغربى المستحدث الذى يرجع فى أساسه الى قديمهم السابق للتوحيد والاديان ، إنما يتجددون ويتطورون ، ذلك أنهم فى الحق انما يتركون أصلح مافى القديم الحى المتصل بواقعهم وتاريخهم ، الى القديم المتجدد من تراث الوثنية السابق على التوحيد والاديان .

وهو فاسد كل الفساد بعيد عن طبيعة الفطرة الانسانية التى يمثلها الاسلام أعظم تمثيل .

الشريعة

يطلق لفظ «الشريعة» على النظام الذى شرعه الاسلام فى التعامل بين الناس ، وهو القانون الذى كان مطبقا فى العالم الاسلامى والبلاد العربية إلى حين قدم النفوذ الاستعمارى فأزاله وأقام بدلا منه قانونه الأوربى المعروف الذى ماتزال تتعامل به أغلب بلاد العالم الاسلامى الى اليوم .

وقد جرت أبحاث عديدة خلال العقود السبعة الماضية حول المقارنة بين الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية وقام دعاة التغريب باثارة الشبهات حول الشريعة الاسلامية وإعلاء شأن الأنظمة الغربية وكان لورد كرومر فى مقدمة من حمل على الشريعة الاسلامية فى مصر منذ عام ١٨٩٢ وقد أورد هذه المعانى فى كتابه (مصر الحديثة) الذى صدر عام ١٩٠٧ وهاجمه كثير من أساطين الفكر فى مصر والعالم العربى وكشفوا وجه الحقيقة فى أمر الشريعة الاسلامية ولم يمض على ذلك أكثر من ثلاثين عاما حين اعترف أساطين القانون فى العالم أجمع بايجابية الشريعة الاسلامية واستقلاليتها وأصالتها وقدرتها على أن تقـدم للعالم كله وللانسانية أصلح نظام وذلك فى مؤتمر القانون الدولى فى لاهاى سنة ١٩٣٧ الذى قرر بأن الشريعة الاسلامية نظام قانونى مستقل غير مأخوذ من التشريع الرومانى وبذلك تقرر تمثيل الشريعة الاسلامية فى محكمة العدل الدولية كنظام مستقل من النظم العالمية الكبرى وفى خلال هذه الفترة هوجمت الشريعة الاسلامية ومن بعد هذا المؤتمر أيضا ، وفصل الاسلام عن أنظمة الحكم ، وفصل المجتمع عن الشريعة فى حياة المسلمين . ومن هنا انطلقت دعوات الفصل بين الدين والسياسة ومحاولة القول خطأ بأن الاسلام دين عقدى ولا صلة له بالمجتمع والحياة ، جريا وراء المفاهيم الغربية الذى رددت ذلك فى أوربا بالنسبة للمسيحية ، وكانت هذه الدعوات والمحاولات ترمى فى الأغلب الى تصوير الاسلام بصورة مختلفة عن حقيقته وجوهره ، باعتباره الدين الوحيد الذى قصد الى بناء مجتمع وفق نظام كامل ، وليس قاصرا على العبادات وحدها ، ولا على الأحوال الشخصية

من زواج وطلاق وإرث وإنما يشمل مختلف جوانب المعاملات فى المجتمع ، سياسية واقتصادية وتربوية وأخلاقية .

والقدجرت محاولات متعددة خلال فترة الاحتلال البريطانى لمصر وفى خلال فترة الحماية قبلها تهدف إلى إلغاء الشريعة الاسلامية من أنظمة الأحوال الشخصية الخاصه بأحكام الزواج والطلاق .

وقد واجه المفكرون المسلمون هذه القضية باهتمام كبير ، وأصدر (على أبو الفتوح) أول كتاب عن الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية عام ١٩٠٥ ، كما أجرى كثير من الباحثين بعد ذلك مقارنات حول ما أثير من شبهات عن صله بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى وأشارت (المنار) الى واقعة دخول القانون الفرنسى الى البلاد المصرية فى أواخر عصر إسماعيل وقالت :

« إنه لما أريد تنظيم القضاء لم يتمكن العلماء المصريون من الكشف عن جوهر الشريعة الاسلامية واضطروا تحت ضغط النفوذ الأجنبى إلى ترجمة قانون نابليون ، وقد واجه الفكر الاسلامى منذ يقظته كل ما أثير ضد الشريعة الاسلامية وما يوجد من أوجه نقص فى القانون الأوربى فيما يتعلق بالزنا والربا والخمر والميسر ومسائل زواج المسلمة بغير المسلم ومسألة الميراث وإباحة البغاء وظهر علماء من رجال القانون وممن درسوا القوانين الأوربية والشريعة الاسلامية وكشفوا عن الفوارق والميزات بين الشريعة والقانون ، وأشار الكثيرون الى ما جرت عليه تركيا فى عصر مصطفى كمال من تبنى القانون المدنى السويسرى ، وأبانوا عن أن هذا القانون ليس مستحدثا ، وإنما هو مزيج من القانون الرومانى القديم والروح المسيحية وأنه وضع تصميما خاصا بعادات وتقاليد أمة من الامم وكيف أن ذلك يكشف عن مخالفته لدين وتقاليد وعادات تركيا .

وفى عام ١٩٥١ عقدت شعبه الحقوق الشرقية من المجتمع الدولى للقانون المقارن مؤتمراً للبحث فى الفقه الإسلامى فى كلية الحقوق بجامعة باريس تحت اسم (أسبوع الفقه الإسلامى) ودعت عدداً كبيراً من المستشرقين وأساتذة القانون فى الدول العربية لبحث كثير من النظريات وأبدى نقيب المحامين فى باريس عجبه حين قال :

ولست أدرى كيف أوفق بينهما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الاسلامى وعدم صلاحيته أساسا تشريعيا يفى بحاجات المجتمع العصرى المتطور وبينما نسمع الآن فقد ثبت بجلاء : أن الفقه الاسلامى يقوم على مبادىء ذات قيمة أكيدة لا مرية فى نفعها وأن اختلاف المذاهب الفقهية فى هذا الجهاز التشريعى الضخم ينطوى على ثروة من الاراء الفقهية وعلى مجموعة من الاصول الفنية البديعة التى تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة

وقد عرض الكثيرون الفروق والمخالفات بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى وأبرزها أن الشريعة الاسلامية لم تفرق بين الروح والجسد ولم تهمل واحداً منهما، وأن الإنسان مركب منهما جميعا ، وأن المسلمين قسموا الفقه على أساس العبادات والمعاملات والعقوبات بينما قسم القانون الرومانى على أساس الاشخاص والأشياء والخصومات » .

وأن أساس القانون الاسلامى مستمد من كلام الله المنزل بالوحى، أما أساس القانون الرومانى فمستمد من مشيئة الإنسان ، وإن خلاصة القانون الإسلامى : (لا اله إلا الله محمد رسول الله) بينما بنى الرومان أحكامهم إما على أوامر رئيس الحكومة أو العرف والعادة ، وقد أهملت كتب الفقه الرومانى المسائل العمومية كالامور الدستورية واحكام القانون الدولية وجملتها من أمور السياسة ، بينما الامام عند الفقهاء المسلمين هو أمام صلاة الجماعة كما هو أمام دوله المسلمين ، وفى القتل تشكل العقوبة عند المسلمين حسب النية من حيث العمد والخطأ ولا توجد هذه عند الرومانين ، وكذلك الدية والقصاص عند المسلمين ، وكذلك الحدود التى تتعلق بالقتل والسرقة والزنا والقذف وشرب الخمر والارتداد، بينما الزنا والقذف وشرب الخمر ليست محرمة عند الرومانيين ومن ثم فلا عقاب عليها .

وليست هناك مشابهة بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى فى الزواج والطلاق ، فالاسلام لا يعرف لا قسما واحدا من الزواج وهو عقد يجمع الزوجين برضاهما بينما يوجد عند الرومانيين أصناف عديدة للزواج الجائر يعتبر أكثرها عن المسلمين كالزنا . وقانون الوراثة وتقسيم التركة عن المسلمين يغاير ماعند الرومانيين ، وكذلك نظام القضاء وأدوات القصاص ، والقانونان يختلفان حتى فى

المعاملات المالية فمثلا الربا غير محرم عند الرومانيين ، وحتى أساس التجارة يختلف بينهما فالبيع عند الفقهاء المسلمين (عقد برضا المتعاقدين) وهو عند الرومانيين عقد يتعلق بالمال ألخ . . .

وأضافت هذه الابحاث ومنها البحث الذى أعتمدنا عليه(١) أن الفقهاء المسلمين ما كانوا يعرفون اللغة اللاتينية التى كتب بهـا القانون الرومانى ولم تترجم هذه القوانين إلى العربية قبل أوائل القرن القرن العشرين ، ومن المعروف أن المقنن عند الرومانيين هو موظف الدولة ، أما المسلمين فـ لفقيه لم يكن أبدا ألا رجـلا من عامة الناس تعلم وتفقه فافتى ودون كتب الفقه .

---

(١) البحث للدكتور محمد حميد الله

الاجتهـاد

كلمة جامعة تشمل جميع أنواع السعى وبذل المجهود فى استنباط الأحكام من النصوص الشرعية ، واستخلاص الفروع من الأصول

ويمثل الاجتهاد طابع الحركة ومواجهة التغير والتطور فى البيئات والعصور تجاه المسائل والقضايا الاجتماعية والمعاملات المختلفة . ويكشف عن قوة الحيوية والحركة فى الفكر الاسلامى والثقافة العربية فهو عامل حيوى مؤثر يحول بين الفكر وبين الجمود أو التخلف أو التوقف عن مواجهة العصر أو التجاوب معه ؛ وهو علامة على طبيعة الفكر الاسلامى القادرة على التحرر من قيد التقليد ، وينسحب طابع الاجتهاد على الفكر الاسلامى كله فيكون علامة من علاماته البارزة بما يحقق له من القدرة على النماء والقـــدرة على مواجهة كل جديد :
والفكر الاسلامى يقاوم التقليد ويرى فيه آفة الجمود وعلة التخلف . ولذلك فان الاجتهاد قانون أصيل يتمثل فى القدرة على التجدد والحركة فى مواجهة الامم وحضاراتها وثقافاتها والملائمة بين قوة الفكر وحركة المجتمع .

و « الاجتهاد » اصطلاح فقهى يعنى بذل الوسع للحصول على رأى أو حكم فى مسألة من مسائل الشريعة ، وهو أحد طوابع الاصلاح والتقدم والتجديد فى الفكر الاسلامى .

وقاعدته أن يهتدى بالقيم الأساسية والقواعد العامة ويتحرك فى إطارها بما يحقق العصرية والتطور وتحفظ الطريق الطبيعى للمجتمع داخل الشريعة .

وقد حرص الفكر الاسلامى وربيبته الثقافة العربية على سلامة المجرى المتصل خلال التاريخ الطويل باقرار ركيزتين أساسيتين :

أولاهما : حماية القيم الأساسية والمفاهيم الأصيلة لهذه القيم من أن تتوارى أو تذبل أو تنحرف .

ثانيهما : فتح باب الاجتهاد لتطاوله العصور المتوالية والمجتمعات المختلفة مع القدرة

على الاستجابة والمعاصرة وإيجاد حلول وإجابات لكل ما يتصل بها من قضايا ومشاكل وتطورات .

وبذلك يكون الاسلام والفكر الاسلامى متحرراً دوما ومتخلصا دوما من الزيوف الدخيلة والأفكار الغايرة والمذاهب الوافدة ويظل محتفظا بقوته وذاتيته فى نفس الوقت الذى يكون فيه قادراً على الحركة والانفتاح على الفكر البشرى أخذاً وعطاءاً .

ولاشك أن المجتمع الاسلامى فى العصر الحديث فى حاجة إلى أمرين أولهما : اقتباس الحضارة والعلم والتكنولوجيا ومشاركة الامم فى هذا التراث الحضارى .

والأمر الثانى هو أن يتحقق له ذلك دون أن يخرج عن إطار فكره وذاتيته وثقافته ، ومن هنا فان قانون الاجتهاد هو الأداة المشروعة لتحقيق هذا العمل ، برضعه على مستوى الامم الحية ، دون أن يذوب فى ثقافات الامم وبوتقة مذاهبها وأفكارها .

إن حاجة الأمة الى الحياة والتطور تجعل لها من قانون الاجتهاد حافزاً للحركة وضابطاً لحياتها ، بحيث تستطيع أن تتحرك فى حرية داخل نطاق فكرها وقيمها ودون أن تدع الحضارة العالمية لفقدها ذاتيتها وشخصيتها وقيمها الأساسية .

والاجتهاد قادر على أداء هذه المهمة ، من خلال الجوانب المفتوحة والمطالقة للإجتهاد ، دون أن يخل ذلك بالقوانين الأساسية العامة مما رسمت الشريعة الاسلامية من حلال وحرام ، والمعروف أن القوانين الثابتة فى الشريعة لا اجتهاد فيها ولا تحايل على الخروج عنها .

والشريعة الاسلامية هى مناط التنظيم الاجتماعى ترسم اطاراً واسعا له حدود وضوابط ، وتدع المسلمين الحق فى أن يتحركوا فى داخل هذه الحدود والضوابط ويلتمسوا من الانظمة أو الأساليب ما يتفق مع عصورهم وبيئاتهم .

ولقد برز الأشعرى وابن حزم والغزالى وابن تيميه فى أزمات حضارية اجتماعية شبيهة بأزمة عصرنا فاستطاعوا أن يحطموا الزيوف ويدحضوا الشبهات

ويقضوا على الدخائل التى تحـاول أن تفسد الجوهر أو تؤثر فى طوابع الفـكر الاسلامى وملامحه وقيمه الأساسية .

ولقد كان مفهوم الاجتهاد فى الفـكر الاسلامى هو مفهوم التجديد فى مجال تصحيح الفهم الناقص أو الفهم المنحرف بالاضافة إلى الحقيقة الأصلية ، وكان الاجتهاد والتجديد طابع الفـكر الاسلامى والثقافة العربية جميعا وليس طابع الفقه وحده ، إلتماسا للمنابع الأصيلة ، وبناءاً عليها مما يتصل بالحضارة والعصر والتقدم ، وإعطاء إجابات صحيحة لـكل القضايا الجديدة التى يفرضها العصر بحيث يظل الفـكر الاسلامى قادراً على مواجهة تطورات الحضارة .

ومفهوم الاجتهاد لاشك هو مفهوم التجديد وهوفى أعمق صورة ، إيجاد حلول للقضايا الجديدة مع حماية الأصول العامة والحيلولة دون أن يفقد الفـكر الاسلامى طابعه وروحه وذاتيته المتمثلة فى التكامل والشمول والامتزاج بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

وتجمع الآراء الأصيلة أن باب الاجتهاد مفتوح فلا يجوز سـده ، وأن الفترة التى وصفت باغلاق باب الاجتهاد فيها ، إنما هى فترة الغزو التترى الصليبى للمجتمع الاسلامى وقد كان القول بتوقف الاجتهاد فيها إنما يعنى المحافظة على الشريعة من أن يدخلها ماليس منسقا مع أصولها فى ظل نفوذ أجنبى يخشى من حقده وخصومته ولذلك كان ذلك العمل فى حقيقته من أعمال الحفاظ على أصول الشريعة من أن ينالها ضير .

التقليد

«التقليد» هو المتابعة بغير يقين عقلى أو إقتناع برهاني . وهى مرحلة ضعف تمر بها حياة الأفراد والأمم ، والمقلد فى مفهوم الفكر الاسلامى لايعد عالماً ، لأن العلم هو المعرفة الحاصلة عن دليل ، وقد ذم الاسلام أصحاب الرأى الذى لا يستند إلى دليل وقد رفض الاسلام مبدأ التقليد والتبعية ، يقول الامام الغزالى :

« إن التقليد يمنع من الأصالة ، والمعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية »

وعندنا أن التقليد ليس هو تقليد القديم وحده وانما تقليد القديم والوافد جميعا وهما سيان : تقليد القديم بغير برهان ، أو الأجنبى بغير ضرورة واتساق ، وكلاهما تتحرر منه الامم التى بلغت مرحلة الرشد الفكرى وتسقط فيه الأمم الضعيفة . واخطر الأمور أن تدعى الأمم إلى التحرر من تقليد قديمها لتقع فى تقليد الاجنبى دونها ، وكلاهما يفسد الشخصية والذات .

ولكل أمة ثقافتها وقيمها وذاتها ومزاجها ، فلا تحتاج إلى تقليد أمة غيرها فى أسلوب تفكيرها أو تعتنق قيمها ومفاهيمها ، ولكن الفكر الاسلامى والامة العربية كانت متفتحة دوما على ثقافات الامم دون أن تتخلى عن مقوماتها ، والاستعمار يستهدف من دعوته الى ترك تقليد القديم دفع الامم الى تقليد الوافد الاجنبى ، وذلك فى محاولة التغريب الجادة الى اخراج الامم من مثلها وشخصيتها وتمييعها فى الاممية والشعوبية .

ولكل أمة فطرتها وثقافتها الخاصة التى تقوم على أساس تراثها .

يقول احد كبار المؤرخين : « لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ لتطرق الاعداء إليها . وتكون أفئدتهم مهبط الدسائس نتيجة لتعظيم الذين قلدوهم ، ويكون هؤلاء المقلدين طلائع الجيوش الغالبين وأرباب الغارات يمهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ، ويثبتون لهم الاقدام ويمكنون السلطان »

الربـــا

الربا معناه الزيادة وكان العرب يطلقونه على نوع خاص من معاملاتهم وهو أن يؤجل الدين أو ما يتبقى منه إلى تاريخ معين بحلوله يرد المدين ما أخذه مع زيادة معينة ، والربا فى لغة الاقتصاد الحديث الفائدة (Interet) ويرجع إستعمالها إلى القانون الرومانى وكان يعنى بها التعويض الذى يدفعه المدين إلى دائنه عندما يقصر عن الوفاء .

فالربا هو ربح المال المقدم للعرض عن طريق المصارف أو المقروضون بالربا ، وهو قاعدة من قواعد الاقتصاد الغربى العصرى ، وللاسلام منه موقف واضح هو موقف التحريم القطعى ، وقد أقر الاسلام قاعدته الأصيلة فى الأمر « وأحل الله البيع وحرم الربا » .

والتعريف العام للربا يمكن أن يكون بتبادل سلعتين من نوع واحد أو من من نوعين متقاربين كالقمح بالقمح أو القمح بالشعير ، والربا فى القرآن له ثلاث عناصر :

١ — إعارة مال أو أغذية أو بضائع أخرى معينة .

٢ — فائدة باهظة . ٣ — وفاء مؤجل للدين .

فقد أراد الاســلام أن يجعل من التجارة عملا أخلاقيا لا أساسا إقتصادياً للقايضر (تبابـــع السلع) والنهـــى عن أكل الربا فواضح فى قـــوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » وكذلك لا يقر الاسلام أن يدفع المدين مبلغا من المال إذا تأخر فى وفاء دينه ، ذلك لأن الزمن ليس سلعة تجارية تباع وتشترى ، من أجل ذلك لا يرى الاسلام أن يزاد الدين على المدين إذا تأخر عن تسديد ما عليه من المال .

وهكذا يتضح أن الربا متعلق بالدرجة الأولى بالديون المعقودة إلى أجل مسمى

ولما كان الذين يستدينون هم الذين يكونون فى حاجة ماحة إلى ما يستدينونه سواء أكان مالا عينياً أو عرضا من عروض التجارة ، شاء الاسلام أن تكون جميع الديون قروضا حسنة (بلا زيادة على مبلغ الدين الأساسى)

وتقدير الربا فى الاسلام لا يقتصر على الديون المعقودة فقط، ولكن هناك عدداً من أوجه البيع العادى يمكن أن ينقلب ربا فى أحوال معينة .

وقد حرم الربا فى القرآن تحريماً واضحاً صريحاً ولم يعقب تحريمه تفصيل أو تفريق بين الربا الفاحش أو الربا المعتدل ، وليس فى هذا التحريم ما يعوق النهضة أو النمو الاقتصادى فى العالم الاسلامى أو الأمة العربية ، التى تقوم أنظمتها ومشاريعها وحركتها على عوامل مختلفة عن عوامل مدنية الغرب .

فالمعروف أن المدنية الغربية تقوم على الصراع وتوفير اللذات ، ويغلب عليها الترف وحب الذات ، وفى ظل المدنية الغربية ومن منطلقات الربا والصراع ظهرت المزاحمات والمضاربات .

ولكن مفهوم المدنية الاسلامية ومفهوم المجتمع الاسلامى الصحيح لا تقوم على مثل هذه البواعث بل يقوم على إحقاق الحق وازهاق الباطل والسعى لاقرار حكومة عادلة تقوم على الأمر بالمعروف وبذل الصدقات ، والمواخاة والتعاون والتكافل، لترقية النفس الانسانية وإعدادها للكمال . ولذلك فان الاقتصاد الاسلامى لا يقوم على أساس التزاحم والتنافس والمضاربة ، بل على التراحم والتساهل والملاينة .

وبالجملة فان شكل الحضارة الاسلامية لا تقتضى وجود الربا فيه .

وحكمة تحريم الربا فى الاسلام : أن لا يتمانع الناس بالمعروف .

يقول لورد كينس الأستاذ بجامعة كمبردج : من الممكن أن تنسب جميع الإفات الاجتماعية إلى الربا ، وبقدر ما يزداد مجتمع ما تقدما فى المدنية والثقافة فانه ينقص عنه نصاب الربا فى عين المقدار والنسبة بحيث أنه فى مجتمع مثالى سيكون المبلغ « صفراً فى المائه »

الرقيق

أقرت الحضارة الرومانية « الرق » واعتبرته أساسا لبناء المجتمع الرومانى ، ونصت جمهورية أفلاطون على تقسيم الناس إلى قادة وعبيد ودافع أرسطو عن اقامة نظام العبودية والرق

والقانون الرومانى لم يكن يعتبر الرقيق إنسانا له شخصية ذات حقوق على الانسانية بل يعتبره شيئا من الأشياء كسائر السلع التى يباح الاتجار فيها . أما الاسلام فانه وضع قانون تصفية الرق ، بعد أن حصره فى دائرة ضيقة . وأقام بين الانسان ورقيقه علاقات جديدة كريمة لم تكن موجودة من قبل ، وحبب إليه العتق وقرر للأرقاء حقوقا لم تكن لهم من قبل .

كما قيد الاسلام الاسترقاق ، بحرب شرعية على أن يكون المحاربون من غير المسلمين ، ودعا الاسلام المسلمين إلى رعاية أرقائهم ، ونهى النبى عن أن يقول « هذا عبدى » وأمر باحترامهم والانعطاف لهم .

ولم يبطل الاسلام الاسترقاق لأنه كان واقعا من أنظمة المجتمع القائم ، ولم يكن من اليسير إلغائه إلا بالتدرج كما أعطى الاسلام الأرقاء حقوقا لم يحلم بها أحرار الامم السابقة « اخوانكم خولكم »

يقول الدكتور جورج بوست فى كتابة قاموس الكتاب المقدس[1] أن المسيحية لم تعترض على (العبوديه) من وجهها السياسى ولاوجهها الاقتصادى ولم تحرض المؤمنين على منابذة جيلهم ، فى أدابهم من جهة العبودية حتى ولا على المباحثه فيها ولم تقل شيئاً ضد حقوق أصحاب العبيد ، ولا حركت العبيد إلى طلب الاستقلال ولا بحثت عن مضار العبوديه ولا عن فسادها ولم تأمر باطلاق العبيد حالا ، وبالاجمال لم تغير النسبة الشرعيه بين المولى والعبد بشيء ، بل بعكس ذلك قد أثبتت حقوق كل من الفريقين وواجباتهما . وهكذا كانت عبودية

(١) (ص ٦٠ـ٦١ طبعة بيروت ١٩٠١)

الإنسان فى أمم الأرض عندما ظهر الاسلام فهو نظام كان معترفا به من كل الأمم، وأسواقه قائمة فى كل مكان وأثاره موجودة فى بيوت الناس ومجتمعاتهم .

وقد أمر الإسلام :

أولا — بحسن معاملة من تحت ايديهم من الرقيق إلى أقصى ما يمكن أن تسمو إليه الفضائل الانسانية .

ثانياً — الترغيب فى تحرير الرقيق إلى أقصى ما ينتظر من دين عالمى جاء ليعالج عيوب المجتمع ويحسن توجيهه نحو الفضائل

ثالثاً — وضع قاعدة المعاملة بالمثل فى الحروب الدولية فيما يتعلق بالأسرى ومبدأ الاسترقاق .

وقد نص القرآن على إيجاب تحرير الرقيق فى سورتى التوبة والنور ، وجعل من مصارف الزكاة تحرير الرقاب (أى تحرير المملوكين) وجعل من حق الرقيق أن يطلب من مالكه التعاقد معه على مبلغ من المال يدفعه له لسعيه فى سبيل التحرر من الرق « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا » لما جعل الاسلام تحرير الرق فدية عن أمور كثيرة .

والاسترقاق الشرعى فى نظر الاسلام هو الذى يقع فى حرب يراد بها إعلاء كلمة الحق على أن يعامل المسترق بالرفق والاحسان كما يعامل الابن والأخ .

وقد هاجم كثير من الكتاب الغربيين مفاهيم الإسلام فى الرقيق وأثاروا الشبهات حولها على أن ومن هؤلاء الكردينال لافيجرى الذى ألقى محاضرة عام ١٨٨٨ فى باريس هاجم فيها الاسلام ورد عليه أحمد شفيق باشا بكتاب بالفرنسية نشر عام ١٨٩٠ وترجم إلى العربية . ومما قاله شفيق باشا :

« إن الدين الاسلامى لايبيح فى أى حال من الأحوال معاملة أحد من الناس معاملة الرق إذا كان أبواه مسلمين حريين ، ولا يكون الاسترقاق إلا فى الحرب ومع ذلك فهو مقيد بشروط وروابط معلومة . وأن الشريعة الاسلامية تأمر تابعيها بالتزام الرفق والرأفة مع المملوكين »

الباب الرابع

قضايا الفكر والاجتماع

الاحجار والبطولة

يخطىء كثير من باحثينا عندما ينساقون وراء مفهوم غربى للبطولة فى تقدير طابع من طوابع الفن كالتماثيل أو ما يطلق عليه تجسيد البطـولة فى المهرجانات والاحتفالات الاستعراضية .

فنحن فى التماسنا لأى جانب من جوانب الفكر أو قضاياه يجب أن نلتمس جوهر قيمنا وذاتيتنا حتى لا نقع فى خطأ كبير هـو التماسنا لمفهوم دخيل علينـا وهجر لمفهومنا الاصيل أو تجميد له .

« والبطولة » قيمة من القيم التى تتمثل فى مختلف الثقـافات والافكار الإنسانية ، شرقية وغربية ، أوربية أو أسيوية أو أفريقية ، وهو أمر متصل بكل المذاهب والإديان والدعوات ، ولـكن هذه القيمة الإنسانية الـكبرى . تختلف الرأى فيها أو يختلف « مفهومها » فى كل ثقافة عن الآخرى ، وكل أمة عن غيرها ، استمداداً من تراثها وجوهر فـكرها .

وفى فكرنا العربى الإسلامى يبدو الأمر واضحاً وضوحاً لايحتاج إلى خفاء فنحن فى فـكرنا الاسلامى وثقافتنا العربية نكرم البطولة ونضعها موضع التقـدير ولـكننا نختلف عن الفـكر الغربى فى أساليب تقديرها وتـكريمها ، أن هـذه القيمة عندنا لها مفهوم يختلف ، والتماثيل تجسيد مادى للبطولة يتفق مع ثقـافات أمم مختلفة ، ولـكن الفـكر الاسلامى العربى يعق فطرته وجوهره وذاته وطبيعته ومزاجه إذا تقبلها ، وتقدير البطولة فى ثقافتنا يـكون بتـكريم العمل الذى قدمه البطل وبنشر الفـكر وإعزاز الرأى ،وهو تخليد معنوى ، يقوم على تقدير الـكلمة ولاينصب أبدا على تقدير الفرد أو تقديسه أو وضعه فى صورة يبدو منها فى مجال التـأليه أو مايشبهه على النحو الذى عرفه الاغريق قديما حين رفعـوا أبطالهم إلى إلى مصاف الآلهة وأنصاف الآلهة. والأمم الغربية مستمدة من نظرتها ومن تراثها الاغريقى القديم تجسد الابطال فى أشكال مادية ، ويرجع هـذا أصلا إلى الطابع الوثنى المستمدة من فلسفات اليونان والهنود . ولـكن الاسلام والفكر الاسلامى له طابعه ومفهومه لهذه القيمة الانسانية فبطولة الاسلام : بطولة فـكر لا بطـولة

تماثيـــل وأحجار وليس فى الاسلام هيا كل تدمر ولابعلبك ولا الاهرام ، وقد عرض لهذا الرأى كثير من الباحثين،وفى مقدمتهم الدكتور عبدالسلام العجيلى الذى يقول : ربمـا عد البعض هـذا الفهم نقصا ولـكنى أعتبرة من مزايا العبقرية فلم يخلف العرب (والمسلمين) على الحجارة ما خلفتـه الامم الآخرى ، فاوابد الحضارة العربية لم تنحتها من حجارة أو تسجلها الصخور بل سجلتها الاعمال الحية .

ويبدو هذا المعنى واضحا من وراء الوعى فى قول عمر بن عبد العزيز لرجل كتب يستأذنه فى بناء سور للمدينة ، قال عمر (حصن مدينتك بالعـدل) وكم من سور يزوره السائحون وهو مبنى على أساس من الظـلم والجور ، ويمتد أثر هـذا الفهم إلى الفن الاسلامى .

يقول الدكتور العجيلى : إن فن العمارة العربية لم يتميز بالضخامة والوسوخ بينما تميز بالجمال والدقة وخفة الظل فهو لم يقصد به أن يطاول الدهر وإنما أريد به أن يكون متعة للعين والروح ، ومعنى هذا غلبة المعنويات على الماديات فى طابع الفن والبطولة ، ويصل هـذا المعنى إلى غايتـة بالقول بان الذوق الاسلامى العربى لم يتعلق بالتصوير كفن من الفنون الجميلة ، ليس لان الدين نهى عنـــه بل لان الروح العربية الاسلامية لاتميل إليـــه ولانه لايتفق مع فطرتها التى تجد مجالها الفنى فى « الـكلمه » وليس هـذا مفهوم الذوق العربى وحده ولـكنه فى الحق إنمـا يمثل مفهوم الفكر الاسلامى الأصيل المستمد من جوهر الاسلام والقرآن أصلا وربما أخذ به العرب وعمقوه ، وأن تخلف فى أجزاء أخرى لغلبة الفلسفات الوثنية السابقة للاسلام .

والفن الذى تعلق به العرب واخلصوا له قبـل نزول القرآن هو الشعر ، لانه أرضى رغبتهم فى الحيوية والاستثارة وجاءت الموسيقى امتـداداً للشعر واتصال به والفارق بينهما ، وهو الفارق بين السذاجة والترف ، جملة الرأى أن الطابع العربى الاسلامى فى الفن والحضارة هو طابع الحيوية والروح العلمية ، ملخصا فى كلمات قليلة « أعمال خالدة لا آثار خالدة » .

الأساطير

كلمة (Historia) كلمة يونانية معناها « خرافة » وهى التى دخلت إلى العربية فى عصورها الأولى فاصبحت أسطورة ، ويطلق على الاسطورة أيضا كلمة (Mythology) الميثولوجيا ، وقد كان لدى الأغريق القدماء قصص كثيرة عن ماضيهم تدور حول أبطال عظماء،هذه الأساطير كانوا يفسرون بها الحياة والطبيعية والخير والشر ، وكانوا يؤمنون بان هذه الأمور بايدى الهة وآلهات ، وقد آمن الرومان بالهة الأغريق وأطلقوا عليها اسماء رومانية كما أضافوا إلى الاساطير الأغريقية كثيرا من أساطيرهم، وتستعمل كلمه (أسطورة) فى التعبير عن الأعمال الخارقة وتدور حول الآلهة وتختلف عن الملاحم التى تسجل أفعالا إنسانية ويرى الغربيون أن بين الاسطورة والدين علاقة ، وكثيرا ما تحكى الشعائر أحداث أسطورة والاسطورة فى الاغلب تحكى بمنطق العقل البدائى ظواهر الكون والطبيعة والعادات الاجتماعية وثمة تفسير يرى أن الاسطورة ابتكرت للابانة عن الحقيقة فى لغة مجازية ، ثم نسى المجاز المقصود وجرى تفسيرها حرفيا .

ولايسلم العلماء الآن بنظرية واحدة تطبق على الأساطير ، والأصح عندهم التفسير الخاص بأساطير كل أمة ، ومن حق أن يقال أننا حين نتحدث عن الاساطير إنما نتحدث عن عالم مختلف عنا وربما لايتطابق تطابقا كاملا معنا ، فاختلاف الثقافات والأمزجة بين الشرق والغرب يؤكد وجود خلافات عميقة فى مختلف مفاهيم الفنون والآداب والقيم الإجتماعية والنفسية ، وعلينا حين نتحدث عن الأساطير أن ننظر أمها لعالمها وتحدياتها ، وكذلك الأمر فى القصة والفن والدين ، والأغريق واليونان لهم فى هذا طوابع وقيم تخالف جو الشرق الذى عرف بأنه مبعث الإنبياء ومتنزل الديانات والذى طبع منذ القديم بطابع الإيمان بالله .

والخرافة لم تكن واضحة تماما عند العرب ومن هنا فان الأساطير التى عرفت عنهم قليلة ، أما الفراعنة والفرس والهنود فكانت لهم أساطيرهم المشتركة الأصل الوثنية الطابع ويجمع العلماء أن هذه المجموعة من الخرافات إنما كانت تهدف إلى

تعليل خلق الكون والله والإبطال ويمكن أن يطلق على الميثولوجيا : « علم الإنسان القديم » ، وقد أعترف الأغريق بأن اسماء الإلهة رموز لقضايا طبيعة وفلسفية (ابلوا) يرمز إلى النار و (هيرا) ترمز للهواء و (بوسيدون) للماء و (أرتمس) للقمر ، وما حروبها ومغامراتها سوى إشارات إلى حرب العناصر الطبيعية .

وترى بعض النظريات أن هذه الالهة ليست إلا أسماء أفراد من البشر قاموا بأعمال باهرة ألبستهم التخليد الذى رقى بهم فى نظر الاغريق إلى مقام الالهة وأنصاف الالهة وهو نوع من عبادة الاموات أو عبادة الابطال .

وهذا المعنى غريب على الفكر الاسلامى كله،هذا الفكر الذى عرف بوضوحه وصراحته وبساطته منذ جاء الاسلام ، حيث يقوم الفكر كله على قاعدة التوحيد الخالص لاله واحد ، لامتعدد ، ولايموت ، ولايحارب البشر ، ولا يصارعهم، ومن هنا تختلف مفاهيم عديدة من القضايا الخاصة بالطبيعة والخلق والتاريخ بين مفهوم الاسلام ومفهوم الهلينية .

فالبطولة فى الاسلام هى بطولة العمل والكلمة ، وليست بطولة الفرد نفسه، ولذلك فان الابطال فى الاسلام ظلوا فى درجة الإنسان ومكانه حتى بالنسبة لأعظم شخصية فى التاريخ الاسلامى كله وهو النبى محمد صلى الله عليه وسلم (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) ، (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى).

وهكذا يقطع الفكر الاسلامى قطعاً ببشرية الرسول ، وبانعدام عبادة الإبطال أو ترقيتهم إلى الهه وأنصاف الهة . وتبدو هذه التفرقة بين الفكر الهلينى والفكر الاسلامى فى تصوير الاله ، فضلا عن تعدد الالهة .

فالهلينيون يصفون الالهة « بالمغامرة والضراوة وبالشراسة والجنون ، فهم يتزوجون أمهاتهم واخواتهم ثم يقطعون أجسادهم ويزنون ويأكلون لحوم البشر (١)

(١) الويس فريحة . مجلة الإبحاث . م/٤

وهناك آراء تقرر أن وضع الاساطير عند الهلينين وغيرهم انما كانت للذة والامتاع والايناس ، وليس للاخبار أو لاعطاء المعلومات ، ويقول الباحثون المتخصصون أن الميثالوجيا تصور خلق الانسان والكون وخلق النجوم والشمس والقمر ، وأصل الموت وتغنى بسير الابطال (واكثرها يدور حول قصة واحدة فى روحها ومبدأها عاشق ومعشوق يقترف أحدهما خطيئة فيتوارى عن الانظار أو قد يكون سبب الافتراق خيانه أو فعلا مسببا عن غيره (١)

وقد قذف الغربيون : الفكر الاسلامى والادب والثقافة العربية بقدر ضخم من هذه الاساطير وعنى كثير من الكتاب والأدباء بترجمتها ومحاولة اغراق الادب العربى فيها ، وجرى البحث حول الاساطير فى الادب العربى نفسه وكان من أهم هموم المستشرقين والمبشرين البحث عن الاساطير ، وقال رينان أن العرب ككل الامم السامية ليس لها أساطير فى شعرها ولا فى عقائدها ، وان هذا يدل على ضيق الخيال لديهم ، وقد عمد البعض الى بعث الاساطير العربية فى عصر ماقبل الاسلام ، وفيها وصف العرب لآلهتهم وقد وجدوا من ذلك شيئا ليس بالكثير ولا بهذه الصورة الهلينية ، ومرجع هذا فى الاغلب الى أن الوثنية العربية كانت وثنية تقليدية ، وليست فلسفية وانها لم تتعمق هذه الالوان ، فقد كانت العرب على دين ابراهيم وهو دين التوحيد ثم انحرفت الى وثنية طارئة ، فلما جاء الاسلام قضى على هذه الآثار ، وقد حاول طه حسين وغيره انتحال أساطير حول سيرة الرسول وألف عنها كتابا هو على (هامش السيرة) وقد عارض الدكتور هيكل هذا الإتجاه ووصفه بأنه اتجاه خطير من حيث حرص المسلمون طوال العصور على تنقية سيرة الرسول من الاساطير وأبعادها عن الرويات الخيالية والوهمية التى حاولت الاسرائيليات الصاقها بها (٢)

واذا جرت المحاولة للربط بين الاسطورة عند العرب قبل الاسلام وعند الاغريق فقد ثبت أن هناك فارقا بعيدا بينهما يستمد أصوله من مزاج الشعبين

---

(٢) راجع المعارك الادبية لانور الجندى .

وطبيعتها المتباينة فضلا عن أختلاف الجغرافيا والتاريخ فضـــلا عن الوضوح الموجود فى البيئة العربية وفى هذا يقول الشوباشى : بينما الشعر الاغريقى الملحمى يصور عالما وهميا لاتكاد يقوم صلة بينه وبين الحياة الحقيقية للمجتمع الاغريقى وتصف الهته وعمالقته وفرسانه بأنهم يتميزون بقدرات غير آدميه ويحققون الخوارق ويتسامون وراء شهوات وأطماع واحقاد ويأنفون أن تغلب عليهم الرحمـــة أو تمس قلوبهم حب أو حنان ويرتكبون فى سبيل تحقيق غايتهم آثاما تقزز منها النفوس ولا يعتمدون على الاجساد فحسب ولكنهم يمثلون بالجثث ، والمراة قاسية كالرجل، فهناك أمراة تشترك مع عشيقها فى قتل زوجها والتنكيل بأبنائها واخرى تتزوج بابنائها .

وبينما كان ذلك الشعر يرسم تلك الصور المشوهة المخيفة ، حرص الشعراء العرب القدامى على تصوير عالمهم الحقيقى بما فيه من خير وشر وتحليل عواطفهم كما أحسوها ، ووصف الاحداث على نحو ما وقعت لهم ، وهناك فارق آخر أشار إليه الشوباشى وهو أنه بينما كان الشعر العربى ديوان علوم العرب وأخلاقهم واخبارهم ، كانت حكمة الشعر الاغريقى أقرب إلى أن تكون مواعظ تربوية ،

وبينما كانت الملاحم الاسطورية اليونانية تقوم على شطحات الخيال والتهويل والاغراب، كان رواه الشعر العربى يحرصون على صيانته من كل تغيير أو تحريف .

ويتصل بالفوارق البعيدة بين مفهوم الغرب للاساطير، فارق الطبيعة النفسية الواضحة الصريحة فى العربى والجو المكشوف فى الصحراء ، بينما هناك وحشة الجبال وقسوة الطبيعة ولهذا الخـــلاف الجذرى لم يترجم العرب والمسلمون الميثولوجيا والاساطير والالياذة اليونانية وقالو : أنها تعبير عن النفس الانسانية الهلينية ، والهم تعبيرهم الاصيل عن النفس العربية .

---

(١) ص ١٣٨ رحلة الادب العربى الى اوربا للشوباشى
(٢) الرسالة م ١٩٤٩ ص ٨٢٤
(٣) نفس المصدر

وتختلف الميثولوجيا اليونانية عن الميثولوجيا المصرية القديمة أيضا كما تختلف عن العقيدة الاسلامية « فالالهة فى الميثولوجيا اليونانيه عن الميثولوجيا الاغريقية تدفعها حيوية عارمة إلى كل تصرفاتها ، حيوية لاتفرض العدل والحق والخلق والضمير لانها حيوانية عاتية شهوانية باطشة، والالهة فى الميثولوجيا المصرية القديمة تسيطر عليها فكرة العدل والخلق والحق فى الغالب »

أما الاسلام فينبذ نهائيا فكرة الشهوة والظلم عن ذات الله ، وفكرة القدر فى الاسلام لاتتفق مع الفكرة الاغريقية(١) ولقد حاول كثير من الكتاب ترجمة الميثولوجيا الاغريقية ولكنهم كانوا يحسون انهم ينحتون الصخر وذلك للفوارق الواضحة بين النفس العربية والنفس الاغريقية وقد أشار إلى ذلك كاتب الرسالة حين قال أن الصعوبة الاساسية فى الاساطير واستلهامها ليست فى الحاجة إلى الفهم فالفهم قد يكون ممكنا بالشرح ولكن الصعوبة الحقيقية كامنة فى الشعور بها فى أعماق الضمير . أن الاسطورة تنبع من ضمير الشعب لامن رأسه وتعيش كامنة فى دمه وأحساسه وهى تراث شخصى لكل شعب لايمكن نقله إلى ضمائر الشعوب الأخرى ، كما لايمكن نقل الثقافات إلى الرؤس بل كما يمكن نقل الأعمال الادبية التى لاتقوم على أسس وراثية كالاساطير ، ولابد أن تعيش الاسطورة حياتها فى تاريخ الامة وضميرها حتى يستسيغها ذوقها وتنبض لها قلوبها لهذا لم يكن ممكنا أن يشعر العرب بجمال التراجيديا الاغريقية والمستندة فى صميمها إلى الاساطير لان تنقل إلى تراثهم كما نقلت الفلسفة لان الفلسفة تراث ذهنى فى الاغلب والاسطورة تراث شعورى فى الصميم .

---

(١) الرسالة م ١٩٤٩ ص ٨٢٤

الاستشراق

إن أبسط تصوير للاستشراق وأعمقه هو إنه « استخـــدام العلم فى خدمة السياسة » والاستشراق بعضه متصل بالنفوذ الاستعمارى وبعضه متصل بالثقافات الغربية والمسيحية ، وبعضه نزيه وبعضه متعصب .

ومن هنا فقد كانت مادته فى الأغلب نافعة لتغذية حركة التبشير وكانت أرائه وملتقطاته إنما تمثل « مادة » خاما يستطيع التبشير إستعمالها فى دعم خططه ، وفى إثارة عوامل الخلاف وتأريث الشبهات بما يحقق مخططه ، والاستشراق إذا كان خاضعا لنفوذ دينى أو سياسى فانما يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة وبأحكام مقررة وبأهداف واضحه : أساسها خدمة النفوذ الاستعمارى ، وقوامها التعصب والاتهام للشرق والاسلام والعربية ، ومهما صيغت كلماته فى أسلوب له طابع علمى فانها تنطوى على عدم الحيدة وعلى الانحياز . وقد عمل عـــدد كبير من رجال الاستشراق فى مجال التبشير ، وكانت كتاباتهم وقوداً خصباً فى أيدى المبشرين ومن هؤلاء مرجليوت وماسنيون وهنرى لامنس ولويس شيخو وفنسنك وجولدزيهر وهم من أشد المستشرقين تعصبا على الاسلام واللغة العربية .

وقد كانت كلمة (الاستشراق) فى نظر الكثيرين وماتزال تحمل طابع البحث المجرد من الهوى . غير أن النصوص التى يقدمها علماء الاستشراق فى مختلف البحوث تكشف عن غير قليل من القصور فى الفهم أو الهوى فى القصد ، وأخطر ما يتصل بتاريخ الاستشراق أن رجال الارساليات التبشيرية قد خلعوا أثوابهم فى السنوات الأخيرة بعد أن انكشف أمرهم وتخفوا وراء أستاره كما أن هناك كثيرون تحولوا من الاستشراق إلى التبشير وفى مقدمة هؤلاء : لويس ماسنيون الذى كان تابعا فى عمله لوزارات الاستعمار وقد عاد فى سنواته الأخيرة فعمل فى معسكر المبشرين جهرة إعتماداً على اسمه اللامع المحيط بقـــدر كثير من سمت العلماء .

وقد يتحدث الكتاب ببساطة وحسن نية عن الدور الذى حققه الاستشراق

فى بعث التراث الغربى الاسلامى . ونحن نعرف أن مصدر اهتمام المستشرقين بالشرق والاسلام ليس مجرداً ولا خالصا لوجه العلم والحق إنما يرجع الى أن العالم الاسلامى واقع فى قبضة استعمارهم فهم يدرسون تاريخه وأدبه بهدف محدد ، وهو التعرف إلى نفسية هذه الأمم وذلك ليكيفوا مواقفهم ومعاملاتهم ويعرفوا من أى جهة يستطيعون إخضاعه وماهى جوانب الضعف فيه للتركيز عليها وما هى جوانب القوة فيه للقضاء عليها ، وذلك بهدف أن يبقى نفوذهم ويستمر وهم فى كل ما كتبوه قد عمدوا إلى وضع : (الاسلام واللغة العربية والثقافة والتاريخ) فى قفص الاتهام وحملوا كتاب العرب والمسلمين على الوقوف موقف الدفاع ورد السهام .

وإذا كان الاستشراق خالصا لوجه العلم فلمـــاذا يركز على الجوانب الضعيفة والروايات المدخولة والشبهات ، ولماذا يركز على النصوص الفلسفية حين يدرس التصوف وعلى الباطنية حين يدرس التاريخ ولماذا يولى اهتمامه للحلاج والسهروردى فى الدراسات الصوفية وأبونواس وبشار فى الدراسات الأدبية وأبو بكر الرازى وابن الراوندى فى الدراسات الفلسفية ، ولماذا يهاجم بعنف المتنبى وابن خلدون والغزالى ولماذا لايعنى بالاصالة فى الفكر الاسلامى ويهملها ثم يركز على الاثار الفارسية والهندية واليونانية ولماذا يبعث من جديد تلك الشبهات التى أثارتها الشعوبية قديمـا ويعيد النظر فيها ولماذا يركز على الخلافات بين السنة والشيعة وبين المسلمين والنصارى وذلك كله فى محاولة تأريث الخلافات بين المسلمين والعرب حتى لا تتم لهم وحدة فكر ولا نداء إلى تجمع؟ ولماذا القول بأن هناك اضطهاد للمفكرين ومحاولة لمنع حرية الفكر ، ولماذا الاهتمام بأخبار الزنج والقرامطة والمجوسية ولماذا تكتب الأبحاث المطولة عن أبو مسيلمة الكذاب ولماذا ينكر وجود عبدالله بن سبأ

ولقد ركز الاستشراق على الأفكار الدخيله فى الاسلام والفلسفات الوافدة فى محاولة لتصويرها بأنها جوهر الفكر الاسلامى مع الاغضاء المتعمد عن القيم الاساسية والدور الذى قام به أمثال ابن حزم والغزالى وابن تمية والقاضى ابن العربى وابن الجوزى وغيرهم فى تحرير الفكر الاسلامى من هذه الدخائل :

ويولى المستشرقون عناية كبرى بفكرتى وحدة الوجود والحلول . وهناك

ذلك الاهتمام الدائب بالعاميات والفلكلور وامثال الشعبية والأغانى والمواويل وكلها محاولات لخلق تصور وجود لغة عامية قائمة بذاتها .

وقد جاهد المفكرون المسلمون هذه الاتجاهات وكشفوا عنها وحالوا بين هؤلاء المستشرقين وبين تحقيق أهدافهم وكان عبد العزيز جاويش وأحمد زكى باشا وأحمد تيمور وغيرهم فى مقدمة هذا الرعيل ، وكانت فى مصر عند إنشاء المجمع اللغوى محـــاولة أخرى لرد المستشرق فنسنك عن عضوية المجمع ، وقد ماجه الدكتور حسين الهراوى وقدم صورة لآرائه فى الاسلام والنبى والقرآن وكشف عن اتجاهه واتجاه المستشرقين عامة ومن بين ما قاله « أنه إذا أرد أحـد منهم أن ينال من الاسلام أمراً فانه يفرض فرضا ثم يبحث عن الايات القرآنية التى تتناسب مع هذا الرأى الذى فرضه ، فأذا وجد أية تدحض رأيه حذفها وانكرها أنـكاراً حتى يخرج بالنتيجة التى تزرع الشك فى فؤاد من يطلع على أقواله من غير تمحيص بحجج شبه منطقية يزعزعون بها عقائد المسلمين وهى أحدى الطرق التى وضعها الاستعمار من زمن قديم وكانت أحدى وسائلهم مع تقوية اللغات العامية حتى لايتفاهم بها المسلمون ولايفهمون لغة قرآنهم » .

ولا شك أن من أخطر اعمال الاستشراق هو وضع موسوعات كاملة أمام الباحثين العرب والمسلمين تمكنهم من أن يجدوا مايريدون البحث عنه فى سرعة وسعة فيلجأون إليها دون أن يكلفوا أنفسهم مؤونة البحث عما تضمه من حقائق أو أباطيل وذلك أعتمادا على طبيعة بعض المؤلفين والباحثين والعلماء من الثقة بالكلمة المطبوعة ومن الاعتماد على شهرة الاسماء التى وضعت على صدر هذه الابحاث .

ومن هذه المراجع التى يجب مراجعتها فى حيطة وحذر لاحتوائها على كثير من الشبهات « دائرة المعارف الاسلامية والمنجد والموسوعة العربية وبروكلمان فى الادب العربى والهدف الاكبر من مثل هذه الاعمال الهادفة إلى تشويه الحقائق هو خلق شعور بالنقص وأحساس بالازدراء من شأنه أن يسيطر على نفوس المسلمين والعرب ويصدق فى هذا قول الدكتور عرفان عبد الحميد من أن هدف

الاستشراق هو خلق جيل يتنكر لتراث هذه الأمة ليصير إلى حيرة واضطراب فكرى فيسهل عنده غزو المجتمع الاسلامى بالفكر والمبادىء والمفاهيم والتصورات الغربية .

وقد أشار العلامة مالك بن نبى إلى أنه فى أى قضية أو مسألة أو معضلة تواجه المسلمين فان الاستعمار والتبشير والاستشراق والتغريب قادر على طرح أجابات مستمدة من محاولته المستمرة لتغيير مجرى التفكير الاسلامى .

وقد أجمعت كتابات المنصفين على أن المستشرقين لم يتخلصوا بعد من تعصبهم وأن علمهم لم يتحرر من الهوى وقد سجل لويس برنارد وهاملتون جب مثل هذا المعنى حيث أشار برنارد إلى أن ظاهرة التعصب الدينى واضحة فى مؤلفاتهم ، وقال جب أن ظاهرة الإحكام المسبقة على الاسلام لاتزل تحكم أعمالهم بالرغم من محاولة التحرر منها ولاشك أن الزعم الجديد الذى يروج له المستشرقون فى السنوات الأخيرة من أن أبحاثهم قد أخذت شكل الموضوعية والتجرد من الاهواء والاخذ باسباب البحث العلمى ، هذا الزعم لايثبت أمام الصورة المشوهة والعبارات الحاقدة والأهواء الدفينة التى تظهر هنا وهناك من وراء السطور وبالرغم من محاولة أخفائها ؛ هذا الاخفاء الذى هو الذى جد على هذه الأبحاث .

ويحمل أراء المستشرقين منحرفة ، وهى منصبة على القرآن والرسول والاسلام وعندهم أن القرآن صورة من الكتب السابقة عليه وأنه منقول منها ، وأن له لغة فى مكة تختلف عن لغة المدينة، وأنه الاسلام جملة مستق من الديانتين اليهودية والمسيحية وأن الرسول كان راهبا رومانيا غضبت عليه البابوية فخرج عليها ودعا إلى دين أخر ، وما تزال كتابات ورسوم دانتى وفرجبل وفولتير وديدرو وهم من أقدر كتاب الغرب وفنانيه تحمل صورة التعصب وماتزال تؤثر فيمن تبعهم من أمثال لامنس ومرجليوث ولويس شيخو وسنوك وفنسنك وقد أنتقلت إلى طه حسين وعلى عبد الرازق ومحمود عزمى وسلامه موسى وما تزال تنتقل إلى طبقة جديدة من إتباع المبشرين والمستشرقين .

راجع (١) مخططات التبشير فى غزو الفكر الاسلامى . (٢) الإسلام والثقافة العربية للمؤلف .

الاقتبـــاس

« الاقتباس » ضرورة لامحيد عنها بين الامم فى محيط الثقافات والحضارة والنظم ويجب أن تتم فى حرية كاملة وفى حالة من حالات الرشد الكامل والايمان العميق بالجذور والمقدرات الاساسية ، ودون أن تفرض أو يلتزم بها المقتبس تحت ضغط نفوذ سياسى أو استعمارى أو سيطرة من نوع ما ، وقوام الاقتباس المعرفة الكاملة بالفروق الواضحة بين المعرفة والثقافة وبين العلم والفلسفة ، وبين الجوانب العقلية والروحية ، وبين الحضارة والثقافة ، وأن تجرى فى أطار كيان الأمة وشخصيتها ومزاجها وطوابعها الاساسية ودون أن يتعرض للخطر أى مقوم من مقوماتها للخطر أو الاضطراب.

ومن المعروف أن العالم الاسلامى يتعرض للاقتباس وهو تحت ضغط نفوذ استعمارى عات جبار يستهدف تحويل الامم عن قيمها وإخراجها من مقوماتها وصهرها فى بوتقة العالمية والاممية التى تستهدف إفقاد هذه الأمم قدراتها وكيانها الخاص حتى تستسلم عن طريق الفكر للغزو الثقافى والنفوذ الأجنبى .

وأهم شروط الاقتباس (١) نقل الايجابى الصالح النافع (٢) الجرأة فى نقل العلم (٣) التحفظ فى نقل الثقافة والادب مع الايمان الكامل بان العلم ليس ملكا للغرب ولا للشرق، أما الثقافة (والادب جزء منها) فهو ملك خالص لكل أمة ولكل أمة قيمها الإجتماعية والاخلاقية والمدنية وهى من أهم المجالات التى تبرز فيها طبائع الامم ، والمعروف أن القيم الأساسية بالنسبة لاى أمة أو ثقافة كالتربة بالنسبة للنبات والبذور فكل تربة لها مقوماتها التى تستطيع أن تنقل حضانة نبات بعينه أو بذره بعينها ، بينما لاتتقبل عشرات من البذور التى لا تستطيع أن تنمو فى غير تربتها ولابد أن تموت إذا أنتقلت إلى تربة أخرى، إذا أن لكل تربة عوامل خاصه تحوطها تختلف عن غيرها ، من جو وماء ومكونات جيولوجيه كذلك لكل أمة تربة فكرية لها مقوماتها التى تصلح لبذر دون بذر .

يقول وليم مرسيه : أن الامم والشعوب لايقبلون من التأثيرات والعوامل

إلا ما كان ملائما للخلاصة الخالصة من عقليتهم، مسايرا لما فيها من حركة وتوثب وفى إيجاز فانه لا يجوز أن يقتبس الناس من غيرهم ولا الشعوب من بعضها إلا ماكان حيا فى قرارة أنفسهم متوثبا للوجود .

وإذا كان هناك هو مفهـــوم باحث غربى بالنسبة لموقف الفكر الغربى من الاقتباس ، فلماذا يكون مفهوم الاقتباس عندنا عاقا للفطره ، خارجا عن القوانين الطبيعية والاجتماعية التى تسلكها الامم ، وما تزال الاصالة التى عرفهـــا الفكر العربى الاسلامى طوال تاريخه تفرض عليه أن يرفض تلك النظرية الفجة التى ينادى بها دعاة التغريب والتى تقول تتقبل الحضارة الأوربية بفكرها : وخيرها وشرها ، ما يحمد منها وما يعاب .

أن أمامنا تجربة أصيلة هى تجربة المسلمين فى القرن الرابع عشر من الترجمة والاقتباس، فقد أخذوا مايتفق مع مقوماتهم وقيمهم الاساسية وردوا مايختلف معها وعندما أخذوه صهروه فى بوتقتهم واساغوه وحولوه إلى كيانهم فلم يغير من معـــالم شخصياتهم وإنما أضاف قوة إلى حيويتهم وكذلك فعل توماس لاكوينى حينما ترجمت أثار الفكر الاسلامى إلى اللغات الغربية إبان حركة النهضة فانه عمد إلى غربلة طوابع الفكر الاسلامى وحرر منها الفكر الغربى المتجدد .

وعندما نظر نظرة موضوعية منصفة لاولئك الذين يفرضون علينا الاقتباس غير المشروط نجد علامة كبير مثل الاستاذ هنرى بوردو يقول لهم : لاشىء أقتل من تماطى الأفكار الاجنبية لان الغاية التى تصل إليها هذه الافكار إنما جرح مواطن حسنا وشعورنا فاذ أردنا أن تكون ثقافتنا ضربا من النمو لامن التشويه لزمنا أن نجعل هذه الثقافة عاجزة عن تغيير طبيعتنا وروح عنصرنا ، يجب علينا قبل كل شىء أن ندرس أنفسنا فاذا وثقنا بانفسنا بعد هذه الدراسة وتمكنا من استخدام قلوبنا وأفكارنا كما يستخدم القائد جيشه الأمين الذى يترفع عن الانضمام إلى العدو ، فحينئذ نحاول فتح العـــالم أى الاتصال باداب الأمم . فالوطن كما عرفه احد كتابنا : إنما هو إجماع الموتى والاحياء فى بقعة واحده ،

ويبدو خطر الاقتباس والاستعارة واضحا حين نرى أمما كبرى تخشى خطره علينا نحن ، ونحن بين شقى الرحى وفى قلب خطر صراع الثقافات نستهين بالأمر وننظر إليه فى بساطة بل ربما عددنا ذلك أمراً لا أهمية للاحتياط له . يقول جون بول سارتر « لوافترضنا أن شعبا أوربيا صغيرا أضطر بحكم الظروف السياسية والاقتصادية أن يستعير من الأيدلوجية الأمريكية أو السوفيتية شيئا فهذا الشىء المستعار لن يبدل جوهرة بعد الاستعارة إلا بعملية هضم صحيحة سليمة ، وذلك لأن أصوله مستمدة من طبيعة الاقتصاد والوضع الإجتماعى والسياسى فى امريكا أو روسيا والمستعير حين يكون سطحى الثقافة لن يستطيع أن يبدل طبيعة هذا الوضع فيبقى الشىء المستعار فى جوهره أمريكا أو روسيا يفرض على ثقافة صغيرة لاقبل لها بتحويلة أو طبخه من جديد وذلك لاسباب تتعلق بطبيعة ضعفه السياسى والحاجة والحاجة الاقتصادية و"الفقر الثقافى »

وهكذا تبدو مسالة الاقتباس فى ضوء الواقع وينكشف مدى الخطر الكامن ورائها ، أن النتيجة الطبيعية هى ضياع مزاج الأمة وكيانها وطابعها وشخصيتها فعلى الامم أن تحتفظ بخصائصها ، التى تتميز بها والتى تستمدها من جذورها وتراثها ودينها وعليها أن تستوحى تاريخها وتستلهم أجوائها ، والتقليد أقل باعا من الاصالة وأضعف شخصية ، وهو لن يستطيع أن يكون ذلك الاجنبى ولا أن يعود ذلك الاول . ومن هنا فان ذاته سوف تمسخ مسخا وتضيع فى بوتقه العالمية والاممية التى تنصهر فيها الامم الضعيفة التى فقدت مقوماتها .

الألحـــاد

الالحاد فى التعبير الغربى (Atheisme) هو نفى وجود الخالق المبدع للكائنات ، وهو تعبير عن نفى وجود الله . والالحاد ضد الايمان . وقد بدأ الالحاد فى القرن السابع قبل الميلاد على يد الفليسوف طاليس وتتلمذ له كثيرون وكان مرماهم جميعاً التدليل على قيام الوجود بنفسه مستعينا بقواه الذاتية عن مدبر حكيم فوق عالم المادة وقد دارت بين الالحاد والايمان منذ ذلك الوقت وإلى اليوم معارك متعددة :

ولا شك أن الإيمان من طبائع الفطرة الإنسانية التى لامفر منها ولا مرد عنها والالحاد عارض وهى ظاهرة طبيعية فى البشرية لا تتوقف ولا تنتهى وقد جاء العلم الحديث فاعطى ظاهرة الالحاد مفاهيم جديدة نتجت عن قدرة الانسان على استكشاف المجهول والسيطرة على الطبيعة مما دفعه إلى الامعان فى إنكار وجود الله .

وهناك عوامل أخرى دافعة إلى إذاعة مفاهيم الالحـــاد والتأكيد عليها وترديدها تتصل باصحاب الحركات الهدامة الرامية إلى القضاء على التوحيد أو سيطرة نفوذ معين على العالم .

وتكاد تجمع الادلة على أن تفشى ظاهرة الالحاد فى الفكر الغربى إنما أرتبطت إلى حد كبير بعوامل تتصل بالدعوة إلى القضاء على الاديان ، أو على نفوذ الكنيسة والمسيحية فى أوربا ، وقد اصطنع الاستعمار ومؤسساته من تبشير وتغريب وشعوبية اساليب الالحاد وأمعنوا فى اذاعتها وتوسيع نطاقها كجزء من الهدف المرسوم للقضاء على الاسلام فى نفوس معتنقية وأثارة جو من الريب والشبهات وخلق أجيال ضاله بعيده عن مفهوم الايمان والدين والتوحيد ، لتكون الامم بهم فريسة سهلة تمهد إلى إلتهام النفوذ الأجنبى لهـا .

وقد قامت فى أوربا خصومة ضخمه بين العلم والدين . وغلبت نزعة العلم

وسيطرت وحملت لواء الهدم العنيف للدين ومفاهيمه وقيمه ومن بينها القيمة العليا وهى وجود الاله الخالق الاكبر .

ولكن هذه الحملة تركزت على الكنيسة وعلى مفهوم معين للدين أساسه المسيحية الغربية وطقوسها ومفاهيمها التى تختلف كثيراً عن مفهوم المسيحية المنزلة من السماء أو المسيحية الشرقية الأصيلة،فالاوربيون لم ياخذوا المسيحية كاملة وإنما أخذوها إطارا للفلسفة اليونانية الوثنية وللقانون الرومانى ومن هنا فقد كانت الحملة على الدين فى أوربا مسالة مستقلة تدور فى دائرتها ولا تتصل باى دين آخر وخاصة الاسلام الذى ليس هو دينا فقط ولكنه دين ومنهج حياة . وقد نقلت هذه المعركة إلى العالم الاسلامى كاسلوب من أساليب الاستعمار فى آثاره الشبهات وتحريف المفاهيم ولكن الواقع يثبت أن الاسلام يختلف للعلم وللحضارة عن غيره من الاديان وأنه يقوم أساساً على مفهوم الانفتاح فى مواجهته على العلم وفى ظل دعوته نشأ المنهج العلمى التجريبى .

ومن هنا فان الحملة على الدين أستتبعت فى أوربا ظهور ظاهرة الالحـــاد والحملة على الله بمفهوم الغرب .

والمعروف أن أول من اجترأ فى هـذا السبيل هو نيتشه حين قال « لقـد مات الله » وقد أرتبط هذا الاتجاه فى الفكر الغربى بخيطه الأول والقديم فى الفكر اليونانى حين قال الفلاسفة « أن الالهة المقيمة فى المكان المقدس قد ماتت »

وقد تنوعت فلسفات الالحاد فى العصر الحديث وتطورت ومنها مايدعو إلى الوهية المادة أو الوهية الإنسان ، ومنها ما يجعل الغريزة محـور تفسير الوجود ، وقد اختلف مفهوم الاله نفسه فى الاديان التوحيدية ، فالاله فى عرف اليهود إله قومى لهم وحدهم دون غيرهم من الاميين وهو إله شرير، وعند النصارى واحد من ثلاثة والتفسير المادى للتاريخ ينكر فكرة الالوهية وربط الانسان ومصيره بالمادة ويفسر حركة التاريخ بعوامل ليس فيها ارادة الله . والملحد يرى أن الكون مادى يدار من داخل نفسه .

اما المؤمن فيرى أن وراء هـذا النظام الدقيق وهذه القوانين الثـابتة والنواميس الدقيقة خالق مدبر موجه « وأن[1] هذه النواميس التى اكتشفها العالم ليست مستقلة فى ذاتها ولكنها مظاهر مختلفة لقوة واحدة هى المهيمنة على الوجود كله ، وإنها لولم تكن كذلك لما كان هذا الترتيب البديع، وهذا التضامن المتبادل بين العوامل الكونية ومعنى أتحاد قواميس الوجود كلها فيما بينها إنها مظاهر مختلفة لقوة واحدة عامة مهيمنه على الوجود بأسره حافظة له من التلاشى » .

فالالحاد ضد الايمان ، والالحاد إنكار وجود الله ، وهو مفهوم قام على المذهب المادى الذى يرى أن كل ماليس محسوسا فهو ليس موجودا أصلا :

ونفى الالوهية يتضمن نفى النبوة والكتب المنزلة وعالم ماوراء الطبيعة والجزاء والحساب والقيامة والجنة والنار ويرجع بعض الباحثين الالحاد إلى نظرية أصل الانواع لدارون ولكن المتمعن فى الامر يجد أن دارون لم يخالف مبدأ الايمان بالله ولكن الذين تلقفوا هذه النظرية من بعده بهدف هدام ، هم الذين فسروها واستخرجوا منها مايدفع إلى خلق طابع الالحاد ، ويتمثل هذا المعنى واضحا فى بروتوكولات صهيون :

ومن حق أن يقال أن هجوم الفلسفة الاوربية على الاديان وعلى كل القيم الاساسية التى تمثلها ومنها وجود الله إنما كان منظورا فيه الى الكنيسة والاقطاع وأثرهما فى تعويق النهضة وفى تحرير الإنسان وأن جميع المذاهب الفلسفية : سواء منها الفلسفات الاجتماعية أو الطبيعية أو النفسية (نيشه ، ماركس ، فرويد ، دوركايم) انما كانت تضع أمام انظارها هدفا ضخما تريد هدمه هو الدين الغربى، وذلك نتيجة للتحدى الذى واجهته النهضة الأوربية مع الكنيسة من ناحية ، والدور الخطير الذى لعبته الصهيونية منذ الثورة الفرنسية وبعدها فى تصديع المسيحيه والكنيسة والقضاء على فكرة الإيمان والدين والقيم الاخلاقية والإجتماعية وذلك طبقا للمخطط الذى كشفت عنه بروتوكولات صهيون فى الاستيلاء على العالم ، وفى ضوء هذه البروتوكولات يمكن أعادة النظر فى كل خطوات التاريخ الغربى وثوراته وفى ظهور الماركسية وغيرها .

---

(١) العلامة فريد وجدى ــ دائرة معارف القرن العشرين

ومن الواضح أن تنتفى تماما بالنسبة للعالم الاسلامى والاسلام والامة العربية كل هذه التحديات التى واجهت الفكر الغربى ، ولكن التبشير والتغريب والنفوذ الاستعمارى قد اتخذ من هذه الشبهات سلاحاً هاماً فى مواجهة الاسلام وزلزلة مفاهيمه فى قلوب المسلمين عن طريق عرض هذه القضايا والتركيز على بعض الجوانب منها وأثارة الشبهات ، فليس فى الاسلام بالحق قصة خلاف بين العلم والدين ، ولا قصة صراع بين الشعوب والعلماء وليس فى الاسلام كنيسة ولا كهنوت ولا طبقة رجال دين ، ولا توجد فيه بالقطع ما يسمى بالكهانة أطلاقا فذلك شىء لم يعرفه التاريخ الاسلامى بجملته ، ولقد كان علماء الدين على العكس من ذلك دعاة النهضة والعلم واليقظة وهم الذين أشعلوا نيران المقاومة والجهـــاد والنضال فى وجه النفوذ الأجنبى ، والذين أوقدوا شعلة العلم والحرية .

واذا كانت نزعة الالحاد يمكن أن يتسع نطاقها فى الغرب حيث تمتزج المسيحية المثلثة بالوثينية الاغريقية فانه فى الشرق لا توجد هذه النزعة اذا سارت الامور على طبيعتها الا صدى خفيفاً ، فالمسيحه الشرقية والاسلام الموحد يبعد إذا سارت عن الالحاد كثيراً ولكن الامور لم تتوقف فى ظل التغريب ونفوذ البشير عند هذا الحد بل نقل ميدان المعركة الى عالمنا الاسلامى وفرض علية فرضا ذلك الصراع . والنفس الاسلامية الشرقية بطبيعتها نفس مؤمنه بالله ، عميقة الايمان بالخالق ، وفى رحابها نزلت الاديان السماوية الثلاث فهى تعق فطرتها حين تتعلق بمفاهيم الالحاد الغربى الاصل الوثنى الجذور :

وقد واجه الفكر الاسلامى والثقافة العربية تجارب قليـــلة فى المجال منها ما كتبه اسماعيل أدهم تحت عنوان (لماذا أنا ملحد) وقد كشف فيه عن تحدى نفسى خاص وشخصى يتعلق بالأمر الذى دفعه الى هذا الانهيار فقـــد كان والده مسلما متزمتاً يضربه فى الصباح ليصلى الفجر قسراً بينما كانت أمه تأخذ أخته الى الكنيسة يوم الاحد فى رفق ، وكان هذا هو التحدى الذى دفعه الى الالحاد بعد صراع نفسى حاد .

وهذه تجربة فردية لاتتصل بجوهر الدين نفسه ولاتمثـــل انكارا أساسيا للتوحيد ولـكنها نوع من الانحراف دفـع إلى مهاجمة كل القيم فى سبيل الانتصار وتأكيد الذات . وقد ذكر اسماعيل أدهم ذلك فى وضوح حين قال « أن الاسباب التى دفعتنى للتخلى عن الإيمان بالله كثيرة منها ما هو علمى وما هو فلسفى ومنها مايرجع لبيئتى وظروفى ومنها مايرجع لاسباب سيكولوجية : لقد كان أبى لايعترف لى بحق تفكيرى ووضع أساس عقيدتى المستقلة وكان يفرض على أراء الاسلام والقيام بشعائره وقد ثرت على هذه الحالة وامتنعت» لقد خرج اسماعيل أدهم عن جذوره فى سبيل التحدى الشخصى وتأكد ذاته ، وامن بالعلم وحده ولـكنه فى النهاية كانت ماذا ! عندما تعرضت الاسكندرية للغارات أيام الحرب العالميـــة الثانية وفرغ المنزل الذى كان يعيش من ايراده أنتحر لانه أحس بـــأن مورده قـد انقطع . وهذا مفهوم الالحاد . والفرق بينه وبين مفهوم الإيمان بالله .

والمعروف أن الالحاد كسائر أنواع الشر طارىء على النفس أى أنه ليس من طبيعتها .

ولقد كشف درس الطبيعة الإنسانية عن أن فى أعماق النفس حاجة إلى التدين بدين ما ، وقد اكتشف الرواد الذين زاروا مجاهيـل الأرض أنه لاتوجد قبيلة من البشر بغير دين ، فالذين لم يعرفوا الله مثلوه حسب تصوراتهم فى الالهـة التى أتخذوها لانفسهم . وقد ظهر فى كل جيل ملاحده وهراطقه وأعداء للدين ولـكنهم كانوا ولا زالوا قلة غير ذات فاعلية وما تزال الـكتلة البشرية وستظل متدينة ،

والامر الجديد الذى تـكشف عنه الدراسات العلمية اليوم ، مع تفتيت الذرة وأقتحام الفضاء ، ومع إنهيار النظريات العامية القديمة هو أن وراء هذا الـكون خالق وصانع ومدبر . وقد ظهرت فى السنوات الاخيرة مؤلفات كثيرة لعلماء المعامل الذين يعيشون كالرهبان خلف الواجهات الزجاجيـة وبين أدق دقائق الأجهزة العلمية تـكشف عن توصلهم باليقين إلى هـذه الحقيقة . لقد أنتهت مرحلة توقف العـلم عند المحسوس والمعقول . ولذلك فأن العلماء المعمليين ليسوا هم دعاة الالحاد وإنمـا تنطلق دعوى الالحاد من محيط الفلاسفة والفلسفة

نظرية وافتراض وليست علماً ، وهى افتراض يقوم فى نفوس أصحابه أولا ثم تلتمس له الادلة ، وهو قابل للانتقاض والتحول باختلاف العصور والبيئات .

وهناك فلسفات معاصرة ترى أن التحديات الاساسية لها هى فى مهاجمة الدين وأثارة النفس الانسانية ضده وخلق جو من الالحاد والاباحة لاهداف سياسية ورغبة فى التسلط على العالم البشرى والسيطرة عليه. وقد استفاد الاستعمار والنفوذ الأجنبى من هذه الموجات والدعوات وحاول استخدامها فى الاقطار التى يسيطر عليها وقد كانت الفلسفات المادية أساساً بعيدة عن العلم الخالص ، وقد حاولت منذ ظهور نظرية أصل الانواع لدارون أن تنحو بالمفهوم العلمى منحا فلسفيا وتتخذ منه ذريعة لتأكيد المذهب المادى القائل بان الكون يدير نفسه بنفسه ولم يكن داردن ولا واحـــدا من العلماء التجريبين أو المعمليين قد قال بذلك ، ولكنها الفلسفة التى كانت تواجه تحديات معينه فى مقدمتها الكنيسة ومفاهيم المسيحية الغربية وقضايا متعددة تتعلق بالنفوذ السياسى للبابوات وأمراء الاقطاع . ثم كانت الفلسفة المادية المتمثلة فى التفسير المادى للتاريخ والماركسية أعلى مراتب الدعوة إلى مخاصمة الدين والدين الذى تخاصمه الماركسية هو دين أوربا .

التسامح

لم يعرف فكر بشرى معنى التسامح كما عرفه الفكر الاسلامى وخاصة فى مجال العقائد المخالفة ، وقد كتب العرب والفوا فى الملل والنحل وكانوا واسعى الصدر تجاه العقائد الاخرى ، وحاولوا أن يفهموها وأن يدحضوها بالبرهان والحجة ، ثم أنهم إعترفوا بما أتى قبل الاسلام من ديانات توحيدية ويحظى ابن حزم فى هذا المجال بالنصيب الأوفر ، وقد كتب أبو الريحان البيرونى عن أديان الهند فى القرن الخامس للهجرة فلم يمس عاطفة أحد من أهلها ، وكان إذا كتب عن نحله يشعرك أنه هو أحد أبناء تلك النحله لتلطفه فى وصف شعائرها ، وكان كتاب العرب يذكرون جميع المخالفين بكل حرية ، وفى كتاب طبقات الأطباء لإبن أبى أصيبعه وطبقات الحكمـاء لابن القفطى وطبقات الادباء لياقوت وفى الوافى بالوفيات للصفدى ، وفى تاريخ حكماء الإسلام للبيهق ، أمثله لهذا التسامح فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامرين والمجوس كانهم أبناء ملة واحدة (١)

وفى مختلف مجالات المجتمع والفكر نرى هذا التسامح واضحاً فقد بلغ أرباب الديانات الأخرى فى الحضارة الاسلامية مكانا عالياً فكان منهم أطباء الخلفاء واعوان الأمراء ، ويرجع ذلك الى مفهوم الاسلام فى ا تسامح مع أهل الذمة وأصحاب الكتاب من الملل المختلفة .

غير أن كلمة التسامح لم تلبث أن استعملت فى العصر الحديث على نحو آخر جد خطير ، فقد إستعملها دعاة التغريب وخصوم العرب والمسلمين على نحو يدعو الى تساهل المسلمين عن القيم الاساسية لفكرهم فى سبيل إتاحة الحرية للحضارة ومن ذلك قولهم : الشرط الأول للحضارة وهو التسامح للاراء المخالفة وحرية الرأى ، ويذهب البعض الى القول بأن السياسة والاجتماع والدين لن ترتقى حتى

---

(١) هاملتون جب فى كتابه لادب العربى .

تشملها الحرية شمولا تاما كما شملت العلوم المادية ، والمقصود من ذلك أن يتجاوز الفكر الاسلامى عن قيمه الكبرى أو مفاهيمه القيم الانسانية العامة ليفسح المجال للقيم الغربية فى السياسة والاجماع والدين وهى مخالفة للفكر الاسلامى مخالفة جوهرية وتامة .

أن الفكر الاسلامى كان دائماً مفتحاً على الفكر الانسانى وعلى مختلف المذاهب والآراء والفلسفات والاديان ولكنه كان حريصاً على أن تبقى جذوره وقيمه الاساسية القائمة على التوحيد ، ولم يمتنع عن تقبل أشياء كثيرة من هذه المذاهب مالتمس فيها قوة إيجابيه وتقدما ، ولكنه لم تقبلها على علاتها ، بل صهرها فى بوتقته وإذابها فى كيانه وإساغها أصلا بحيث أصبحت عاملا مجدداً له ، دون أن تخرجه من ذاتيته وطوابعه ومزاجه الاصيل .

ومن هنا فان مثل هذه الدعوى إلى التسامح ، على هذا النحو لاغراق الفكر الاسلامى والثقافه العربيه فى اتون التيارات والمذاهب الغربية التى تمر الآن فى مرحلة الانهيار ، وحيث تسيطر اممها وحضارتها على العالم وتحاول أن تفرضها بقوة هذا النفوذ ، وحيث أن الفكر الاسلامى والثقافة العربية لاتزال بعد لم تصل إلى مرحلة الموازاة التامة ، كان من حق كل ثقافة أصيلة أن تحتفظ بمقوماتها وأن لا تتمكن أى ثقافة أخرى من أن تجتاحها أو تقهرها أو تحتويها .

فمفهوم التسامح والتساهل اليوم فى هذا المجال ، مفهوم جدير بالنظر والاعتبار والتوقى والغربيون أنفسهم فى صدر حضارتهم لم تقبلوا الفكر الاسلامى كاملا بل أخذوا منه ماجدد فكرهم ولكنهم يقبلوا التسامح معه الى الحد الذى يغير ذاتيتهم .

التطور (التطور والثبات)

التطور قانون طبيعى يعترف به الفكر الاسلامى على نحو مايعترف به الفكر البشرى كله ، وهو يقوم على أساس واحد هو أنه لايعنى التغير الكامل ، فالفكر الاسلامى يؤمن بثبات الأصول العامة والقواعد العليا وتطور الجزئيات والتفاصيل والفروع ، وفكرة التطور لاتتعارض مع الفكر الاسلامى الا إذا إستهدفت القضاء على الجذور والمقومات الاساسية ، أما فيما عدا ذلك فهى طابع من طوابعه : يتمثل فى المرونة والقدرة على الحركة والتجاوب مع ظروف البيئات والعصور ، والقدرة على امتصاص عصارات الثقافات والتفتح على الحضارات دون الانفصال عن جذورها أو فقدان ذاتيتها . ومفهوم الفكر الاسلامى هـــذا عن التطور أقرب وأوثق إتصالا بالعلم من المفهوم الغربى الذى أوجدته الفلسفة وفرضت به إنبعاثا من المادية الخالصة عدم وجود شىء ثابت مطلقاً .

ومفهوم الفكر الاسلامى فى التطور والثبات هو مفهوم العلم فى شأن الكون والوجود نفسه ، الثابت الاصول والطوابع المتطور الجذور والفروع .

ومفهـوم التطور فى الفكر الاسلامى يستمد وجوده من قانون الاعتدال والتوازن فكل تجاوز لحدود الصورة أو الغاية ينقلب بحكم هذا القانون الى نقص أو إضطراب أو إختلال - وهناك إجماع بين الباحثين على أن التطور ليس قانونا اخلاقياً وليس كل طور أفضل من الذى سبقه بل أن التطور قانون اجتماعى واقعى لايقتضى مطلقاً تفضيل الطور الاخير على الاطوار السابقة ذلك أن فكرة التطور الاجتماعى أخذت من فكرة التطور الحيوى (البيولوجى) والتطور فى الحياة يكون تحسنا وارتقاء وقد تكون ضعفا وإنقراضاً .

وهنا يبدو الفارق بين التطور والتطوير فالتطور يشمل أى تغير يحدث فى أوضاع الجماعة سواء فى إتجاه تقدمى تصاعدى أو فى إتجاه عكسى تنازلى . ثم هو

فوق ذلك ينبنى على أن دوافع هذا التغيير وعوامله إنما يكون منشؤها ذات الشيء ومردها الى مافيه من طاقات طبيعيه .

اما التطوير فهو على عكس ذلك . يختص أولا بالتغيير التصاعدى الذى تهدف دائما إلى طلب الكمال والحياة الأفضل ويتأثر بدوافع خارجة عن طبيعته والقوة الخارجية هى القيادات الاصلاحية والدعوات التقدمية (١)

وهو يعنى المواءمة بين مقتضيات الفكر الاسلامى بما يتضمن من فلسفات وتشريعات ، وبين ماجد فى المجتمع تحت الحاح من عوامل التطوير الضرورى فى مختلف نواحيه الساسية والاقتصادية والاجتماعية ومن هنا فان التطور لايمكن أن يكون قانونا تقدميا : أى أن كل طور أفضل من الطور الذى سبقه ورجال النظوية يقولون أن التطور يبدو كحركة دائرة ،إلى امام والى أعلى ، وتطور من البسيط الى المركب ومن الاسفل إلى الأعلى ومن الكمية إلى النوعية ،

غير أن التطور هو القانون الذى يتمثل فيه الجهود الإنسانية وتبدو فيه أعمال المتكلفين الاختيارية والارادية التى هى مناط الحكم عليها بالخير والشر وبالخطأ والصواب ثم بمبلغ ملاءمتها أو عدم ملاءمتها لصالح المجتمع ورقى الانسانية .

ولما كان مفهوم التطور قد ارتبط أساساً بالمفهوم المادى الذى استخلصه الفلاسفة من نظرية داردن فقد قام على مفهوم إنكار وجود الخالق ، ويرى أن نشأة الكائنات الحية هى نشأة طبيعية أو من ذاتها . ولكن الفكر الاسلامى يرى أثبات الخلق لله لا للطبيعة ووقوع البعث فى الاخرة ، مع الايمان الكامل بالغيب، ولذلك فان التطور الذى اتسمته المذهب الفاسفية المادية بمعنى إطلاق الحريات الاجتماعية والفكرية على النحو الذى يصل الى الالحاد والاباحة ليس من مفهوم الفكر الاسلامى ولا هو متقبل فيه . وأن ذلك النحو من الفهم إنما قام فى أوربا فى ظروف محلية خاصة وليس له قيمة حقيقه فى مجال القيم الانسانية وق . وردت كلمة التطور بمفهومها الاسلامى فى الطبقات الكبرى للسبكى وفى مقدمة بن خلدون وفى كتاب البدر الطالع للشوكانى قال السبكى ومن كرامات هذه الأمة والتطور

(١) راجع بحث الدكتور محمد بيصار عن (العقائد و الأخلاق) .

باطوار مختلفة وهذا الذى يسميه الصوفية بعالم المثال ويثبتون عالما متوسطا بين عالم الاجسام والأرواح ، واشار ابن خلدون الى أن اهل الدول ابدا يقلدون فى طور الحضاره الدول السابقة قبلهم . . الخ .

واقد دارت مناقشات متعددة حول التطور والثبات ، بافتراض أن هناك تناقض حتمى بينهما ،والواقع أن الثبات يبدو نظريا نقيض التطور والحركةولكن اذا أنعمنا النظر من الناحية العلميةوالواقعيةوجدنا أن التطور والحركة ضوابط، هذهالضوابط بطبيعتها ثابتهباعتبار المقومات والدوافع الاساسية للحركة والتطور، فالقطار والسيارة والطائرة والصاروخ كلها أجسام متحركةولكنا فى نفس الوقت محكمة الصنع بضوابط ثابته ، تنظم حركتها وتيسر اندفاعها باستمرار ، ولولا هذه الضوابط الثابتة لكانت الحركة عشوائيه أقرب الى الفوضى ولماتولدت الحركة قط ، فالقطار يخرج عن مساره اذا أهمل صيانته ، واختلت ضوابطه ، وفقد أحكام صنعه ، والصاروخ ينفجر فى قاعدته اذا اختلت تلك الضوابط .

كذلك المجتمع الانسانى بجتمع دائب الحركة والتطور ولكن هناك ضوابط أساسية تنظم حركته ، هذه الضوابط هى القيم الدينية والخلقية ومن هنا لايجوز أن نقول أن هذه القيم ثابته ومن ثم فهى تتناقض مع الحركة ، والواقع انها ضوابط للحركة ، وليست بالقيود المعوقة لها ،أما هؤلاء الذين يحاولون تصويرها كذلك استنادا الى نظرية المتناقضات فهم لا يتعمقون الحقائق .

التعقيل

عبارة وردت على لسان بعض المفكرين فى معارضة الحماسة والعاطفة . والتعقيل هو العمل الذى يحتكم إلى العقل ويستند إلى شواهد الحس والتجربة .

والمعروف أن (مصطفى كامل) داعية الوطنية المصرى الكبير كان مصدراً من مصادر الوعى واليقظة ظهر بعد أن أصاب المصريين الجمود واليأس على أثر الاحتلال البريطانى . ومن هنا فقد كانت صحيته عاملا هاما فى إيقاظ لوعى وتحريك المشاعر ودفع النفوس إلى التطلع العاطفى والروحى بالحرية والوطنية . ومن هنا كانت حركته مطبوعة بطابع الحماسة والوجدان والعاطفة ولم يكن فى الامكان أن تبدأ حركة بعث الأمة بعد يأس إلا عن طريق تلك الشعارات المثيرة التى تهز النفس من أمثال قوله « بلادى بلادى لك حبى وفؤادى، لك حياتى ونفسى أنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يامصر »

هذه الدعوة التى حمل لوائها مصطفى كامل بعد عشر سنوات من وقوع الاحتلال البريطانى كانت مبعث ثورة ويقظة عارمة بين طبقات الشعب المتطلع إلى الحرية ، وقد ظل مصطفى كامل يشدو بمثل هذه الانغام منذ ١٨٩٣ تقريبا إلى أن توفى ١٩٠٨ وفى عام ١٩٠٧ ظهرت الجريدة ونشأ حزب الأمة وطلع لطفى السيد بتلك الصيحة الداعية إلى « التعقيل » والمهاجمة للحماسة والعاطفة ، إنطلاقاً من مفهوم التفاهم والمصالحة والالتقاء بالانجليز فى منتصف الطريق ، على النحو الذى كان يطمع كرومر فى تحقيقه ، بايجاد طبقة تحمل لواء الحكم فى مصر وتوالى النفوذ الاجنبى ولاتعاديه وتتقبل أوضاعه وتجرى مع الامور مجرى الاصلاح على مراحل ، دون أن يشوبها هذ الطابع من الوطنية الجارفة الذى أتسم بها مصطفى كامل وصحف وكتابات الحزب الوطنى والذى كان يتطلع إلى المطالبة بالجلاء والحرية كاملة .

ومن حق أن يقال أن طابع الحزب الوطني لم يكن طابعا عمليا ولكنه كان ضرورة وطنية لابد أن تستهل بها الحركة الوطنية بعد الاحتلال الأجنبي :

غير أن التمقيل الذى دعا إليه لطفي السيد لم يكن قاصراً على هذا المفهوم وحده ولكنه كان مخططا كاملا معارضا تمام المعارضة لاتجاهات الحزب الوطني السياسية والاجتماعية التي كانت تتسم بالايمـــان ، بالوطن وحرارة الدفاع عنه :

التغريب

التغريب فى أبسط مفهوم هو حمل المسلمين والعرب على قبول ذهنية الغرب ومحاولة غرس مبادىء التربية الغربية فى نفوس المسلمين حتى يشبوا مستغربين فى حياتهم وتفكيرهم وحتى تجف فى نفوسهم موازين القيم الاسلامية : ويستهدف تحقيق ذلك إيجاد شعور بالنقص فى نفوس المسلمين والشرقين عامة وذلك باثارة الشبهات وتحريف التاريخ الاسلامى ومبادىء الاسلام وثقافته وأعطاء المعلومات الخاطئة عن أهله وإنتقاص الدور الذى لعبه فى تاريخ الثقافة الإنسانية ، ومحاولة إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية التى تتمثل فى ماضى هذه الأمة مع توهين القيم الاسلاميه والغض من مقدره اللغة العربية وتقطيع أوصال الروابط بين الشعوب العربية والاسلامية .

ومن مخططات التغريب الحيلولة دون قيام (وحدة الفكر) التى هى مقدمة لوحدة الأمة وبلبلة العقول والنفوس بعشرات من المذاهب والدعوات ، وتجميد الفوارق الثقافية والاقتصادية فى الأمة الواحدة ، بما يحول دون قيام الوحدة.

وحركة التغريب (Westernism) دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها ، وتخدمها مؤسسات مختلفة أهمها التبشير والاستشراق .

ويقول أصحاب هذه الدعوة أن للمسلمين والعرب قيما ومثلا وذاتية خاصة تحول بينهم وبين الاندماج فى الامم الآخرى وتخلق فيهم قدرة قوية على مقاومة النفوذ الأجنبى والغاصب ، ولا سبيل للقضاء على هذه المقاومة إلا صهر هؤلاء فى بوتقة الفكر الغربى وأخراجهم من قيمهم لينصهروا فى قيم الغرب .هنالك لا يجدوا فى أنفسهم مشاعر الخصومة معه ، بل يجدوا طابعا من التقبل والانضواء تحت الوية النفوذ الغربى وفكره والرضى به .

ومن هنا يجرى العمل على أخراج الفكر الاسلامى والثقافة العربية من قيمها وجذورها ومفاهيمها بمحاولة فرض قيم متباينة لا تلتقى مع الذوق والنفس والطابع والمزاج العربى الاسلامى ويجرى تحقيق ذلك عن طريق ايجاد النخبة والقادة الذين يتعلمون فى مدارس التبشير ومعاهد الارساليات :

التقدم

مفهوم التقدم فى الاسلام أنه يدفع الانسان دائما الى امام ، والتقدم فى الاسلام هو تأكيد القيم الانسانية المطلقة ، وهو تقدم كامل شامل ، يعنى تقدم المادى والروحى معاً ، وهو تقدم سياسى واقتصادى ومعنوى ، وفى مجال التقدم المادى يتحتم أن يكون هذا التقدم مشروطا بالقيم الاساسية للأخلاقية بغير اذلال للخلق . وذلك انطلاقا من مفهوم الاسلام بان الحوافز الروحية تعطى المادى مثلا أعلى .

وقد علت أصوات غادرة تدعو المسلمين والعرب الى أن الدين معوق عن التقدم ، مانع من النهضة وأن عليهم أن ينفصلوا عنه حتى ينقدموا ، هذه الاصوات ليست خالصة فى ذعوتها وليست صادقة فيما تبدت من نتائج . ذلك أن الاستعمار إنما كان يريد بذلك أن يخرج المسلمين والعرب من دينهم ليكونوا أساس قيادة ولينصهروا فى بوتقة العالمية فتضيع شخصيتهم وطوابعهم ،

وهى ليست صادقه لأنه إذ كانت أوربا قد فعلت ذلك ، ونجحت بالانفصال عن دينها ، فان المسلمين يفشلون دائما اذ تحقق لهم هذا الانفصال . ذلك أن أوربا كانت بطبيعتها لادينيه وكانت المسيحيه دخيله عليها ولذلك سرعان ما لفظتها أو حرفتها ، أما الشرق الاسلامى العربى وهذا العالم الوسط بين الشرق والغرب فقد تشكل والدين جزء من ذاته وتكوينه فهو عنصر أساسى جذرى لاسبيل الى التخلص منه الا اذا اعيد تشكيل الامة من جديد ولأمر مانزلت الاديان الثلاثه الكبرى فى هذه المنطقة .

ولذلك فان محاولة أخراج المسلمين والعرب من الدين بعامة أو الاسلام بخاصة إنما هى تجربة مستحيلة ذلك لأنها مضاده لاتجاه التاريخ مخالفة لروح التقدم متعارضة مع مزاج المسلمين وذوقهم والاسلام لم يحل مطلقا خلال تاريخه دون التقدم وليس الاسلام الذى وقف أو يقف امام التطور أو النهضة والحضاره ، لأنه كان

وطبيعته مصدراً للبحث العلمى ومنشئا للمذهب العلمى التجريبى الحديث . وأن الحضارة التى اقامها كانت نتاج إيمان المسلمين به وتحقيقهم لدعوته الدالة الى النظر فى الآفاق واستطلاع أسباب القوة والعماره فى الارض .

وقد أكد المنصفون من الباحثين أن الاسلام قادر على التطور والحركة فى مجال التقدم ولكن ليس الى الحد الذى يراد به من تبرير القيم الغربية ، فان ذلك يفتح الباب لذوبان المسلمين وتلاشى شخصيتهم .

والواضح أن مفهوم التقدم فى الفكر الاسلامى يختلف عن مفهومة فى الفكر الغربى ، وتاريخ الاسلام وحضارته ونهضته يستطيع أن يرسم هذا المفهوم فى وضوح ويقرر حقيقة دور الاسلام والفكر الاسلامى فى التقدم الانسانى وفى هذا يقول العلامه الفرنسى مسمر :

أن تقدم العلوم فى الغرب فى وقتنا هذا حصل رغما عن الدين ، أما دين الاسلام فالعكس من ذلك ، أى لايمكن أن يبقى على قيد الحياه إلا بانتشار العلوم فان بين الاسلام والعلوم رابطة كلية ، والغربى إذا صار عالما ترك دينه أما المسلم فانه لايترك دينه إلا إذا صار جاهلا وبأى وجه يمكن نسبة التقدم الحالى الى الدين النصرانى، والحال أنه ماجاء الابعدخمسة عشر قرنا من ظهوره وبأى وجه يمكن نسبه تأخر المسلمين الحالى الى دينهم وفى عام ٧٤٣م أى بعد مائة واحدعشر سنة من وفاه (محمد) كانت دولة الإسلام أكبر من دولة الإسكندر المقدونى وفى عام ١٥٦٦ عند وفاة السلطان سليم كانت أكبر من مملكة الرومانيين ، وبذلك يتضح أن عظمة الإسلام مكثت ألف سنه وكل من يعرف أنه لايمكن الوصول الى مثل هذه الدرجة من الامور السياسية والحربية إلا بالعلوم و لتجديد » .

وقد اشار الى مفهوم التقدم وارتباطه بالإسلام العلامة جوستاف لوبون حين قال الشبان المسلمين الذين زاروه فى بيته بباريس فى أوائل هذاالقرن : أن السبب فى انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبعه بالعقائد الباطلة وأن قوة الدين قوه أدبية كما أن الشعب الذى يريد الرقى يجب ألا يقطع الصلة التى تربطه بماضيه وقال أن العلوم لا تفيد المسلمين إلا إذا اقترنت بدينهم

التكامل

هذا مصطلح اسلامي أساساً يكشف عن فوارق عميقة بين الفكر الاسلامي العربي والفكر الغربي . فالفكر الاسلامي يؤمن بتكامل وحداته وعناصره المختلفة والتقائها على الهدف الإساسي للفكر وهو بناء شخصية الفرد وبناء المجتمع » .

وابرز مميزات التكامل في الفكر الاسلامي هو التوازن والموائمة والتنسيق بين تيارات الوحدات المختلفة وإتجاهاتها، بحيث يحميها من التعارض أو التضارب أو التخلف ويحول بينهـــا وبين خلق جو من الصراع ، بحيث يأتي فروع الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والقانون على مفهوم متكامل أساسة بنـــاء الفرد والجماعة ودفعها إلى التقدم والبناء والنمو وإداء الرسالة الإنسانية الأساسية التي يقوم الفكر الإنساني من أجل بنائها وحمايتها ودفعها إلى الأمام ، عندما يتم هذا القاء يمكن لهذه الرسالة أن تحقق غايتها وهذا لايتم إلا بوجود جو من التكامل بين هـذه الفروع المختلفة من الفكر تستهدف غاية موحدة وتقوم على أساس فهم واحد مستمد من القرآن والاسلام .

أما الفكر الغربي فقد قام أساساً على غير ذلك ، بل على عكس ذلك ، قام على أساس الانفصال والتخصص والتباعد، بين كل من أعمال العاملين في مجال الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والقانون أو أنه حين دفع هـذه الفروع إلى العمل لم يخلق بينها ذلك الربط الأساسي والحتمي الذي يربط أجزاء الفكر الاسلامي وهو الاخلاق ، والارتباط بالتوحيد والايمان برسالة السماء التي يمثلها الاسلام ويرسم القرآن منهجها وطريقها ، بحيث يظل الفكر الاسلامي يستمد منها ويسير في فلكها ويستهدف الغاية من عمله تحقيق منهج رباني في مجال الفكر والحضارة . إن الفكر الغربي ليس مرتبطا في حركته بمسئولية عقائديه أو اخلاقيه تنتظم وحداته كما التزم بذلك الفكر الإسلامي استمداداً من الاسلام ولذلك فقد حاول دعاة التغريب التأثير في طابع التـــكامل الذي يتسم به الفكر الاسلامي بمحاولة تجزئة هذه الفروع ومن ذلك أعطاء الادب مثلا حرية خاصة تخرج به عن هدف بناء المجتمع ، أو الفصل بين الدين والمجتمع في مجال الحضارة

أو تفريغ السياسة من القيم الاخلاقية ، أو بناء الاقتصاد على الأساس المـــادى الخالص بينما هو فى الاسلام لا يقوم إلا على أساس التكامل بين المادة والروح ، والدنيا والآخرة .

ومحاولة التجزئة هذه لها إبعاد خطيرة حين يحاول الفكر الاسلامى الاخذ بها فانها تصرفه عن منهجه الأصيل وتخرجه عن مسارة الحقيق المهتدى باهداف الاسلام ومنهج القرآن .

ولذلك فان الدعوة إلى التكامل ولفت النظر إليها إنما هى من الأسس التى لا شك فيها لتحرير للفكر الاسلامى والثقافة العربية من التبعية والغزو والتغريب ووضعها على الطريق الصحيح.

التورائية

ليس هناك رأى واحد فى كتابات من كتبوا عن التوراه من الباحثين والعلماء الغربيين يجزم بان التوراه المتداولة اليوم هى كتاب سماوى ، واحدث ما كتب فى هذا الصدد عدد خاص من مجلة لايف باسم الكتاب المقدس صدر فى أبريل ١٩٦٥ ومن قبل ذلك صدور عديد من الدراسات والابحاث فى الشرق والغرب تشير الى ان التوراه لم تعد كتاب علم وتشريع بعد أن وكل الغربيون امر العلم وسن الشرائع للانسان — على حد تعبير الدكتور أنيس فريحه ، الذى يرى أن ذلك قد حرر الانسان — الاوربى من تقديس الحرف — فشعر انه حر طليق من كل قيد ينظر فى الكون بعقله ويحس الجمال فى روحه ويرى الدكتور فريحه (١) فى بحثه باسم « نقد التوراه » أن هذا النقد هو ظاهره عامة فى هذا العصر ، من أجل إعادة النظر فى الدين والتوكيد على الانسان وعظمته والتقليل من اهمية الحرف وهى عوامل أساسية فى الفكر الغربى المعاصر ، حيث الانسان سيد نفسه له أن يفهم الكون بعقله ويرى هذا الباحث نقلا عن عدد كبير من الباحثين أن نقد نصوص الكتاب المقدس أصحبت اليوم ضرورة من أجل معرفة كتابها وأزمنة وضع مختلف أقسامها ، وقد أدى هذا النقد الى اكتشاف فوارق فى الاسلوب وتناقض فى الروايات عن الحادث الواحد وتباين فى الأوامر التى يفترض أنها من مصدر واحد ، ويعقب على ذلك بقوله « مما جعل القول بان كل كلمة و كل نقطة من النصوص المقدسه هى وحى الهى حرفى أمراً بالغ الصعوبة » ويقول : لقد كان الناس يعتقدون جيلا بعد جيل أن الكتب الخمسة الأولى من التوراه (تكوين: خروج : لاويين : عدد : تثنية) كتبها كلها النبى موسى مع أن مثل هذا القول لا يرد فى التوراه ذاتها ، وانه حين طبقت مقاييس البحث العلمى التى استعملت فى دراسة وثائق القرون الوسطى ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الامر خلاف ذلك (٢)

---

(١) راجع ٤ م مجلة الابحاث ص ٢٧٠ (٢) راجع مجلة المعرفة (٤٥) ١٩٦٥ .

« والتوراة » كلمة عبرية الاصل معناها توجيه وتعليم ، ثم شرع وقانون . وقد اطلق لفظ التوراة على الاسفار الخمسة المعروفة باسفار موسى بحسبان موسى هو صاحبها (وعبارة الدكتور أنيس فريحه فى هذا الصدد هى (توهما أن موسى مؤلفها) أما فى العربية فان لفظ « توراه » يطلق موسعا على كتاب المقدس بجملته : أى بعهديه القديم والجديد (٦٦ كتابا) .

ويقول الدكتور فريحه : لايعلم بالضبط متى كتبت التوراه و ليس لدينا أدله تاريخية سوى تلك التى جاءت نتيجة التحليل اللغوى والتاريخى للنصوص ذاتها . والنص العربى الذى ضبطت أحكامه بين القرن ٦،٨ الميلادى فقد حدث فى هذه الفترة شبه تسابق الى ضبط صرف السريانيه والعبرية ، وذلك بسبب ظهور الاسلام وحرصه العجيب على الحفاظ على اللغة التى نزل بها الوحى . ويقول الدكتور فريحه أيضا : أن ترتيب الكتاب الذى استقر عليه يعود الى زمن ابعد من الزمن الذى ضبط فيه النص (والمجمع عليه هو بدء القرن الثانى للميلاد ، ويرجع زمن تاليفها - أى التوراه - الى ماقبل المسيح ، وقد اعترف بقدسيتها فى القرن الخامس قبل المسيح (٤٤٤ ق.م) وكتب الأنبياء (٢٥٠-٢٠٠ ق.م) والكتب المقدسة بين (١٥٠ ق الى ١٠٠ ب.م) ولايعرف أسماء المؤلفين ولا زمن التأليف بالضبط . وهناك إجماع على أن أقدم كاتب قد ظهر فى يهوذا فى القسم الجنوبى من فلسطين فى القرن ١٠،٩ ق.م) وحاول أن يكتب قصة الخليقة ويتميز أسلوب هذا الكاتب بدقة الوصف والحرارة الدقيقة التى تشيع فى كتاباته وجاء بعده كاتب دقيق اخر دون تاريخ شعبه (شمالى) فلسطين وجاء كتاب آخرون متعددون» .

ويقول الباحثون أن الشروع فى دراسة التوراه دراسة نقدية لم يبدأ الا بعد القرن السابع عشر حيث جرى تطبيق قواعد النقد الادبى على التوراه وأن ذلك جاء نتيجة مباشرة للثورة الانجيلية ضد الكنيسة البابوية « بهدف التخلص من ربقة التقليد الكنسى » وعندهم أن تقدم العلوم ساعد على نقد التوراه حيث آثار التناقض الواضح بين ما أثبته العلم وما جاء فى التوراه شكا وقلقا روحيا وإبرز

هذه التناقضات أن التوراه قالت أن الارض ثابته . وعندما اتجهت أفكار الغربيين الى الادب الاغريقى والرومانى أحدث ذلك رد فعل ضد الكتاب المقدس وظهرت الدعوة الى أن الفكر الشرقى لايتلائم مع روح أوروبا، وقد أشار الدكتور أنيس فى بحثه الى ما أصاب التوراه من تغيير وتحريف، وقال أن هناك اغلاطا منشؤها السهو والكسل والملل ، أو ضعف النظر ، وإذا كان الناسخ غير امين فى عمله عندما يعرض كلمه لايستطيع قرائتها فانه يعمد إلى تغيير الكلمة أو تحوير النص بكامله ليستقيم المعنى فضلا عن أن كثيرا من هوامش الملقين والشراح كانت تحشر فى المتن ولم ينج نص التوراه من كل هذه الافات ، فجاء نصها مشوها قلقا غامضا فى كثير من الاسفار ، وقد جرت الدراسات إلى نقد التوراه وهل هى شعر أم نثر أم تاريخ أم دين وجرى البحث حول شخصية المؤلفين وهل هى شخصيات تاريخية أم اسماء وهمية .

واعتبرت التوراة «أدبا » فى نظر الباحثين أو قسما كبيراً منها اعتبر من الفنون الادبية ويرى بعض النقاد أنها دراما بطلها «يهوه» يبدأ الفصل الاول بقصة الخليقه وظهور الانسان الاول فيقع فى الخطيئة ويطرد من الفردوس ويرى قسم آخر انها أقرب إلى الملحمه « ملحمة الخلاص » ويقول الدكتور فريحة أن من نتائج هذه الدراسات النقدية للتوراه أن اخذ الانسان فى أعادة النظر فى نشأة الدين .

وقد جاء فى دراسات الكتاب المقدس فى مجلة لايف ان التوراه أوسع الكتب انتشاراً ومن أكبرها اثراً فى تاريخ البشر ولكنها مع ذلك كتاب كتبه الانسان وأن مؤلفية يحملون أسماء ذائعة الصيت مثل : (بسياه ، ايزبكييل ، جريمياه ، القديس بول) . ولكن أغلب كلماته كتبها أشخاص آخرون لايعرف احد من هم ولايمكن معرفتهم فى يوم من الايام ، فقد ظل الوحى الالهى إلى الانسان ينتقل من الاب إلى الابن ألف سنه تقريبا بعد ابراهيم من غير أن يكتب وبعد ذلك فقط بدأ اليهود فى تدوينه وكان ذلك قبل الف سنة تقريبا من ميلاد المسيح فأخذوا يسجلون القصص والقصائد القديمة وأضافوا اليها قصص وقصائد أخرى جديدة .

وقد استلزم الامر أن تعاد كتابة نفائسهم عدة مرات وأن ينقل وينسخ ، مما أوجد فرصا عديدة لاتحصى لتغييرات كثيرة لا حد لها بعضها مقصود والبعض الاخر غير مقصود ، ولما بدأت المسيحية تنتشر بسرعة ازدادت الحاجة إلى عمل نسخ جديدة لاسيما العهد الجديد ، وأخذ كثير من المؤمنين يصنعون نسخا لانفسهم بأنفسهم أو كان احدهم يقرأ بصوت مرتفع فى (النسخ) بينما كان يتلقى عنه ما يقرب من أثنى عشر ناسخ ، وهذا ما مهد الطريق لاخطاء أكثر و أكثر ، لذلك فأنه لا يوجد اليوم أى نص (أصلى) لأى جزء من الكتاب وربما حوى العهد الجديد تغييرات أكثر وابلغ من العهد القديم . (١)

وقد اشارت هذه الابحاث إلى أن الكتاب المقدس كتب أول ما كتب باللغة العبرية القديمة واللغة الكوينية أى الاغريقية الا أنه عاش أكثر ما عاش فى الترجمة : وقالت الابحاث أن كل الترجمات ناقصة قاصرة، وكانت طريق المترجمين محفوفة بالمخاطر والصعوبات فقد عجز القديس جيروم نفسه عن ارضاء الكنائس المعاصره له والتمشى مع ذوقها وميولها . »

وبعد فان هذه الدراسات (الاوربية وماقيل فيها يفوق ما أوردناه) إنما تمثل موقف الفكر الغربى نقداً واثاره للشبهات حول صحة التوراه الموجودة الآن وصلتها بالتوراه المنزلة من عند الله ، وهذا كله معروض القول فى مواجهة الحملات الاستعمارية والبشرية والتغريبية الخطيرة ومحاولاتها فى اذاعة التوراه وتوزيعها فى العالم كله من حيث أنها وثيقة تاريخية ودينية ويؤخذ من احصاء جمعية التوراه فى نيويورك أن الكاب المقدس نقل إلى ٤١٢ لغه غير اللغات الاوربية (عام ١٩١٨) ويقدرون عدد النسخ التى وزعت من التوراة فى العالم وفى جميع اللغات التى ترجمت اليها بأكثر من ٣٠ مليون نسخه وقد عمد كثير من الكتاب وخاصة الادباء المهجرون وفى مقدمتهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه إلى نقل أسلوب التوراه إلى الأدب العربى وقد وصف ميخائيل نعيمه بانه ربيب التكوين الذى تغذى بالعهد القديم من ايات شعرية نافذة العبير السحرى مثل

---

(١) عن بحث الدكتور أمير رضا ـ الوعى الاسلامى ـ مايو ١٩٦٦

المزامير وشعر الجامعة وسفر أيوب ونشيد الانشاد حيث لاتخلو مقال من مقالات نعيمه ولايخلو وأحد منها من تعبير شعر ديني أو من آية أو بضع ايات برمتها ويطلق على هذه النهج : الاسلوب التوراتي وهو أسلوب عرف منذ راجع ابراهيم اليازجي ترجمة الاناجيل التى قام بها الامريكيون فى اوائل القرن وقد رغب اليازجى أن يتصرف فى بعض كلمات الترجمة ويتخير ألفاظها ويزيل عجمتها ويخلصها من فساد التركيب وسوء التاليف فحيل بينه وبين ذلك ومنع منه ، وبذلك نشات لغة توراتية عامية ركيكة التركيب ، وقد حاولت هذه اللغة غزو اللغة العربية الفصحى بمحاولات جبران ونعيمة ولكنها تراجعت بعد فترة من الزمن عاجزة عن تحقيق أى تحول فى الاسلوب العربى القرآنى المصدر.

وكان المستشرق كامفاير قد أشار فى ترجمته لجبران الى أن تأثير الترجمة العربية للتوراة ظاهر فى أسلوبه وخاصة فيما يتعلق بالرموز والاستعارات والمجازات .

ومن الحق أن يذكر أن (التوراة) كانت مستوحى الكتاب فى الغرب أمثال فكيور هيجو ولامرتين وجوتيه وتوماس مور والفردى دى فنى وملتون .

أما فى اللغة العربية فان الدكتور أنيس فريحه يشهد بانه ليس لها أثر كبير فى الآدب العربى فيما عدا محاولات جبران ونعيمة التى أخفقت ، فليس هناك غير محاولات ساذجة من بعض الشعراء الذين يكتبون قصيدة النثر يستعملون فيها عبارات الخلاص والخطيئة وغيرها وهى كلمات ليست أصيلة فى الفكر العربى وفى نفس الوقت يمكن القول بان القرآن الكريم والحديث النبوى قد كانا ولايزالان المصدرين الهامين من مصادر الاسلوب الادبى والاداء الفكرى والموضوعى، وفى مجال الدراسات العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وليس فى مجال القصة أو التاريخ وحدهما .

وفضلا عن ذلك فقد ظل القرآن بعيدا عن كل اتهام بالخلط والاضطراب أو الشك حول نصه أو مضمونه فضلا عن أنه لم تثبت قط أى معارضة فى نصوصه لأى

نظريات علمية حديثة أو اختلاف مع المنهج العلمى الحديث من ناحية مصدره أو مضمونه أو النصوص الواردة فيه .

وقد حاول الدكتور طه حسين أن يقف منه موقف كتاب الغرب من التوراة بنقد النص الأدبى أو التاريخى ولكنه فشل فشلا ذريعا وتحطمت محاولته ومحاولة تابعيه أمام وثاقة النص القرآنى وسلامته ، وعجز الشبهات التى جمعها الدكتور طه حسين من المبشرين والمستشرقين عن أن تقدم شيئا له أهميته أو من شانه أن يثبت أمام التحقيق العلمى أو العقلى :

التوحيد

يتسم الاسلام بسمة واحدة كبرى أصلية تمثل محور عقيدته وشريعته ونظامه الاجتماعى كله تلك هى « التوحيد » وعليها تقوم القواعد الاخلاقية والفكرية والعقلية والوجدانية جميعا « هو الله الذى لا اله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم » والتوحيد هو مفهوم الفطرة السليمة التى تتمثل فى أنه لا معبود ولا خالق ولا رزاق ولا ضار ولا نافع غير الله سبحانه وتعالى .

والتوحيد فى مفهومه الاصيل هو أن يتق الإنسان ربه فى كل أعماله ولا يرى سوى الله وحده سيدا وهدفا ، فليس غيره من يخشى أو إليه يلتجىء أو يستند ، فاذا عرف الإنسان مفهوم التوحيد معرفة كاملة دفعه ذلك إلى الصدق والخير والشجاعة فلا يرى غير الله ولايخشى سواه . ومن هذا المفهوم نفسه يقوم كيان الفكر الاسلامى كله فى مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية :

وقد وقعت البشرية فى اخطاء الوثنية والتعدد والشرك والإنكار الكلى وتألية البشر وغيرهم نتيجة لقصور فى الادراك وخطأ فى التصور وقد وصل بها ذلك إلى مراحل عديدة من الاضطراب والتخبط والبعد عن مناهج العدل والحق .

ذلك أن مفهوم التوحيد فى الاسلام إنما يرسم دائرة كاملة للمجتمع والفكر الإنسانى كله قوامها سيادة الإنسان للكون تحت حكم الله والتقاء القيم الروحية بالقيمة المادية ، وإرتباط القلب بالعقل، والدنيا بالآخرة . ومن هنا فان جوهر الأديان فى مفهوم الاسلام واحد لايتغير وإنما نشأت الانحرافات بمرور الزمن، والدين واحد على لسان جميع الأنبياء والرسل« شرع لكم من الدين ما أوصى به نوحا والذى أوحينا إليــك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتفرقوا فيه » وقوام التوحيد أعلاء الله سبحانه عن الشريك والشبيه وشجب عبادة الأصنام والاتجاه إلى الاعتقاد بوجود الله عن طريق التأمل والبصيرة والعقل والدليل والايمان بقوه عليا مسيطرة .

والتوحيد، غير الثنوية وغير التثليت مما تقول به بعض والمذاهب الاخرى

والتثليث ليس خاصا بدين معين فان بعض الاديان القديمة غير المنزلة فيها تثليث خاص بها . وهناك الثالوث الفرعونى والاغريقى والهندى .

أما فى الاسلام فان الله منزه عن المشابهة والمثال كله وأنه لايجوز عليه اتحاد وتركيب بل لايجوز أن نتناول التكلم فى ذاته المقدسة بعقولنا القاصرة « ليس كمثله شىء » « ولايحيطون به علما » ولا شك أن الاديان كلها قامت على التوحيد « ولكن بعد وفاة الرسل تدخل الأمم إلى تعاليمهم جميع أهوائها الموروثة لها من الوثنية الاولى من التشبيه والتجسيد والتعديد فى ذات الخالق ، أما الاديان فى مبادئها فكانت بريئه من ذلك كله وكان اتباعها الأولون على غير ماعليه اشياعها الاخرون (١) .

ويقول الدكتور حسن صعب أن قاعدة الاسلام الازلية هى الاعتقاد بوجود الله التى لا تتغير بتغير والزمان والمكان .

وحقيقة كونه واحد هى حقيقة لايأتيها الباطل من قريب ولا من بعيد وكل الدعوات الباطلة بتحدى هذه الحقيقة بالانكار والمبالاة ويتحداها بالنفى والاستهزاء .

وتعطى عقيدة التوحيد للمسلم أعلاء آ لله سبحانه على كل عظيم ، فلا تعبد الأفراد ولا الابطال ولا الصالحين ولا لاولياء وتقدر أعمال الناس بأعمالهم لابأحسابهم ولا مكانتهم المادية ولا أصولهم ولاأنسابهم والتوحيد هو الذى يقرر المفهوم المطلق الذى يفتح الباب بين الإنسان والله سبحانه على مصراعيه بغير واسطة أو وصايه .

---

(١) محمد فريد وجدى — كنز الاسلام واللغة .

« وإذاسألك عبادى عنى فانى قريب » وفى ذلك قول الرسول وإذا (سالت فاسال الله وإذا استعنت فاستعن بالله) .

فالله خالق كل شىء وإليـه يرد كل أمر ولايقطع قضاء إلا باذنه (والله فى العقيدة الاسلامية وجود كامل متصف بالحياة والعلم والقوةوالارادة . ولله المثل الأعلى) وليس كمثله شىء ، وهوواجب الوجود ـ والإنسان وفق هذا المفهوم من التوحيد : حر مسئول ، لايقر بالجبرية ولا يقبل بالقدرية .

الثورة الفرنسية

شغلت الثورة الفرنسية حيزا كبيراً فى الفكر الاسـلامى الحديث وعدها كثيرون مصدر النهضة واليقظة فى العالم الاسلامى والأمة العربية ورتبوا على وجودها كل مظاهر التقدم الفكرى والاجتماعى ولم يكن هذا هو الحق بوجه من الوجوه ، فقد بدأت اليقظة فى العالم العربى كحركة طبيعية تلقائية داخلية عرفها التاريخ الاسلامى فى عديد من مراحله ، حيث تنبعث الحركة من الداخل ولكن أصحاب هـذا القول كانوا دائما هم دعاة التغريب وصنائع المستشرقين والمبشرين والعاملين على محاولة صبغ اليقظة العربية الاسلامية الحديثة بطابع غربى بينما تتسم هذه اليقظة بعروبية وإسلامية المصادر والبواعث والمراحل المختلفة .

والثورة الفرنسية حركة غربية مرتبطة بالمجتمع الإوربى ولها بواعثها التى من أهمها : محاولة حصول طبقات معينة من المجتمع كانت معزولة عن الحياة على حقها فى الحرية والعمل والمشاركة فى النشاط السياسى وأهم هـذه الطبقات هم اليهود وإليهم يعزى قيام هذه الثورة :

ويمكن القول بان الثورة الفرنسية كانت بمثابة رد الفعل الذى واجه الفكر الغربى فى العصر الحديث بعد إتصاله بالفـكر الاسلامى فان الحرية والاخاء والمساواة وهى شعارات الثورة إنما أستمدت أساسا من الاسلام وهى حلقه من الحلقات المتصلة بتأثيرات الاسلام فى الفكر الغربى والمجتمع الاوربى والتى بدأت بحركة لوثر وكالفن وقد تمثلت فى أولا : إلغاء الوساطة بين الله والناس ثم تمثلت فى الثورة الفرنسية ثم فى الدعوة إلى إلغاء نفوذ الإشراف ورجال الدين ومحو الفوارق بين الطبقات .

وقد أشارت إلى هذا المعنى واكدته ابحاث كثيرة ، مالت الى الاعتقاد بان الثورة الفرنسية بروحها كانت وليدة التعاليم الاسلاميه والتراث العربى .

فى القرن الثامن عشر كانت الثقافة الاسلامية قد أثرت إلى حد كبير فى أذهان مفكرى أوربا وادبائها والفرنسين منهم خاصة . وكانت كلمات عمر بن الخطاب من مثل قوله « متى أستعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً ، هى الأصل فى رجال الثورة الفرنسية « يولد الناس ويعيشون أحراراً متساوين فى الحقوق، وقد ثبت أطلاع مفكرى فرنسا وفلاسفتها على التراث الاسلامى أطلاعا كبيراً يقطع بهذه الصلة التى لاريب فيها وهى أنهم تأثروا بما وقفوا عليه من مفاهيم الاسلام فى الحكم والشورى والعدل والمساواة .

ويتصل بهذا ماذكره رئيف خورى فى كتابه عن الثورة الفرنسية نقلا عن رفاعة الطهطاوى حيث يقول : وقرأت جزأين من كتـــاب روح الشرائع لمؤلفه مونتسكيو ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجى ، فرسسكو إذن أطلع أطلاعا مؤكدا على آراء فيلسوفنا الاجتماعى أبن خلدون فما الذى يمنع أن يكون روسو وسواه من مواطنه قد أطلعوا أيضا على الشىء أكثر من التراث الاسلامى .

ويقول « أوليس من المعجب أن يستعمل المفكر الفرنسى روسو كلمة جارية أبن قدامه « عهدا وميثاقا » فى جبين كتابه الذى كان إنجيل الثورة الفرنسية كما لقبوه، أو ليس المعجب أن نقول جارية للخليفة: (أعطينا عهدا وميثاقاوأعطيناك سمعا وطاعة فان وفيت لنا وفينا لك وأن نزعت إلى غير ذلك فاننا تركنا وراءنا رجالا أشداداً والسنة حدادا) وفى هذه الكلمات المعدودات زبدة المساوتى التى أرتكزت عليها الثورة الفرنسية .

ومعنى هذا أن الفرنسى الحديث تتلمذ على المسلم العربى القديم ، ومن غرسك أن إطلاع فلاسفة فرنسا وكتابها على الفكر الاسلامى قد خلق فيهم أستعداداً نفسيا كبيرا للثورة ـ هذا هو الواقع الذى أنكره كتابنا العرب والمسلمون حين كتبوا عن الثورة الفرنسية وصوروها على انها كانت بعيدة الأثر فى الفكر العربى الاسلامى دون أن يذكروا أنها استمدت وجودها منه أصلا ،ومن الحق أن يقال أن كتابات أدبائنا عن الثورة الفرنسية إنما كانت تحاول أن تصور عظمة فرنسا وتاخر العرب والمسلمين لتلقى ظلا من التبعية والاعجاب بالغرب والولاء الفكرى

والسياسى دون أن يعرف هؤلاء أبعاد الهدف الذى اتخذوا مخدوعين كمخالب قطط له ، ذلك الهدف هو أعطاء الثورة الفرنسية مسحة قداسة حتى تخفى بواعثها الحقيقية التى كان من ورائها اليهود .

ذلك أن ماحققته الثورة الفرنسية باعتراف قطب من كتاب فرنسا هو جوستاف لوبون « كانْ سيتحقق طبيعياً دون قيام هذه الثورة » ولكن الهدف من الثورة فى تقديرنا إنما كان فى أن يصل اليهود إلى مقاليد الإدوار السياسية ومكان الصدارة ليس فى فرنسا وحدها فى أوروبا جميعا . وإذا كانت مبادىء الثورة الفرنسية كانت ذات أثر فى العالم الاسلامى فان هذه المبادىء أساسا هى بضاعة الاسلام والعرب ولاضير من أن ترد إليهم ، هذا مع التأكيد الواضح على أن ميثاقا لحقوق الإنسان قد وقعه أمراء المماليك فى مصر للشعب بقيادة علمائه عام ١٧٩٧ حيث لم تكن آثار الثورة الفرنسية قد وصلت إلى الشرق وقبل وصول الحملة الفرنسية مما يؤكد أن يقظة الشرق ونهضته إنما كانت مستمدة من أعماقه وأن الاحتكاك الغربى قد وسع الجوانب ولكنه لم يكن المصدر الأول ولا الباعث الاسبق أو الوحيد .

الجرح والتعديل

كان من أعظم ماقصد إليه مفكرو الاسلام فى سبيل توثيق «النص» وحمايته من هجوم خصوم الاسلام والغزو الفكرى هو أنشاء علم الجرح والتعديل أو علم أسماء الرجال وهو ميزان دقيق يكشف خصائص الباحثين والثقاة بصفاتهم ويجعل من سواهم موضع الشك والريبة ومن ثم فلا يؤخذ العلم منهم .

وقد وصف الدكتور أسبرنجر هذا العلم بقوله :

لم تعرف أمة فى التاريخ ولاتوجد الآن على ظهر الأرض أمة دققت لإختراع فن اسماء الرجال الذى نستطيع بفضله أن نقف على ترجمة خمسمائة ألف (نصف مليون) من الرجال المسلمين . وقد إلتزم المحدثون الصدق والصراحة فى دراسة هؤلاء الرجال وجميع مايتصل بهم ومايدل على تفوقهم ويقظتهم وأحتياطهم وتساهلهم .

ويمكن أن يسمى هذا العلم بعلم «الكشف عن الشبهات» التى يدسها اعداء الفكر الاسلامى وخصومه ، والتى تحمل أحيانا طابعا بارعاً وظاهراً مقبولا وصياغة براقة ربما خفيت على البسطاء والغافلين عن خطر من لبسوا ثوب الاسلام وعملوا على هدمه من الداخل من اتباع المجوسية والباطنية والديانات القديمة والفلسفات الغنوصية والوثنية .

ومن هنا فقد حرص مفكرو الاسلام على وضع قواعد عامة لعلم الكشف عن الشبهات من شأنها أن تكشف هؤلاء الخصوم وأن ترد الناس إلى الحقيقة وأن تقيم حصانة دائمة ويقظة مستمرة إزاء مثل هذه المحاولات فى مواجهة هذه الشبهات .

وقد أصبح هذا المنهج الذى أصطنعه رجال الحديث من بعد ضروريا فى مختلف مجالات الحياة الفكرية العربية الاسلامية وذلك للكشف عن حقائق الامور فى حياة الباحثين والمفكرين ومعرفة اتجاهاتهم وهوياتهم وطوابعهم .

وقد وجه علم الجرح والتعديل إهتمامه إلى عدة عناصر هامة فى هذا المجال منها :

أولا — لابد من معرفة تاريخ الرجال وأهوائهم قبل معرفة أقوال الرجال .

ثانياً — لابد من إلقاء نظرة شاملة على الأمور ، لانظرة جزئية .

ثالثاً — كل قول يؤخذ منه ويترك إلا قول الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم .

رابعاً — العلم والمعرفة ملك للناس جميعا ، أما الفكر والثقافة فرتبطان بالعقول والأرواح ولكل فكر قيمه وأسسه ومفاهيمه .

خامساً — يرفض قول أصحاب البدع والأهواء .

سادساً — لابد من وجود مطابقة اخلاقية كاملة بين حياة كل باحث مفكر وبين فكره .

سابعاً — لايقبل رأى من لاتتوفرفيهم الثقة الأخلاقيةوالعدالة والكرامه .

وإذا نحن راجعنا تاريخ الفكر الاسلامى وتطوره وجدناه قد واجة نوعين من التحدى .

(النوع الأول) : التطور الانسانى فى قطاعه الأفقى والرأسى (١) الأفقى مع تغير الأزمنة (٢) والرأسى مع اختلاف البيئات .

(النوع الثانى) : يتمثل فى التحديات الخارجية المتمثلة فى الفلسفات والاديان والمذاهب القديمة التى تحاول فرض مفاهيمها وتقاليدها . وقد حاولت هذه التحديات هدم أو تدمير مقومات الفكر الاسلامى ، وقد تمثلت هذه التحديات فى دعوات أو حركات مختلفة : كالراوندية والبابكية والخرمية والمقنعة والباطنية وغيرها .

وقد أثارت هذه الفرق عديدا من الشبهات والقضايا التى نقلتها من الاديان والفلسفات القديمة : كالمجوسية والزرادشتية والمانوية والمزدكية ، وذلك لمحاولة

تغيير جوهر الفكر الاسلامى وتحويله عن قيمه الأساسية ، وقد أنصبت هذه التحويات على تحريف مفهوم التوحيد والنبوه وما وراء المادة والبعث والجزاء واثارت إلى جانب ذلك دعوات إلى الالحاد والاباحة ، كما أثارت دعوات إلى الوثنية والتعطيل . كما أثارت قضية ظاهر الكلمات وباطنها وذلك بقصد قطع الصلة بين المعانى والكلمات والباس العقائد الوثنية ثيابا اسلامية تهدف إلى زعزعة إيمان الناس فى الاسلام وأعادة بعث دياناتهم القديمة وإدخالها فى الاسلام .

وقد استطاع المفكرون المسلمون عن طريق علم الكشف عن الشبهات دحض كل هذه المفتريات بعد كشفها وكشف الدعاة عنها ومن ثم فشلت هذه الدعوة كما فشلت دعوات كثيرة من قبلها ومن بعدها .

الجبرية

حاول كتاب التغريب وصف الاسلام بالجبرية لموقفه من قضية القضاء والقدر ، وفى ظل مرحلة الضعف التى مرت بالعالم الاسلامى ، هذه المرحلة التى يحاول خصوم الاسلام عزو أسبابها الى الاسلام ، والواقع أن مفهوم القضاء والقدر مفهوم إيجابى بناء وقد كان مصدر انتصار المسلمين وقوتهم ، وكان قوة دافعة فى حياتهم فهو الذى حرضهم على أن يهبوا أرواحهم خالصة لله فلا يخشون الموت . ولقد فرق المسلمون دواما بين التوكل على الله مع العمل والحركة وبين التواكل ولقد كانت الشبهة التى يثيرها خصوم الاسلام دواما تتركز فى القضاء على هذا الفرق الواضح .

ومن هنا كان « أصطلاح » الجبرية التى أريد به أقرار مفهوم التواكل والاستسلام للاقدار وهو غير ماعرفه الاسلام .

وقد انتشرت فكرة الجبرية فى القرون الأخيرة السابقة لحركة اليقظة الاسلامية المصدر ، نتيجة لانتشار مفهوم خاطىء جاء فى أطواء التصوف حين تأثر بالمذاهب الاغريقية والغنوصية الشرقية فيما يتصل بالقول بوحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من المفاهيم البعيدة عن جوهر الاسلام المطبوع أساساً بطابع الوحدانية الخالص .

وذلك فقد كانت أولى بواعث حركة اليقظة الاسلامية التى إنبثقت من الجزيرة العربية والأزهر قائمة على التوحيد وفى مواجهة خطر الجبرية التى ليست من أصول الاسلام . وإنما جاءت انحرافا عن مفهوم الاسلام الصحيح وأطلق على دعوات التواكل والاستسلام للاقدار على النحو الذى خلق شبهات عديدة حول موقف الاسلام الواضح إزاء العمل والمسئولية الفردية التى هى عماد مفهوم الاسلام .

ومن الحق أن يقال أنه ليس فى مفهوم القدر الاسلامى مايميت شجاعة المسلم أو يؤدى إلى فتور همته ، وأن هذا القدر مرادف لسنة الكون التى تهيمن على جميع أعمال الناس وقد اكد القرآن حرية الإنسان وتأثير إرادته فى عمل الخير والشر .

الجهـاد

الجهاد فريضة من فرائض الاسلام الأساسية : تعنى حماية الفكرة والأمة من عدوان المعتدى، والتأهب الدائم والاستعداد المتصل بحماية النفوس وإعدادها وحماية الثغور وحراستها ، وليس هو بمفهوم القتال والحرب إلا فى حالة واحدة هى العدوان .

وتتمثل فى آى القرآن الواضحة « وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عـدو الله وعدوكم » فهو ليس قتالا ولا يـكون أبدآ عدوانا وإنما هو أرهاب وأشعار باليقظة الدئمة « ود الذين كفروا لوتغفلون عن اسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » و « الجهاد » هو الركن السادس للاسلام فقد أمر الشارع بالجهاد صونا لـكيان الأمة الاسلامية من أن الاعتداء الخارجى وحفظا لحدود الدول الاسلامية من أن يخترقها العدو ، وقـد أجمع الائمة على أنه فرض كفاية يجب على أهل كل ثغر أن يقاتـلوا من يليهيم من العدو فان عجزوا ساعدهم من يليهم من المسلمين .

ولـكن كلمة « الجهاد » فى دراسات المستشرقين والمبشرين قـد لقيت عنتـا شديدآ وأثيرت حولها الشبهات المختلفة ، وحوربت أعنف الحروب ، وكانت آيات الجهاد فى القرآن تلقى من الاستعمار والتبشير ومازال تلقى حربا عنيفة ، فقد كانت الدعوة إلى جهـاد المستعمر عن طريق مفاهيم الاسلام من أخطر الأسلحة التى قاومت بهـا الأمة العربيـة النفوذ الأجنبى ، حتى لقد حرم المحتلون الفرنسيون فى الجزائر تدريس (الجهاد) فى آيات القرآن أو فى أبواب الفقه .

وقد أتسع هذا المفهوم المنحرف فى الهند، فقامت دعوات أبدها الاستعمار تفسر القرآن تفسيرآ جديدا يؤول فيه مفهوم الجهاد بما لايناقض الوجود الاستعمارى البريطانى غير أن أقطاب الاسلام ما لبثوا أن كشفوا هذه الخدعة .

الحرية

للحرية فى كل فلسفة مفهوم . ولها فى الفكر العربى الاسلامى أو فى مفهوم وأعمق مضمون، فهى الحرية بمعناها الشامل القائم على حماية حريات الآخرين وعلى تقدير التبعة إلى جوار تقدير الحرية . وهى بمفهوم الشريعة الاسلامية ، والقدرة على عمل كل شيء لايضر بالغير ، والحرية حريات :

(١) فالحرية ضد الرق ، فلا يكون الإنسان - رجلا أو امرأة ، مسترقا أومملوكا لغيره ، ولا تكون الأمة محتلة أو مستعبدة بل تملك حريتها :

(٢) الحرية هى حق الدفاع عن النفس أمام القضاء (٣)حرية الرأى هى حق التفكير والحكم على الاشياء .

(٤) الحرية فى التعليم فى مواجهة الجهل ، والحرية فى التعليم حق للرجل والمرأة

(٥) الحرية فى الاعتقاد والحرية فى القول .

(٦) حرية التملك ، وشريطة هذه الحريات كلها فى الاسلام أن لايكون فيها طغيان على حريات الآخرين ، وقد كفل الاسلام حرية العقيدة (لا إكراه فى الدين) ودعا إلى تحرير الفرد فكريا وتحريره من الرق الاجتماعى فوسع مناقد العتق والحرية وحصر الرق فى أضيق نطاق ، محاولا تصفيته على التدريج .

واعتمد كرامة الإنسان قائمة على أساس الإخوة ، وجعل الاسلام الحرية السياسية قائمة على الشورى وجماع نظرة الفكر الاسلامى فى الحرية هى أن الناس جميعا ولدوا أحراراً ، لافضل لعربى على عجمى ولا لأسود على أبيض إلا بالعمل النافع ، وما يراه فلاسفة اليسار من أن الحرية هى إلغاء استغلال الإنسان للإنسان هى جانب من جوانب مفهوم الحرية فى الاسلام ولكنها ليست الحرية كلها ، ومايراه بعض فلاسفة الغرب من أطلاق الحرية بغير حدود فلا يقبله الفكر الاسلامى لانه يراه دعوة إلى تحطيم قيم المجتمع التى تحميها الحرية .

ومفهوم التوحيد فى الاسلام هو أعلى مفاهيم الحرية حيث تتحرر النفس

الإنسانية والعقل الانسانى من قيود الوثنية وعبادة الفرد والعبودية لغير الاله الواحد الأكبر ، وقد القت دعوة التوحيد أمام الانسانية الضوء الصادق لحررتها من كل قيود العبودية : عبودية العقل والنفس وخلصتها من عبادة ما غير الله وفتحت الطريق أمامها إلى فهم الحقائق الكبرى .

فالحرية فى مفهوم الاسلام هى ضد العبودية والرق والوثنية والظلم ، وهى حرية الفرد والمجتمع جميعا ، ليست حرية المجتمع على حساب الفرد ولا حرية الفرد الممتاز على حساب المجتمع والجماهير ، وهى حرية الفكر المنطلق فى طريق الحق ، إلى الاجتهاد والابداع والتجديد ، له أجر إذا خطأ وأجرين إذا أصاب ، وهى حرية المتدين حيث « لا اكراه » ، والعقل هو المنطلق والبرهان هو أداه الجدل والحوار ، وكل مسلم يعود إلى الحق متى تبين له ، حتى الرسول نفسه وهو المعصوم يقبل الحق ويعود إليه ولا يرى فى ذلك ضيراً فالحق أحق أن يتبع .

والاسلام ينعى على الذين يستخدمون الحرية من أجل الغرض الخاص ، أو الغايات الفردية ، وينعى على الذين يتبعون الرأى من غير أن يعرفوا ادلته ووجه الحق فيه ، ويأخذ عليهم أن يتمسكوا بالباطل متى استبان لهم الحق .

والاسلام أول من دعا إلى الحرية بمعنى التحرر من قيد الجهل والخرافة والتقليد فى فهم الظواهر والأحداث .

حرية الفكر

هناك قضية تثار بين آن وآخر يرددها بعض الكتاب ، هي أن حرية الفكر وجدت اضطهاداً خلال العصور المختلفة وفي مجال الاديان والأمم المختلفة . وأن مفكرين لقوا حتفهم من أجل حرية الفكر أو قول الكلمة. وهذا القول على اطلاقه لايمثل الحق، وإنما يستهدف اتهام المجتمع الاسلامي بانه عجز عن حماية المفكرين ، وأن شأنه في ذلك هو شأن المجتمع الأوربي وأنه خاصم حرية الفكر وارتكب من أجلها الاضطهاد والقتل، ويضعون أمثال السهروردي والحلاج في مجال القتل وابن رشد في مجال المضطهدين، والحق أن حرية الفكر لم تكن مصدر اضطهاد أو قتل في الاسلام على أي نحو من الانحاء أو وجه من الوجوه، وأن هنـاك فارقا بعيدا بين ماواجه جاليلو وسقراط وغيره من مفكري أوربا وما واجه أمثال الحلاج وابن رشد .

أن الكنيسة والدين الغربي قد ضاق بحرية الفكر وبالكشوف العلمية وضاق بمخالفيه فأقام لهم محاكم التفتيش ومذبحة بارتلمي وعقد عديدا من المحاكمات هذا معروف وثابت بوافع التاريخ، ليس هناك مجال لانكاره، أما في مجـــال الاسلام والمجتمع الاسلامي فلم يضار مسلم واحد مهما بلغ من حرية الفكر واطلاق الكلمة.

وأن الذين عوقبوا لم تكن الكلمة هي سبب عقوبتهم ولكنه كان التصرف الخاطيء ، ولولا ثبوت اليقين باتصال السهروري والحلاج باعداء المسلمين محرضين أو متآمرين ، لما كانت محاكمتهم ، وأن الكلمة وحدها لم تكن مصدر أضطهاد ، فقد بلغ غيرهم من حرية الفكر ماهو أشد جراة دون أن يمسهم أذى من أمثال ابن عربي وأبي العلاء المعري، ولكن الاتهام بالنسبة للسهروردي والحلاج كان واضحا واكيداً فليست الكلمة هي التي قتلتهم ولكنها المؤامرة ، ولقد كان الاسلام سمحا في حرية الفكر التي كانت اساسا من أسسه وقاعدة من قواعده ، ومنها أستطاع العلماء المسلمون أن يصدروا في دراسة الفكر اليوناني والرومانى والفارسي والهندى وأن يصهروا ما قبلوه منه وفق مفهوم التوحيد ، وأن يرفضوا ما يعارضه . ولقد أطلق الاسلام

لدعاة الاديان الدفاع عن عقائدهم وسمح لهم بالسجال والجدل فى حرية كاملة كما حفظ لهم حرية العقيده وحرية العبادة .

فاذا ذكر أبن رشد فان تحريق مؤلفاته لم يكن خصومه للفكر نفسه ، ولكن الخصومة الشخصية بينـه وبين وبين أمير الاندلس هى التى جرت عليه عقوبته واضطهاده ، فلما زالت أسباب الخصومة عادت لابن رشد ولمؤلفاته مكانها فى نفس حياة ذلك الامير ومجتمعه ، ولم يكن الامر فى هذا كله متصل باراء ابن رشد ولا بحرية الفكر نفسها من قريب أو من بعيد (١) .

وعلى الجملة فان المسلمين لم يضطهدوا أحداً ولم يسفكوا دم أحد عقابا له على الاشتغال بالعلم أو الفلسفة ، حيث لا اكراه فى الدين ، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وقد انتفى القتال بين المسلمين من أجل الاعتقاد ، كما عمد المسلمون إلى التساهل مع أهل العلم والنظر من كل ملة ، وحيث لم يسمع فى تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين أو الاشاعره والمعتزلة كما حدث بين البروتستانت والكاثوليك فى تاريخ أوربا ، وما كان يقع فى القسطنطينية من سفك الدماء بين الارثوذكس والكاثوليك فى عهد القياصرة الرومانيين . بل أن أبو العلاء المعرى قال مالم يقل بمثله فولتير وروسو ، أو مات مع ذلك على فراشه ، ولم يرد فى التاريخ الاسلامى علماء يحرقون لاجل معتقداتهم وهم على قيد الحياة كما صنع الاوربيون فى ديوان التفتيش فى أسبانيا ، وقد جاء ذلك نتيجه لتقدير المسلمين للعلم ولاحترامهم للاخاء الدينى أشد احترام ، وهم لا يكفرون من أقر بالتوحيد وأن اختلف فى الرأى والفروع .

وحرية الفكر فى الاسلام إنما هى حرية شاملة ، تشمل المسلم وغير المسلم ، وهى مطلقة خالصة لوجه الحق وحده ، فالمفكر المسلم يقول الحق ولو على أقرب الناس إليه وينصف من هو أهل للانصاف ولو كان من غير ملته ، وغير هذا مفهوم حرية الفكر فى الغرب بشهادة جوستاف لوبون نفسه : الذى يقول : أن حرية الفكر فى الغرب تختفى لدى الاوربى عندما يمتد بحثه إلى فكر العالم الاسلامى ، فان

(١) راجع فصل ابن رشد فى آخر هذا الكتاب .

المفهوم الصليبي العميق الأثر فى النفس الأوربية يحول دون الانصاف .

ومفهوم حرية الفكر فى الاسلام إنما يهدف إلى تحرير الإنسان من رق التقليد الأعمى وتربيته على استقلال الإرادة واحتقار التقليد والتبعية العمياء ، وتحريره من عبادة الأهواء ودعوته إلى الاقتناع بالدليل ، تحريره من الجهل والظن .

وقد نهى الاسلام عن التقليد الذى يقوم على العصبية الوراثية والنعرة الطائفية.

الخطيئة

«الخطيئة الاصلية» مصطلح غربى مسيحى ، له أبعاده فى الفكر الغربى ، ويعنى مايسمونه الخطيئة التى ارتكبها آدم وورثها عنه البشر وترتب عليها فى تقديرهم مادعى بصلب المسيح فداءاً للبشر وتكفيرا لهذه الخطيئة .

وقد كان هذا الاتجاه مفهوما جديدا فى المسيحية أعلنه أحد مفكرى المسيحية بعد المسيح (بولس) وأقرته المجامع وأصبح جزءا من الفكر المسيحى والاوربى جميعاً وقامت من أجله معارك عديدة فى عصر النهضة الاوربية ، وأصبح من بعد له تأثير كبير فى الفكر الغربى وفى عقلية الاوربيين ، ويعد فى نظر بعض المؤرخين مصدراً لنشوء كثير من المدارس الإلحادية ، وقد تغلغل الصراع من أجل هذه الفكرة فى الآدب الغربى والفلسفة الغربية ، وفى كثير من النظريات السياسية الاوربية .

أما الفكر الاسلامى فان هذا الاصطلاح لايمثل شيئا معينا ، ومفهوم الاسلام كما أوردة القرآن بالنسبة لآدم وعيسى واضح فليس فى عمل آدم ما يعد خطيئة عامة شاملة للإنسانية كلها ، وإنما يقرر القرآن أن آدم عصا ربه فغوى ، ثم تاب عليه ربه فهدى ، والاسـلام بذلك يقرر عدم وراثة الخطيئة ، ويعتبر أن كل أمرىء بما كسب رهين ،

وألفاظ الصلب والخلاص والفداء والخطيئة ألفاظ ذات دلالة واضحة فى الفكر الغربى المسيحى ، ترتبط بهذا المعنى ، ولكنها لاتحمل مثل هذه الدلالات فى الفكر الاسلامى وليس لها تاريخ أو أثر ، والفكر الاسلامى يكشف فى هذا عن استقلاليته عن التأثر بما هو خارج عن عقيدته .

الدولة الثيوقراطية

من الأخطاء التى ينسبها الغربيون للإسلام اتهامه بأنه أقام الدولة الثيوقراطية أو يدعو إلى إقامتها ، وتعنى الدولة الثيوقراطية : الحكومة الدينية فى المجتمع الغربى، ومن الحقائق الواضحة الأكيدة أن الإسلام لم يقم الدولة الثيوقراطية على المفهوم الذى عرفه البابوات فى حكوماتهم ، والدولة فى المفهوم الاسلامى تجعل جميع المواطنين متساوون أمام القانون فى الحقوق والواجبات ولكل مواطن الحق فى ارتقاء أعلى المناصب ماعدا منصب الرئيس ، وحرية العبادة فى الدولة الإسلامية مكفولة لجميع المواطنين ، والمبادىء الاجتماعية فى الدستور الأساسى توافق جميع الديانات وان احتوى بنوداً تشجع نمو العقيدة الإسلامية دونما تمييز للمسلمين عن سواهم بمنافع خاصة ، والإسلام أسلوب صالح للحياة الكريمة تسوده الإصالة ويتفوق فيه الجوهر على المظهر .

ومفهوم الدولة الثيوقراطية (أى الدولة الدينية) لايقوم فى العالم الاسلامى قط ، إن الاسلام ليس عباده وتدين ولكنه أسلوب صالح للحياة الكريمة تسوده الإصالة ويتفوق فيه الجوهر على المظاهر . والدولة الثيوقراطية التى يتولى أمرها رجال الدين على المعنى المتعارف عليه فى الغرب لاتوجد فى الاسلام وشريعته السمحاء لاتقر وجود مايسمى رجل الدين ، والعلمانية والثيوقراطية لا وجود لها فى الاسلام حيث فى الدول الاسلامية يتساوى المواطنون أمام القانون فى الحقوق والواجبات وحيث حرية العبادة مكفولة لجميع المواطنين على السواء .

ومن هنا فان مارردده دعاة التغريب من وصف الحكومة الاسلامية بالدولة الثيوقراطية ليس صحيحا على اطلاقه ، حيث لاتوجد فى الاسلام سلطة للكهانة

ولم تكن يوما أداة من أدوات الأستبداد على نمط الحكومات الثيوقراطية التى عرفت فى أوربا . وليس فى التوحيد بين السلطتين الدينية والدينوية فى الاسلام ما يؤدى الى شىء من التضارب ، فليس الاسلام حقائق روحية خالصة ، ذلك فيه ولكنه حقائق روحية ونفسية وإجتماعية .

رجل الدين

كلمة « رجل الدين » كلمة غربيه وافدة يحاول الكتاب والمفكرون أن يطلقوها على العلماء المتخصصين فى دراسات العقائد والفقه والشريعه والتفسير ، والذين تكون دراساتهم فى الأغلب مستمدة من المعاهد الاسلامية الخالصة : كالأزهر والزيتونة والقرويين، والواقع أن الاسلام لايعترف بطبقة معينة يمكن أن تسمى رجال الدين لها نظام خاص ، أو حقوق معينة ، أو نفوذ من أى نوع، ولكن هنالك علماء متخصصون فى الدراسات الاسلامية والدينية .

ورجل الدين فى الفرنسين يوصف بأنه (Relig u ienx) ومعنى هذا الوصف أنه لايصلح لفهم أمور المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس .

وقد جاء هذا المفهوم فى الفكر الغربى نتيجة للتحديات التى واجهها الدين فى أوربا ، فى صراع الكنيسة مع العلم ، مما دعا العلماء والباحثين أن يضعوا الدين موضع الخصومة العنيفة ، حتى أن جميع الفلسفات النفسية والإجتماعية تهاجم الدين وهى لاتقصد إلا مفهوم الدين فى المجتمع الغربى وليس المسيحية المنزلة .

ومن هنا كان اتهام رجل الدين بانه منفصل عن المجتمع . أما فى الاسلام فان عالم الدين(وليس رجل الدين) ، له خبرة عميقة بالمجتمع وادواته ، ذلك لأن الاسلام دين وزيادة ، فهو ليس قاصراً على العلاقة بين الإنسان والله بل شاملا للعلاقة بين الناس والمجتمع .

العلم والدين

أن كل مايقال عن الصراع بين العلم والدين يقصد به الصراع بين العلم التجريبي والمسيحية الغربية ، أما بالنسبة للفكر الاسلامي فليس هناك صراع أو معضلة ما ، فقد ربط الاسلام بينه وبين العلم، بروابط عميقة ، والاسلام هو الذى دعا إلى حرية البحث وصراحة التفكير والتسامح الدينى ، فلم يناهض الاسلام العلم ، بل فى احضانه تكامل الدين والعلم ، فالاسلام كما يقرر المثل الأعلى لقواعد الإيمان يقرر المثل الأعلى لقواعد العمل ، ويربط بين العلم والعمل ، والاسلام لايقرر ماليس عليه دليل وبرهان ، ولايقرر المفاهيم والافكار بمعزل عن العمل والتطبيق وإنما يرى المفاهيم والافكار مقدمات دافعة لبناء حياة كاملة .

والعلم فى مفهوم الاسلام هو العلم المطلق ، وليس العلم الدينى وحدة ولكن كل مايتصل بالعلم من كيمياء وفلك وتكنولوجيا وقد أطلق الاسلام كلمة العلم على كل نوع منه ولم يقصرها على نوع معين منه ، وقد وردت مادة العلم فى القرآن بصورة تدعو إلى الكشف والنظر وتكررت ٨٦٠ مرة ومادة البيان وردت ٥٢٣ مرة ومادة الكتابة ٢٢٠ مرة، ومادة القراءة ٢٨ مرة ومادة الرأى ٣٣١ مرة ومادة السمع ١٨٥ مرة ، ومادة البصر ١٤٨ ومادة النظر ١٣٠ مرة، ومادة العقل ٤٩ مرة ومادة الفؤاد والقلب ١٩٤ مرة .

وأول كلمة نزلت من القرآن هى « أقرا » وأول قسم فى القرآن كله، اقسم به الله سبحانه فى ثانى آية نزلت بعد الأمر بالقراءة صدر بحروف من حروف الهجاء وكان بالقلم وما يسطر العالمون « ن والقلم وما يسطرون »

ونقول مع الأستاذ عبد العزيز جاويش أنهم إذا تحدثوا عن تاريخ النزاع بين العلم والدين فانما يأخذونه من غير تاريخنا وإذا ذكروا وضع السلطة بين أيدى رجال الدين فأنما يكلمون عن محيط غير محيطنا وماض غير ماضينا .

وليس فى تاريخ الاسلام أو الفكر الاسلامى مايشير إلى أن هناك مناهضة بين العلم والدين وقعت ، أو أن الدين ناهض العلم ، أن علماء الغرب وجدوا فى كتبهم الدينية المقدسة ما يتعارض مع كشوفهم العلمية فخالفوها ، أما القرآن وهو كتاب المسلمين المقدس فليس فيه ما يخالف أو يختلف أو يتعارض مع رأى من أراء العلم والعلماء ، بل على العكس من ذلك أن كثيراً من النظريات العلمية الحديثة لها مدلول فى القرآن .

والدين بمفهوم العقائد له مجاله واسلوبه فى المعرفة ، والعلم بمفهوم الكشف عن الطبيعة له مجاله وأسلوبه ولكن الاسلام يجمعهما معا ولا يجد هناك تعارض حيث يجمع الاسلام فى منهج المعرفة بين أسلوب العقل وأسلوب القلب معا .

والاسلام هو الذى دفع المسلمين إلى ابتداع المنهج العلمى التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الحديثة .

العقل العربى

جرى دعاة التغريب على أثارة الشبهات حول العقل العربى، وإتهامه بالقصور ضمن نظرية السامية والارية التى تحاول أن تعلى من شأن العقل الاوربى والغربى وهى إحدى النظريات التى يتخذها الاستعمار لتبرير وجوده ، ولخلق جو من التقدير والأعلاء للعقل الأوربى .

أما العقل العربى فى ميزان الإنصاف فانه يختلف عن العقل الغربى ، إذ يجمع بين الاضداد والأشباه فيربط بينها فى انسجام ، دون أن تتصارع أو تختلف، بينما يعجز العقل الغربى عن مثل هذا التوحيد ولايرى الأشيئا واحداً وضده ،

ومرجع ذلك أن الاسلام يقوم على التكامل والوسطية ، فيجمع بين الدين والدنيا ، والعقل والقلب والعلم والدين ، والروح والمادة .

ومن هنا كانت استطاعة العقل العربى توحيد الاضداد فى انسجام : المسجد والقصروالسدوالمصنع ، كما جمع بين العقل والطبيعة وبين الحكمة والشريعة .

والعقل فى مفهوم الفكر الاسلامى أساس ضخم ولكنه وحده عاجز عن أن يصل إلى كل الصواب وللمعرفة فى الفكر الاسلامى طريقان يجريان معاً . العقل والقلب ، أما الإيمان التقليدى الموروث فهو مرفوض قطعاً ،والعقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ولا كاشف للغطاء فى جميع المعضلات ، وإن هناك حقائق لايدركها إلا القلب .

والعقل فى تقدير علماء المسلمين نور فى القلب يعرف الحق من الباطل والخير من الشر والحسن من القبيح ، وقد حدد الامام الغزالى حدود نطاق العقل وانكر الاعتماد عليه كلية فى إدراك الامور الالهية ، وقد كان هذا المفهوم الاسلامى هو الذى جاوز بالفكر الاسلامى مرحلة الغيبيات وأطل على التجربة حين انشأ المذهب العلمى التجريبى . فالمسلمون هم الذين وضعوا قاعدة:(جرب واحكم) فى مجال الطب والفلك والهندسة والكيمياء .

العروبة والاسلام

من اكثر المحاولات التغريبية خطرا ، تلك المحاولة التى تريد أن تصفى العروبة من مفهوم الاسلام وتفصل بين الاسلام والعروبة وذلك فى نطاق النظرية التى تقول بأن الدين ليس مقوما من مقومات الدعوات القومية وكيفما يكون الرأى فى هذه النظرية فان الاسلام ليس دينا بمفهوم اللاهوت القائم على العلاقة بين الله والإنسان وإنما الاسلام إلى جوار ذلك منهج حيـــاة ونظام مجتمع وثقافة وحضارة .

ومن هنا فان علاقة الاسلام بالقومية، أو علاقة الاسلام بالعروبة هى علاقة عميقة الجذور بعيدة المدى حيث أرتبط منذ طويل أرتباطا عضويا ،وما مقومات القومية من لغة وتاريخ فى مجال العروبة والاسلام يمكن الفصل فيمــا بينها فاللغة والتاريخ العربيين مرتبطين بالاسلام ارتباطا شـــاملا متصلا على مدى القرون الاربعة عشر وليس هذا قولنا وانما هو قول بعض العلمانيين والتغريبين حيث لا مفر من الاعتراف به ، يقول دكتور نبيه أمين فارس : أن تشابك الاسلام والعربية فى التاريخ تشابكا عضويا متفاعلا حيث لا مجال إلى فصل الواحدة عن الاخرى ، وهل كانت النهضة العربية الحديثة إلا تياراً من النهضة الاسلامية فى القرن التاسع عشر هذا بالاضافة إلى تشابك المفاهيم القومية والاسلامية وقوة النزعة الاسلامية فى الجماهير .

ولقد كان مفهوم الوحدة العربية مفهوما اسلامى الجذور منذ بدأت حركة اليقظة ، ولم يكن فى الامكان غير ذلك ، غير أن الدعوة التغريبية ومحاولة القضاء على أصالة الفكر الاسلامى والثقافة العربية كانت دائما تحاول أن تفرغ مفهوم القومية العربية من الاسلام وتجعله علمانيا خالصا مجرداً بينما لم تستطع القوميات فى الغرب أن تنفصل عن مفاهيم المسيحية الغربيه التى هى بطبيعتها ليست إلا دينا لاهوتيا خالصا،وقدجرت هذه المحاولة فى الحركة الطورانية ، وفى العالم العربى حاولت بعض أحزاب الحركة العربية أن تتبنى هذا المفهوم فى محاولة خلق

قومية عربية علمانية على الطراز الذى عرفته تركيا من طريق الاتحاديين والماسونية ومن هنا فقد كانت ازمة الوحدة العربية هى ذلك الجفاء بين الواقع وبين النظرية المستوردة التى لو صلحت للتطبيق فى بيئات الغرب فهى لا تصلح للتطبيق فى بيئة الفكر الاسلامى والثقافة العربية : وفى هذا المعنى يقول (عيسى البندك) وهو مسيحى يفهم أعماق الروابط والعلاقات بين الاسلام والعروبة : « أن العربى مسلما أو مسيحيا يرتبط بالاسلام والعربية : اللغة التى يتكلم بها والاخلاق التى يتخلق بها والتقاليد التى يزاولها ، وما يعتز به من أباء وشهامة ومروءة « أننا نؤمن إيمانا قاطعاً بان كيان النصارى العرب جزء من كيان أخو انهم المسلمين » . ويقول دكتور محمود عزمى : الاســـلام مبدأ يخضع له جميع العاملين فى الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى بلادنا مهما كانت عقيدتهم

« عقيدة المسلمين أو المسيحيين أو اليهود ونحلهم والملحدين ذلك أن بلادنا قد غمرتها « الاسلامية » بالمعنى الذى نفهمه » ويقول دكتور السنهورى أنه فى الاسلام الى جانب الدين توجد المدنية والذين يؤمنون بتعاليم الدين هم المسلمون ، أما الذين ينتمون إلى الثقافة الاسلامية فهم أولئك الذين يضمهم هذا الوطن الاسلامى الكبير على مختلف أديانهم ومذاهبهم وجنسياتهم ونحلهم ليس المسلمون هم أصحاب الفكر الاسلامى ولكن كل من استظل براية الاسلام وانتمى إلى الثقافة الاسلامية ولو كان غير مسلم »

العصرية

من الكلمات التى تتردد كثيرا كلمات العصرنه، والحداثه ، وهما بمعنى واحد، وتتجه فى الغالب إلى مجرى الدعوة القائلة بتطور كل شىء ، والتى تحاول أن تشق طريقها إلى مجال الأديان وخاصة الاسلام غافلة عن أن الفكر الاسلامى يؤمن بالثبات والتطور معا: لا بالتطور المطلق، الثبات للقيم الأساسية العقائدية والتشريعية والاخلاقية ثم التطور فى التفاصيل والمسائل الفرعية بما يتفق مع العصور والبيئات وتحاول شبهات التغريب أن ترمى الاسلام وفكره بالتأخر نتيجة لهذا المفهوم بينما هو فى نظر العقل الراجح اسمى مايمكن التوصل إليه فى سبيل موازنة نواميس الفكر والمجتمع والحياة .

وهناك أصوات تقول بالدعوة إلى عصرنة الاسلام أى وضعه فى مجال التطور وهو مايستحيل على الفكر الاسلامى تقبله فى مجال القيم الثابته .

فالعصرية فكرة تغريبية خطيرة يراد بها لوى أعناق الأصول الاسلامية لتبرير الواقع الحضارى القائم بما فيه من مخالفات ومعارضات لمفهوم الاسلام أو مفهوم الدين عامة ، وتجرى هذه المحاولة عن طريق مايطلق عليه « التأويل »

فالعصرنة هى محاولة فرض مبادىء وأهداف غربية تحاول احتواء الفكر الاسلامى وجعله خاضعا للواقع الغربى فى قيمه ومذاهبه وفلسفاته ، فى تجاهل مابين الفكرين الاسلامى والغربى من خلاف وتباين عميق فى قضايا كثيرة وأنه لاسبيل للعصرنة إلا بان يخضع الفكر الاسلامى للفكر الغربى ويتقبل اطاره وقيمه وهو مالا يمكن أن يحدث ومن الاستحالة أن يقع ، فالفكر الاسلامى باصوله القائمة على التوحيد كان دائما قادراً على أن يتقبل من الفكر البشرى ويترك ، ولكنه لم يكن فى وقت من الاوقات - حتى فى احلك فترات ضعفه - بحيث يمكن أن ينصهر أو يخضع أو يفقد مقوماته ، وقد استطاعت الفلسفة اليونانية أن تحتوى الديانة والفكر اليهودى ، ثم احتوت الديانة والفكر المسيحى ولكنها عجزت عن أن

تحتوى الفكر الأسلامى، الذى تأثر بها وأخذ منها ورفض ، واستطاع بعدصراع طويل أن يتحرر منها وأن يقيم منطقة ومقوماته مستمداً أصول ذلك كله من القرآن نفسه .

وإذا وقف الاسلام موقف الثبات أمام محاولة أحتوائه أو صهره، كان ذلك معناه فى نظر دعاة التغريب : الرجعية أو التعصب وهى عبارات لايستطيع الخوف منها أن يذل الأسلام وفكره للسيطرة الغربية ، وقد أيد كثير من المفكرين الغربين أن الأسلام والفكر الاسلامى والتاريخ الاسلامى واللغة العربية لا يمكن تفسيره فى ضوء المذاهب الغربية العلمانية والمادية .

أما إذا كانت العصرنه بمعنى دفع الاسلام والفكر الأسلامى والثقافة العربية إلى مواجهة الحياة العصرية والإلتقاء بالحضارة وبالفكر البشرى أخذاً وعطاءاً ، فان ذلك أمر لم يتأخر عنه الفكر الأسلامى يوما فقد كان دائما فكرا مفتوحا قادراً على الأخذ والعطاء ،وأن له من جوانبه المتطورة مايمكنه من الالتقاء بمختلف النظريات الحديثة البناءه التقدمية كما أنه قادر على أن يكتشف لهذه النظريات جذوراً فى اعماقه وفى قيمه الأساسية ، ولم يكن الفكر الأسلامى بقيم الثبات فيه بعاجز يوما عن التطور والحركة والتقدم، بل أن هذه القيم الأساسية من عقيدة وشريعة واخلاق ، كانت هى أقوى الحوافز لأعطاء الحضارة قيمة انسانية أعلى أعلى من مفهومها المادى الخالص. ولكن الإسلام ليس من شأنه أن يبرر انحراف الفكر الغربى أو الحضارة الغربية القائمة أو يقبل من مفاهيمها مايختلف مع جوهر التوحيد. أو يتعارض مع أصوله القائمة على دحض الربا والاباحة والالحاد والوثنية .

لقد أستطاع الفكر الاسلامى أن يتحرر من أعظم قيود الفكر الغربى وهى قيود الوثنيـــة والعبودية لغير الله وحده وبذلك أطلق مفاهيم الحرية والعدالة والأخاء والمساواة التى عجزت الحضاره الغربية والفكر الغربى المعاصر عن وضع حلول لها فباتت وهى معضلة العصر وازمة الإنسان،هذا فضلاعن أن جمع الإسلام بين الروح والمادة ،والعقل والقلب، والدنيا والآخرة ،قد أعطاه قيما عقليه ونفسية وسعت مجاله إنسانية وسماحته وقضت على كثير من الصراعات والأزمات وخاصة أزمات القلق والضياع التى يعانى منها الفكر الغربى، هذا فضلا عن أن التراث الاسلامى العربى ليس تراثا منفصلا أو بحداً أو متحفيا ،بل هو ميراث ملىء بالحيوية لم يتوقف عن التفاعل فى المجتمع الاسلامى والفكر الاسلامى خلال أربعة عشر قرنا كاملة

دون انفصال أو توقف وهو تراث بنـاء تقدمى ، ما تزال مفاهيمة قادرة على أعطاء البشرية خير ماتحتاج إليه .

وليس فى مفهوم الفكر الاسلامى ـ استمداداً من مقوماته وقرانينه التى تعطيه القدرة على التجدد من الداخل ـ ليس فيه جمود أو وثنية أو انحرافا أو صراعا وماتزال القيمة الأساسية للفكر الاسلامى حية متفاعلة قادرة على العطاء .

العصور الوسطى

ما تزال كلمة العصور الوسطى فى إطلاقها تعنى الفترة ما بين القرن الخامس الميلادى والقرن الخامس عشر الميلادى أيضا وهى الفترة التى سقطت فيها الحضارة الرومانية خلال عشرة قرون كاملة إلى أن بدأت حركة النهضة الأوربية (الرينسانس) وتحاول كتب الغرب أن تصف هذه الفترة بالعصور المظلمة وهذا المفهوم صحيح وصادق بالنسبة لأوربا ولكنه كاذب ومضلل بالنسبة للعالم كله وللفكر البشرى عامة . ذلك أنه خلال هذه الفترة ظهر الاسلام فى القرن السادس الميلادى وأشرقت شمسه فعمت العالم كله وامتدت من حدود الصين شرق إلى حدود فرنسا وقدمت للانسانية مجدداً قيم التوحيد والعدل والاخاء. كمقومات لحضارة إنسانية كانت بعيدة المدى والأثر فى الحضارة البشرية وفى النهضة التى بزغت فى أوربا بعد ذلك .

لذلك فان أطلاق القول بان فترة العصور الوسطى كانت فترة ظلام دامس، هو قول باطل، وهى محاولة لتجاهل العصر الاسلامى الزاهر، وذلك وفق أتجاه الفكر الغربى الذى يحاول أن يربط بين الحضارة الرومانية المنهارة وبين الحضارة الاوربية الجديدة كانما ليس فى العالم إلا أوربا وحدها .

ولذلك فان أطلاق كلمة العصور الوسطى على العالم كله إنما هو أطلاق ظالم ، فالعصور الوسطى المظلمة إنما كانت كذلك بالنسبة للغرب وحده ، ولكنها كانت مضيئة مشرقة بالنسبة للعالم الاسلامى (الهند وفارس والأمة العربية والاندلس).

وتعبير العصور الوسطى تعبير غربى ينطبق على أوربا وحدها فقد سقطت هذه القارة فى الظلمات فترة ما بين سقوط الحضارة الرومانية وعصر الرنيسانس (النهضة) أما فى العالم الاسلامى فان هذه الفترة بالذات كانت الفترة الذهبية بالنسبة للاسلام وحضارته .

فاذا أراد دعاة التغريب تعميم هذا المفهوم فانما يراد به انكار فضل الحضارة الاسلامية على العالم .

عصر الانحطاط

حاول التغريب والفكر الاستعمارى الغربى أن يصف مرحلة القرون الثلاثة السابقة للقرن العشرين بانها عصر الإنحطاط ،وهو تعبير قاس ظالم، وكان يمكن أن يطلق عليه عصر الضعف والتخلف ولقد تجرى الشبهات باتخاذ إنتاج هذه المرحلة أسلوبا لمحاكمة الاسلام به، أو اتخاذه سندا لرمى الاسلام وفكره بالقصور والتخلف خاصة فيما يتعلق بظاهرة « الجبرية » التى سادت مفهوم الصوفية وأثرت على مفاهيم الحياة والارادة الإنسانية ومن الحق أن يقال أن هذه المرحلة لها وجوه ضعفها ولها وجوه قوتها .

أما وجوه الضعف فهى تأثر الفكر الاسلامى بالفلسفات الهندية والفارسية والمجوسية التى حملت مفاهيم معقدة مضطربة كوحدة الوجود والحلول والاتحاد وغيرها من المذاهب التى لاتتفق مع جوهر التوحيد ؛

والمفروض أن يحاكم الفكر الاسلامى إلى أصوله الاولى والى أنتاج أعلامه الرواد، ولايحاكم إلى انتاج فترة الضعف والجمود التى توقف فيها الابداع والتجديد والاجتهاد غلب طابع التقليد .

فالفكر الاسلامى فى جوهره الاصيل مازال مضيئا إيجابيا مؤثرا معطيا للامم المختلفة والعصور المتعددة دفعات التقدم والبناء والحيوية .

أما وجوه القوة فهى تتمثل فى عملية «التجميع» التى قام بها المفكرون حيث ظهرت فى هذه الفترة الموسوعات الادبية والفنية والعقائدية المختلفة التى جمعت الآثار المختلفة الموزعة، وهى عملية رد فعل لما حدث نتيجة الغزو الصليبى والتترى من حرق وتدمير آثار الفكر العربى الاسلامى فقد عمد العلماء والأدباء إلى عملية التجميع كوسيلة لمقاومة فناء الفكر الاسلامى وهو عمل نافع إيجابى يدل على القوة لا على الضعف وأن وجه إليه النقد بانه لم يحرر من وجهة التنسيق الفنى أو التحقيق العلمى ولكن التقدير المنصف لأخطار هذه الفترة وظروفها من شأنه أن ينصف العاملين فى هذه المرحلة ويقدر لهم هذا الجهد على أطلاقه .

علة تأخر المسلمين

تعددت أبحاث المفكرين المسلمين فى السنوات الاخيرة حول «علة» تأخر المسلمين وتعددت ارائهم فى ذلك، ولكنها أجمعت على شيء واحد، ذلك هو أن للمسلمين منهجا فكريا واجتماعيا استمدوه من القرآن الكريم وأن هذا المنهج هو سر نجاحهم وظفرهم واتساع ملكهم، وفيه تكمن قوتهم الحقيقية.

ويدور هذا المنهج حول التوحيد، والعدل، والإعداد بالقوة يرهبون بها خصومهم، وبالجهاد يوجهون به من يعتدى عليهم. مع الاستمساك بالحق، ودون الاعتماد على مشورة الغير، والنهى عن إتخاذ بطانة من غيرهم، ولقد مضى المسلمون على هذا النهج فانتصروا وعزوا، فلما انصرفوا عنه وقصروا فيه ذلوا وضعفوا وكلما عادوا إليه عادت إليهم العزة والسيادة.

واليوم وهم يراجعون أنفسهم فى ظل تحديات الاستعمار والغزو السياسى والاجتماعى والثقافى، يتقدم إليهم كثيرون من غيرهم يناصحونهم بالباطل، ويكتمون عنهم سر قوتهم ويردونهم عن طريقهم، بل ربما ذهب هؤلاء الخصوم إلى اتهام الاسلام نفسه بانه هو مصدر ضعف المسلمين.

وربما قام هذا الاتهام على النظر فى واقع المسلمين اليوم وهو ليس من الإسلام فى شيء، وربما كان هذا الاتهام تعصبا وضغنا على العرب والمسلمين حتى لايعودوا إلى مصادر قوتهم، وليس من شك أن الإسلام محجوب اليوم بالمسلمين وإن ما يحياه المسلمون اليوم ليس هو الاسلام ولكنه التقليد والمتابعة، فالمغلوب مولع دائما فى الاقتداء بالغالب، ولكن المسلمين لم يقبلوا التبعية، وأكدوا رفضهم لها أيا كان مصدرها وهم الآن على أبواب الرشد الفكرى، وقد جربوا مذاهب الغرب التى فرضها عليهم نفوذه فلم يحقق لهم النصر أو السيادة، وهم لابد عائدون إلى قيمهم ومفاهيمهم الأصلية يستمدون منها وسائلهم فى مقاومة الغزاة وإقامة الحق.

الغيبيات

هناك عالمان : عالم الشهادة المكشوف الواضح الذى نراه بالعين وندرسه بالعقل والتجربة من خلال الانابيق والمعايير العلميه وهو ما يسمونه المحسوس . وهناك عالم الغيب الخفى الذى لا نعرفه بالعلم ولكن بالوحى والايمان والبصيرة . وهدتنا إليه أديان السماء ، وقد جرت بعض الفلسفات منذ قديم إلى إنكار عالم الغيب والطعن فى وجوده ، ومن ثم فهى تشك فى الألوهية والنبوة والوحى والأديان والكتب ، ومن ثم تشك أيضاً فى البعث والجزاء .

وقد كان العلم يجرى مع الفلسفة فى هذا الطريق إلى أن تحطمت الذرة ، وتبين أن مفاهيم الذرة كلها تتصل بالضوء والنور ، وهما من عالم الغيب ، فآب العلم أو أوشك إلى اليقين وبقيت الفلسفة المادية تثير الشكوك والشبهات من أجل إقرار مفاهيم هدامة ترمى بها إلى تدمير المجتمعات وسيطرة نفوذ الاستعمار والصهيونية .

وإذا كان الانسان روح ومادة ، فلا بد أن يكون جامعاً للغيب والشهادة فى تركيبه وكيانه ، ولما كان الانسان هو سيد الكائنات تحت حكم الله فقد أوتى العقل وعلى أساسه تقوم المسئولية الفردية والتبعة الأخلاقية ، ومن ثم فان الدنيا ليست هى الحياة ، والموت ليس هو نهاية الحياة ، ولما كانت التبعة مسئولية فقد كان لها جزاء ، ومن هنا يتقرر البعث والحساب والجنة والنار .

أن النفس الانسانية فى فطرتها تؤمن بالدين وتؤمن بالقوة العليا القائمة وراء الحياة الطبيعة ، هذه القوة الممثلة فى الله الواحد الأحد ، الذى أرسل رسله بالهدى ودين الحق .

ذلك هو الغيب الذى لا يختلف فيه العلم والذى تعارضه الفلسفة المادية ، لانها تدعو إلى هدف واضح خطير ، ولا تعتمد على أسلوب المعرفة الحقة القائم على العقل والوجدان .

الفلكلور

كانت الدعوة إلى (الفلكلور) فى السنوات الأخيرة تستمد وجودها من الإيمان بالتراث الشعبى ، تراث الأمم القديم الذى يعطى صورة نفسيتها ومزاجها وطوابعها الاجتماعية . غير أن الدعوة إلى الفلكلور قد شابتها أهداف وغايات انحرفت بها عن هدفها النبيل وغايتها الحقة . فقد اتخذت وسيلة لإذاعة العاميات وجمع الأزجال والمواويل والأمثلة العامية على نحو أراد به دعاة التغريب والغزو الثقافى أن يثبتوا أن العامية ليست لهجة ولكنها لغة ، واتخذوا من ذلك سلاحا لمعارضة الفصحى وإضعافها وتغليب العاميات عليها .

ولقد بدأت حركة الفلكلور على أيدى المبشرين ودعاة التغريب الذين حملوا لواء الدعوة إلى العامية واللغة المحكية فى محاولة لاقصاء الفصحى: لغة القرآن عن مكان الصدارة ، وتعزيز العامية فى كل قطر وبلد ، مستهدفين تفكيك وحدة الأمة العربية وأبعادها عن مستوى بلاغة القرآن وآدابه .

كما عمدت دعوة الفلكلور إلى استحياء الماضى القديم الوثنى البائد ، من وراء عصر الإسلام ، فهى قد ارتبطت بالفرعونية فى مصر ، وبالفينيقية فى لبنان وكانت تحاول بذلك إحياء قيم ماتت وانتهت ، وتقاليد ومظاهر وأعياد عرفتها الامه العربية فى وثنيتها ثم تحررت منها مع ظهور الإسلام ، ولم تعد مرة أخرى إليها ، وقد جاءها الإسلام بالتوحيد الخاص فقضى على هذه الحضريات القديمة البائدة التى تتعارض اليوم مع الثقافة والقيم جميعاً .

ولقد جرى الفلكلور اليوم فى مجارى ثلاث كلها بعيدة عن جوهر ذاتية الأمة ومزاجها النفسى ، إما بإحياء الوثنيات الفرعونية أو العادات الجاهلية العربية أو الوثنيات الاغريقية . وهذه الثلاث لا تتصل مطلقاً بحقيقة الامه العربية التى تحررت منذ خمسة عشر قرناً من هذه الطقوس والوثنيات .

الفكر أم العنصر

فى العصر الحديث علا صوت العناصر والأجناس والعروق والدماء ، وجرت الدعوة إلى القوميات ، وكانت أوربا هى التى فتحت هذا الطريق حين خرجت من نفوذ الكنيسة إلى القوميات المختلفة .

ولقد كانت الدعوة إلى الوحدة العربيه دعوة مختلفة عن ذلك تماماً ، متحررة من طابع الاقلية أو التعصب للجنس أو إقامة حوا‍ ا‍لخصومة والخلاف مع القوميات الأخرى على النحو الذى شهدته أوربا فى صر القومى .

ذلك أن الأمم العربية والفارسية والتركية والهندية ، قد جمعتها إلى أحقاب طويلة ، وحدة فكر ، أساسها الإسلام ومادتها القرآن وقوامها اللغة العربيه التى حملت الفكر الاسلامى إلى العالمين .

وقد كان هذا الفكر إسلاميا ولم يكن عنصرياً ، استمد وجوده من واقع المسلمين ومن تلك البوتقة الروحية والنفسية التى انصهرت فيها الأجناس جميعاً وتوحدت على تعاليم واحدة قوامها الاسلام والنبوة والعدل والتوحيد .

ومن هنا فان ذلك التساؤل الذى يثار فى باب الشبهات بين حين وحين حين يقال : حضارة عربية أم حضارة إسلاميه ، وفكر عربى ام فكر إسلامى ، أو أن الغزالى كان فارسياً والفارابى كان تركياً والكندى كان عربياً أو ابن اخلدون كان مغربياً ، فالحقيقة أن هؤلاء جيعاً لم يكونوا يصدرون عن عنصر أو دم أو جنس حين كتبوا ذلك الفكر . وإنما كانوا منصهرين فى بوتقة الفكر الذى صنعه الاسلام وقام عليه القرآن والذى لم يكن به شبهه من شبهات العصبية أو العرق . وإنما كان استمداداً من مفهوم التوحيد والعدل الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة .

القيم

تعبير حديث مشتق من قيم الشيء ، ومن القيمة ، وهو اصطلاح اقتصادى ولكنه عمم فأصبح يعنى الأسس التى يستند إليها فى كل ما تصدر الأمم والأفراد من أقوال وأفعال، وهو يستعمل بمعنى المعيار الذى يقاس به الجهد الإنسانى فى أى زمان ومكان ، تقاس به القيم الاساسية : روحية ومادية ، أو عقلية ونفسية ،أو أخلاقية وأباحية ، والقيم الآن هى مجال الصراع بين الحضارات والثقافات المختلفة ، فالحضارة الإسلامية والثقافة العربية تؤمن بالقيم الإنسانية المتكاملة فى مجال الروح والمادة بينما تحاول النظريات المستحدثة أن تقصر القيم على الجوانب المادية والعقلية فى مجال الإطلاق والاباحة وذلك بدعوى أن العصر والحداثة كلها أصبحت تلقى ظلا على القيم الأخلاقية والروحية ومن الحق أن يقال أن القيم تتبع الإنسان نفسه فإذا كان الإنسان روح وعقل ، ومادة ونفس ، فان القيم تكون كذلك ، وما دام الانسان لا يمكن أن يكون مادة خالصة فكذلك القيم التى ترتبط بوجوده وكيانه .

أن مفهوم التقدم ومفهوم الحضارة من شأنه أن يصرف عن الانسان كل مايحطم شخصيته ، أو يدمر كيانه وأن يحرره من ربقة الخرافات وسيطرة الجهل، أما مفهوم المذاهب المدمرة التى أخذت تسيطر على الفكر الغربى فى السنوات الأخيرة سواء فى مجال علم النفس ، أو فى مجال مفاهيم التربية أو فى مجال الفلسفات فانما هى ثمرة المجتمع الغربى نفسه ، ولها امتداداتها للفلسفات اليونانية والوثنيات الاغريقيه والقيم الهيلسنيه التى تستهدف التحرر من قيود الأخلاق والانطلاق فى عبادة الأجساد .

وهذه المفاهيم غريبة كل الغرابة على الفكر الاسلامى والثقافة العربية ولذلك فانها حين تحاول أن تغزو قيمنا تجد صعوبة بالغة فى تقبلها لأنها تتعارض مع قيمنا الاساسية ومكونات شخصيتنا وجوهر روحنا ومزاجنا وطبيعتنا .

وإذا كانت للثقافات الغربية قد عزلت الدين عن منهج حياتها وفكرها

ومجتمعها بعد أن وجدته معوقا لها عن الحرية أو النهضة أو الحركة فان الأمر يختلف بالنسبة لعالمنا وأمتنا ، حيث يعترف الاسلام بالنزعات البشرية وفى مقدمتها الجنس ويعالجها علاج المواجهة والصراحة ولا يقمعها قمعاً ، ولا يطلقها إطلاقاً :

وحين يقع (الغرب: فكره ومجتمعه) فى صراع بين الفردية والجماعية يقف الفكر الاسلامى موقف التكامل والتوازن بين الفردية والجماعية جامعاً بينهما .

فالدين فى مفهوم الفكر الاسلامى ليس قيمة رجعية أو متخلفة أو جامدة ، ولكنها قيمة حيه ذات فاعلية وحاجز نفسى عظيم فى مواجهه أخطار الحياة وتحديات الاباحة وعامل من عوامل التوازن النفسى والتكامل البشرى ، وضوابطه الأخلاقية من أسباب الايجابية والقوة .

فالفكر الاسلامى والثقافة العربية لا ترى رأى الغرب فى أن المادة وحدها هى معيار القيم ، وإنما تراها متصلة بالانسان وجوده وكيانه ، فالانسان هو معيار القيم لا العلم ولا المادة ، والإنسان مادة وروح ، ومن هنا فانها تربط بينهما فى توافق وتناسق وتوازن إيجابى بناء .

ومن حق الفكر الاسلامى أن يرى أن القيم المادية وحدها لاتحقق نمو الشخصية ولا اكتمالها وأن القيم المتكاملة هى العامل الأول فى دفع الأمم إلى النجاح والتقدم .

والقيم فى مفهوم الفكر الاسلامى لا تتصل بالبيئة وحدها ، ولا تتغير بتغير الظروف والبيئات ، وإنما هى قيم ثابتة أساسية مع كل الظروف وقيم أخرى متغيرة مع الأحداث والظروف والبيئات أما القيم الثابتة فهى القيم المتصلة بالعقائد والأخلاق والشرائع وقوامها التوحيد والآخاء والحرية والحق والعدل ، أما ماعدا ذلك من القيم فإنها تخضع للبيئات والزمن ضموراً واتساعاً والقيم فى صميمها إنسانية ودافعة إلى العطاء والرحمة وقد أثيرت شبهات حول مفهوم الفكر الاسلامى للقيم حين وصف بأنه فكر روحى ومن الحق أن يقال أنه فكر (روحى ومادى) وأنه لم يغفل من حسابه المادة بل على العكس أن القيم الدنيوية وطالب الناس بالاقبال عليها

وبين أهمية بناء الحياة والعمران فأمر بالزواج والشراب والزينة والطعام ولكنه طالب فى نفس الوقت بعدم الاسراف فيها والنظر إلى التقدم على أنه ليس تقدماً مادياً شاملا ، وبذلك فإن المادة لا تتقدم القيم الروحية ولا تمحوها .

« وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

بل أن الفكر الإسلامى يسمو بالقيم المادية ويحولها إلى قيم إنسانية متجاوباً مع طبيعة الإنسان التى تتكون من جسم وروح .

ولا شك أن التقسيم الغربى للقيم وإعلاء الماديات منها إنما جاء استمداداً من الفكر اليونانى الذى قسم الناس إلى سادة وعبيد ، والسادة لهم الحكم والرئاسة والعبيد للإنتاج المادى ، وقد عرف الفرس نفس هذا التقسيم حين دانوا بالهين أحدهما للخير والآخر للشر ، وكانت القيم عندهم مرتبطة باللذات والاستجابة للشهوات .

وجاءت المسيحية الغربية معارضة تماماً لليونانية والفارسية حين دعت إلى الزهد واحتقار المادة ، وانصراف الإنسان عن الملذات والعكوف فى الأديرة والتكفير عن ما وصف بأنه خطيئة الإنسان ثم جاء الإسلام فصحح المفاهيم وعدل الموازين حين دعا إلى التوحيد والتقوى والكرامة الإنسانية ونادى بالحرية والعمل ودعا إلى السلام والعدل وجمع بين قوى الدنيا والاخرة ، ووازن وجمع ونسق بين القوى المادية والقيم الروحية فى وحدة تؤدى إلى التوسط والاعتدال فى تحقيق مطالب الجسم ومطالب الروح .

ومن أبرز قيم الاسلام الحرية فى الاختيار وما يتبعها من مسئولية وجزاء ، بما يحقق للإنسان الإرادة المطلقة فى الترجيح بين الشر والخير على النحو الذى يجعله مختاراً مسئولا ، مسئولية حرة ، وهى من أعظم القيم التى تعطى الانسان كفاءة فى الإرادة والتحرر من أغلال الآخرين واستعبادهم له ، فضلا عن تحرره من أسر الشهوات ومن سيطرة المال والجاه والناس جميعاً .

القـــديم

تجرى المحاولات التغريبية إلى دعوتنا ـ نحن وحدنا العرب والمسلمون ـ إلى أزدراء القديم وكراهيته بل ويسارع فيقدم لها الشبهات التى تحمل طابع السخرية والاحتقار لهذا القديم، ولكنه مع الاسف يتناقض مع نفسه فلا يفعل ذلك مع القديم الغربى ، بل على العكس من ذلك فهو يعلى من شأن القديم عنده ، بل ويحاول أن يعلى من شأن هذا القديم الخاص به عندنا فهو يدعونا إلى الأدب الاغريقى ويحيط الدراسات الهلينية بهالة من الفخر ، ويحاول أن يربط بيننا وبين اليونانية واللاتينية ، وتقرر الابحاث والدراسات التاريخية أن الغرب لم يجدد نفسة ولم يدخل عصر النهضة إلا من طريق البعث والاحياء للاغريقيات واللاتينيات . فلما أذن هذا التنكر لتراثنا وقديمنا ، ونحن نؤمن أن أى أمة لاتستطيع أن تدخل عصر النهضة إلا عن أساس أحياء قديمها والارتباط به ، ومن عجب أن الغرب قد أحيا تراثا انفصل عنه ألف سنه ، والصهيونية أحيت لغة أنفصلت عنها ألفى سنة ، ولكن المقاييس تختلف إذا جاءت للحكم على قديمنا وتراثنا الذى لم ينفصل عن أمتنا خلال أربعة عشر قرن متوالية متصلة ، ولنستمع إلى عالم غربى هو كارل بيرسون يتحدث عن القديم :

« أن من أقوى المؤثرات التى تحفظ الثبات الاجتماعى وتحول دون تحلله تلك الصفة التى نبغضها : صفة الجمود على القديم ، لا بل نقول أن العداء الصارخ الذى تقابل به الجماعات الانسانية كل الفكرات الجديدة لمن أخص تلك المؤثرات، وهذه الصفات بمثــابة الكور المتلظية نيرانه ، والتى بدونه لاتستطيع أن تفصل بين المعدن الصحيح والفضلات الزائفة ، وهى التى تحمى الجسم الاجتماعى من أن يترك معرضا لتغيرات تجريبية فجائية غير مقيدة آنا ، أو بالغة أقصى الضرر آنا اخر » .

ويؤكد الباحثون أن الأمم الناهضة توازن بين روح القديم وروح الجديد وتبنى الجديد على أساس من القديم ، وتجدد من القديم ما هو صالح وإيجابى

وترفض من الجديد ماهو غير صالح أو إيجابى أو يتفق مع كيانها ومزاجها وطابعها . وأن الدعوة إلى قطيعة القديم ، كالدعوة إلى تقبل كل جديد ، وكلاهما معارض لناموس الوجود وسنة الحياة التى تبنى الجديد من مادة القديم .

فالتوازن بين القديم والحديث هو طابع النهضة الأصيلة ، فاذا أهمل القديم ضاعت مقومات الأمة وتعرض كيانها للخطر ، واهتزت شخصيتها ، وباتت معرضة لخطر الاحتلال ، وأن كل دعوة إلى أنكار القديم إنما هى دعوة العدو ، والمستعمر ، وكل طابع فى هدم هذه الأمة ، والعمل على إفناء وجودها ، ولوكانت الأمة العربية حرة لاستطاعت أن تقف موقف الأنصاف من تراثها ، ولكنها واقعة تحت عواصف شديدة من الغزو الثقافى ودعوات التغريب المنبعثة من داخل الأمة نفسها ، ومصدرها معاهد الارساليات التبشرية التى تحاول أن تخدم أهداف المستعمر والنفوذ الأجنبى ،

ونحن نحاول أن نجد مثل هذه الدعوة إلى تدمير القديم وسحقه والتشكيك فى أداب الأمم الغربية فلا نجد ، وإنما نجد عكس ذلك ، حرصا شديداً واستماتة فى الربط بين القديم والجديد ، وبين التراث والواقع الحى .

الكتب الصفراء

أطلقت عبارة (الكتب الصفراء) على كتب التراث العربى الإسلامى لأنها كانت مطبوعة فى العصور الأخيرة على الورق ذى اللون الأصفر ، بيد أن هذه التسمية إنما كانت محاولة للسخرية بهذا اللون من الكتب وتحقيراً له ، بينما تمثل الكتب الصفراء عملا مجيداً بالغ الأهمية فى تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الانسانى .

ولقد كانت هذه الكتب الصفراء مصدر تنافس خطير بين الغربيين الذين نقلوها إلى بلادهم وكانت مصدراً للنهضة العلمية والفكرية المعاصرة ، بل لقد بذل المستعمرون منذ وردوا العالم الاسلامى جهودا ضخمة فى الحصول على الوف المخطوطات والكتب المدفونة فى المساجد القديمة ونقلوها حتى عمرت بها مكتبات لندن وباريس وبرلين ولندن .

ولقد جهل المسلمون والعرب قدر هذه الثروة الضخمة وتحاموها فترة طويلة تحت ضغط الدعوات المضللة التى كانت تدعوهم إلى النظر إليها بعين الاحتقار ، إزاء المؤلفات الغربية الحديثة الباهرة المظهر ، ولكنهم عادوا من بعد إلى إيمان عميق بتراثهم وانتقل كثير من أعلامهم إلى خزائن الكتب الغربية يصورون هذه المؤلفات وينقلونها إلى وطنها مرة أخرى .

ولقد حوت هذه الكتب الصفراء درراً من العلم والفكر ، وخاصة كتب الفقهاء التى ضمت عشرات من حلول القضايا والمعضلات وكتب التاريخ التى جمعت مئات المواقف وتراجم الأبطال وكتب الكيمياء والطب والعلوم الطبيعية المختلفة التى قامت عليها نهضة أوربا الحديثة والتى كشفت للغربيين « أصول المنهج العلمى التجريبى الاسلامى » .

وما تزال هذه الكتب الصفراء مرجعاً ثراً للمسلمين والعالم كله ، بما حوت من تراث ضخم حى ، لم يستطع المعاصرون استيعابه والانتفاع به .

كتب المحاضرات

فى فترة من فترات التاريخ الاسلامى ، استشرت كتب المحاضرات التى جمعت ما تجمع لدى العرب والمسلمين من أساطير الأمم السابقة ورواياتها وخرافاتها وشعرها وحكمهاوقد بدأ ذلك على أنه تراث يكشف المسلمين علامات فكرهم الأصيل المستمدمن القرآن والتوحيد ، ويبين الفوارق البعيدة بين التوحيد والوثنية ، وبين العلم القائم على العقل ، وبين الخرافات والأوهام .

غير أنه فى خلال مراحل الضعف التى مرت بتاريخ المسلمين ومع ضغط قوى الغزو الأجنبية من مجوسية وباطنيـة ودعاة الفلسفة اليونانية ، وجمعت هـذه الأساطير والخرافات وشكلت تياراً ليس هو من الفكر الاسلامى الأصيل ولكنه من الدخائل وإضافات التقليد والابتداع .

ولقد حرص كثير من الباحثين المنصفين على الإشارة إلى هـذه الاثار والكشف عن أخطائها وسمومها ، وحذروا من إعتبارها مراجع أصيلة ، أو مصادر سليمة ، غير أنه فى خلال يقظة الفكر العربى الحديث ، لم يلبث دعاة الغزو الثقافى والتغريب أن عملوا على من أحياء هذه الكتب إعادة إذاعتها من جديدووضعها أمام الباحثين على أنها مصادر يرجع اليها . ومن ذلك ألف ليلة والأغانى وكليلة ودمنه ورسائل إخوان الصفا وغيرها ، ولقد اعتمد الدكتور طه حسين فى كثير من مؤلفاته على هذه الكتب وكان من العاملين على إعادة طبعها ونشرها والتعريف بها .

كما عمل على احياء كثير من الأساطير التى أحاطت بالسيرة النبوية وحياة المسلمين فى العصر الأول وضمنها كتابه (على هامش السيرة) ، هذا بالاضافة الى دعواه المبطلة فى القول بان القرن الثانى كان عصر شك ومجون اعتماداً على نصوص استخرجها من كتاب الأغانى الذى لم يكن مؤلفاً ليكون مرجعاً تاريخياً أو علمياً ولكنه كان من أعمال الترف والتسلية فى جمع شعر الأغانى وسير شعراءه .

ولا شك ان الباحث الثبت لا يتخذ من مثل هذه الكتب مراجع أساسية له.

اللاتينيـــة

جرت محاولات كثيرة فى مطالع هذا القرن وفى ظل النفوذ الأجنبى إلى أعلاء شأن اللغة اللاتينية وفرضها للتدريس بجوار اللغة العربية واللغات الحديثة وكذلك إلى توجيه الاهتمام بالأدب اللاتينى القـــديم . والمعروف أن اللغـة اللاتينيه قد هجرها أصحابها منذ وقت بعيد وإنها قد ماتت، ونشأت على أنقاضها اللغات الفرنسية والإيطالية والانجليزية الحديثة التى لا يزيد عمرها على أربعمائة عام .

ولقد حاول كثير من دعاة التغريب عقد المقارنة بين اللغـة العربية واللغـة اللاتينية والعجب من بقاء العربية بينما أنتهت اللاتينية وأنطوت صفحتها ، ولقد جرت المحاولات لاعلاء شأن اللهجات العامية فى العالم العربى كمحاولة للقضاء على اللغة العربية الفصحى « لغـة القرآن » واحلال هذه العاميات مكانها، غير أن هذه المحاولات كلها باءت بالفشل فليست اللغة اللاتينية كاللغة العربيـة ، وإذا كانت اللغة اللاتينية لغة أمة فقد أنتهت بإنتهاء أمتها ، أما العربية فهى لغـة أمة ولغة فكر ، وقد أرتبطت بالقرآن الكريم فأصبحت إلى جانب إنها لغـة العرب الذين يبلغون مائة مليون فانها لغـة المسلمين الذين يبلغون سبعمائة مليونا، فهى لغـة فكرهم ولغة دينهم ولغـة هذا التراث الاسلامى العربى الضخم، الذى لاسبيل للعرب ولا المسلمين إلى الاستغناء عنه .

أما اللغة اللاتينية فإنها لغة تاريخية تدرس اليوم من أجـل أحياء نصوص الآدب اللاتينى القديم، وربما كانت لها أهمية خاصة فى دراسات الجامعات الغربية ولـكن أهميتها فى دراسة الجامعات العربية قليل، ذلك أن الآداب اليونانية واللاتينية تختلف أختلافا واضحا مـع الآداب العربية والاسلامية فى مقاصدها ومقوماتها، ولقد رفض المسلمون فى القديم ترجمة الاداب اللاتينية بينما ترجموا العلوم، ذلك لأن لكل أمة أدبها المستمد من ذاتها والقائم على أساس مزاجها النفسى والاجتماعى . ولقد ترجمت كثير من أثار اللاتينية إلى العربيـة وحرص هؤلاء المترجمون على أذاعتها بكل وسيلة ولـكن الذاتية العربية رفضتها وأحست بالفارق العميق بين طابع النفس العربية القائم على الفطرة والإيمان بالله وبين طابع النفس اللاتينية الوثنى .

اللاهـوت

أطلقت كلمة اللاهوت فى الاصطلاح المستعمل فى الكتابة العربية على مفهوم الدين الغربى، أى فيما تمثل العلاقة بين الله والناس،أو ما يطلق عليه فى مصطلحات الاسلام : العبادات .

ولما كان مفهوم الدين فى الفكر الغربى قائم على هذا الجانب وحده ، فقد وصف بإنه لاهوت، ومن هنا تبدو التفرقة الواضحة بين مفهوم الفكر الاسلامى ومفهوم الفكر الغربى فالاسلام ليس دينا فحسب ، ولكنه دين ونظام مجتمع .

ذلك أن الاسلام لم يفصل بين علاقة الإنسان بربه وعلاقته بالناس والمجتمع بل هما عنصرين متكاملين لا ينفصلان .

أما فى الغرب فقد تلقى الأوربيون الدين المسيحى فى ظروف كانت الأمم قد أقامت مناهجها الاجتماعية على أساس الفلسفة اليونانية الوثنية، والقانون الرومانى ومن هنا فقد تقبلت أوربا دين المسيحية كاطار جامع بين وصايا المسيحية وبين هذين التراثين ، ومن هنا بقى مفهوم الدين فى نظر المفكرين الغربيين قائما فى أساسه على العلاقة بين الله والإنسان، أما فيما يتعلق بالمجتمع فقد آثر الغربيون مناهج اليونان والرومان التى كانت سائدة فعلا .

أما فى العالم الاسلامى فقد بدأ الاسلام ببناء جماعة صاغها على مبادئه وظلت هذه الجماعة تنمو حتى شكلت المجتمع الاسلامى من خلاله مفاهيمه وقيمه ، ومن هنا فقد تكاملت فى مجتمعه عناصر الاسلام عن عقيدة وشريعة واخلاق ، ومن هنا اختلف مفهوم الغرب عن مفهوم الاسلام فى هذا الأمر ، وكان لهذا الخلاف أثره البعيد فى فهم الغربيين للاسلام أو فى محاولة التغريبين تحويل المسلمين عن هذا المفهوم، ودعوتهم إلى قصر الاسلام على الجانب العقائدى أو اللاهوتى وحده وهو مالا يتفق ابدأ مع طبيعة الاسلام نفسه أو تركيب العقل العربى الاسلامى منذ خمسة عشر قرنا .

المنهج العلمى التجريبى

جاء الإسلام ديناً ومنهجاً إجتماعياً ولقد كانت دعوته إلى العلم أبرز مناهجه ، فقد حث المسلمين على النظر فى الكون ، والسعى فى آفاق الأرض ، واستخراج ثمرها ودعا إلى العلم ونادى بالبرهان والدليل ، وأقام الإنسان سيداً على الأرض تحت حكم الله . فكان هذا هو منطلق المسلمين إلى النظر والبحث والعمل .

ومن هنا نشأ منهج المعرفة الإسلامى ذى الجناحين القائم على أساس العقل والبصيرة معاً ،دون فصل أحدهما عن الآخر أو إعلائه ، ومن هنا أخذ المسلمون علوم السابقين جميعاً فنظروا فيها ثم صححوا ما كان فيها من أخطاء وأعادوا صياغة مناهجها بما يتفق مع روح الاسلام وطبيعة المجتمع الاسلامى التى تختلف عن روح اليونان والاغريق الوثنى وعن مجتمـــع الرومان العبودى ومن ثم أنشأ المسلمون منهجهم العلمى التجريبى الذى تخطى المنهج الاغريقى النظرى ، وتقدم فى مجـال الطب والفلك والعلوم الطبيعية والكيمائية على نحو حقق كثيراً من النتائج العلمية .

ثم كان أن تتلمذ الغربيون على هذه المناهج فى جامعات قرطبة وأشبلية ونقلوها إلى أنحاء أوربا ثم سيطر الأوربيون على الأندلس وأخرجوا المسلمين و العرب من أوربا جميعاً ، وإستولوا على هذه المناهج والأبحاث ، ثم امتدت أيديهم حتى حققت ثمرات العلم والحضارة العصرية .

غير أن الغربيين أنكروا فضل العرب والمسلمين على هذا العمل فترة طويلة، وظلوا أكثر من أربعمائة عام يؤكدون أن المسلمين كانوا يعيشون القرون الوسطى، وأنهم لم يكونوا إلا نقلة للفكر اليونانى ، غير أن أصوات منصفة لم تلبث أن ظهرت فى السنوات الأخيرة كشفت عن الحقائق واعترفت بفضل العرب والمسلمين، ليس فى مجال العلم والطب والمنهج التجريبى وحده بل فى مختلف مجالات الفكر العالمى من تاريخ واجتماع وسياسة واقتصاد .

المرأة وتحرير المرأة

كانت الدعوة إلى تحرير المرأة أساساً ثمرة من ثمار الدعوة الاسلامية ، فقد أعطى الاسلام للمرأة حقوقا فى مجال المجتمع والاقتصاد والعلم لم تكن تعرفها أوربا إذ ذاك ، حيث كانت تعقد المؤتمرات فى الغرب للنظر فيما إذا كانت المرأة مخلوقا إنسانياً أم لا ، فى هذه الفترة بالذات كان محمد بن عبد الله ينادى فى قلب الجزيرة العربية بحرية المرأة ومكانتها ويعلن حقوقها الاجتماعية والاقتصادية التى منحها الاسلام .

وقد كتبت المرأة المسلمة فى ظل الاسلام صفحة ناصعة فى مختلف المجالات غير أن مرحلة الضعف والتخلف قد ألقت ظلها على المرأة وعلى المجتمع كله ، فانزوت المرأة ، ثم فرض عليها الجهل والحجاب ، فلما جاء الغرب جعل من بين أهدافه الاستعمارية تدمير الأسرة وإخراج المرأة إلى الحياة وخلق أجواء من الحب والغرام والاثم ومحاولة تحرير المجتمع من قيم الغيرة والعرض والكرامة التى قدمها الاسلام للمرأة .

غير أن الاستعمار لم يكن يستطع أن ينفذ برامجه الاعلى مراحل طويلة ، فكان من أبرز ماعمل لاذاعته : « القصة الغربية الاباحية » فأغرى كثيراً من الكتاب الشوام بترجمة القصة فذاعت ذيوعاً شديداً ودخلت كل بيت وألقت إلى العذارى تلك النشوة الخيالية فى صور من الاباحة والوهم ، فأثارت فى النفوس ثائرة العذرية وألهبت فى المشاعر عواطف الجنس وأغرقت البلاد بالأندية الليلية والراقصات . والخمور وأساليب الدعارة وأباحت البغاء وجعلت له أحياءاً خاصة ودافعت عن وجوده :

ولقد حرص الغيورون على كشف مفاهيم الاسلام فى تحرير المرأة ، هذا الفهم القائم على تعليم المرأة واشتغالها بالأعمال التى تناسب طبيعتها بعد دعم شخصيتها بتربية بيتية قوامها القدوة الصالحة ، وبتعليم متخصص يدرس لها ماتحتاج إليه ولا يشغلها بما يشغل به الصبيان غير أن الاستعمار حال دون ذلك بإفساد التعليم وبإفساد الأسرة نفسها ، ومن هنا فقد كانت استغلت صيحة تحرير المرأة التى نادى بها بعض الكتاب ، فى سبيل لتحقيق أهداف الاستعمار نفسه ، ولقد ركز المبشرون فى تقاريرهم على تعليم المرأة فى مدارس الارساليات الخاصة الداخلية واهتموا بتعليم أبناء السراه والأمراء والقادة وقالت إحدى كبيرات المبشرات أن هذا التعليم هو أقرب طريق لهدم الأسرة المسلمة .

المحـــافظة

وصفت «المحافظة» فى الأدب العربى الحديث بأنها تقف فى مقابل (التجديد)، وكان هذا خطأ مقصوداً ومغالطة تغريبية خالصة، ذلك أن المحافظة ليست جموداً ولا تأخراً ولا رجعية إلى التقليد، ولكنها محاولة لايجاد الترابط الصحيح بين الخطوط المختلفة لشخصية المجتمع والفكر جميعاً.

فإن الدعوة إلى التجديد وحدها إنما تستهدف إخراج الفكر والمجتمع من مقوماتهما الأصيلة بينما الجمود وحده هو دعوة إلى التوقف على النمو وكلاهما ليسا من الخير الذى تترقبه المجتمعات إبان النهضات.

وإنما يقوم النهضات على عوامل مختلفة قوامها المحافظة على القيم الأساسية الثابتة التى بنيت عليها الامة أساسا ثم تفتح الباب للجديد فتنظر فيه فى وعى ورشد، فتأخذ منه ما تراه صالحا لنموها وتجديد حياتها.

ولقد كانت تجارب الآمم جميعا من هذا النوع، ولم نر أمة أصيلة التاريخ عميقة الجذور ذابت فى فكر أمـــة أخرى أو مناهجها وانتقلت كليه إلى الجديد الوافد.

ذلك ان هذا الجديد الوافد إنما يجىء عادة قسراً وفى ظل ظروف القهر والاحتلال، وإن هذا الجديد قد يكون خاصا بأمه وأهله، من نتاج فكرهم وفى مواجهة معضلاتهم، وتحديات مجتمعاتهم. ولذلك فإن أى تجربة من تجارب النهوض فى الاجماع أو السياسة أو الاقتصاد فى أى أمة، لا تكون صالحة للنقل أو الاقتباس من أمة أخرى، شأنها شأن البذور التى قد تنمو فى تربة ولا تنمو فى تربة أخرى.

ولقد كانت الدعوة إلى التجديد واتهام المحافظة، من التحديات التى واجهت مجتمعنا فى ظل النفوذ الأجنبى الذى كان حريصا على أن يخرج هذه الأمة عن مقوماتها وإغراقها بالرأى الجديد الوافد الذى تختلف مع طبيعتها وعقائدها

وذاتيتها ، حتى لقد دعا أحدهم إلى أن نأخذ الحضارة الغربية شرها وخيرها وما يحمد منها وما يعاب ، فإذا تصدى أحد لهؤلاء الغزاة وأعلن أن لهذه الأمة مقوماتها وصف بالمحافظة أو الجمود أو الرجعية ، ثم تحرر الفكر العربي ثمة من هذه الدعوة الضالة حيث تحول بعض هؤلاء الدعاة إلى المحافظة والاعتدال وعرفوا أن قيم الامم عميقة الجذور يستحيل أن تقصف أو تقتل تحت أى تهديد أو إغراء .

المعرفة والعقيدة

كان من أخطر ما واجه الفكر العربى الاسلامى فى مواجهة التغريب والغزو الثقافى : تصبيب المصطلحات وتمويه المفاهيم ووضع الأغشية فى وجه الفوارق بين القيم ، البسطاء حتى يظل السذج على فهم مضلل ، ودون أن يعرفوا الفرق بين كلمة حق وكلمة باطل مموهة لها بريق وخداع .

ومن أخطر هذه المصطلحات محاولة إحلال كلمة «المعرفة» بدلا من كلمة «العقيدة» . فالمعرفة : هى الثقافة العامة والعالمية ، المشاعة للناس جميعا ، والتى تمثل التعريف بأنواع المعارف المنثورة فى الثقافات المتعددة وهذه تختلف اختلافاً واضحا عن العقائد التى تتصل بأمة بذاتها والتى تتشكل من خلال تراث وقيم وتاريخ ودين ، وهى تختلف اختلافا واضحا فى كل أمة عن الأمة الأخرى ، وتختلف بين أمم الشرق والغرب ، وتختلف بين المسلمين وبين غير المسلمين ، وبين العرب والغرب .

ولقد تشكلت الأمم منذ قديم من خلال عقائدها وقيمها ولغاتها ومفاهيمها على نحو جعل لكل منها طابعها المختلف ، فإذا صنفنا هذه الخلافات وصلنا إلى ثلاث جذور هى :

* الأمم الشرقية ذات التراث الروحى الخالص التى تستمد مفاهيمها من آراء بوزا كنفوشيوس والبرهمية وغيرها من العقائد التى تعلى شأن الوجدان والقلب والبصيرة .

* الأمم الغربية ذات التراث اليونانى الاغريقى الرومانى الهلينى الوثنى من آراء سقراط أرسطو وأفلاطون وغيرها من العقائد التى تعلى من شأن عبادة القوة وعبادة الجسد تالية والعقل .

* الأمة الاسلامية ومنها العرب ذات التراث التوحيدى الخالص القائم على منهج متكامل من العقل والبصيرة ، الرابط بين الروح والمادة والدنيا والآخرة ، والعلم والدين . ومن هنا فقد كان من الضرورى لأمتنا وهى مفتوحة النوافذ للمعارف المختلفة والعقائد المختلفة أن تكون على وعى بالفوارق بين المعارف والعقائد ،

المثل الأعلى

يختلف المثل الأعلى فى كل دين وعقيدة وفلسفة ، وقد صورت المسيحية المثل الأعلى فى القديس المتبتل الزاهد الوادع ، ويصور نيتشه « المثل الأعلى » فى السوبرمان الطاغية الانانى المتغطرس المتجبر، أما فى الاسلام فلا نجد المثل الاعلى فى الانسان بل نجده ممثلا فى الله سبحانه وتعالى ، وفيه تعالى يجتمع من الكمالات المطلقة أقصى مايستطيع عقل بشرى أن يتصوره ، ويجد المسلمون فى الله سبحانه وتعالى المثل الاعلى فى صفاته وأسمائه الحسنى «ولله المثل الاعلى » « وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم » .

ويرى الدكتور توفيق الطويل : أنه إذا كانت الرحمة فى المسيحية هى رأس الكمالات والقوة عند نيتشه هى قمة الفضائل ، فقد جمع الله تعالى بين الرحمة والقوة فى تعادل وتوازن فهو قادر منتقم وهو غفور رحيم وصفات القوة والجبروت عنده لا تطغى على صفات الرحمة ، ويقول : إن الله هو المثل الأعلى لكل من آمن بالاسلام فمن اهتدى بهدى الاسلام حق عليه الاقتداء بالله ، ومحاولة الاقتداء بصفاته الحسنى ، أو كما يقول الصوفية من المسلمين : « تحقيق الكمالات الالهية على قدر الطاقة البشرية » ويتجلى المثل الأعلى الاسلامى فى مفهوم السلم والحرب بأجلى صورة فالله سبحانه وتعالى حرم البدء بالعدوان (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) ولكنه أكد رد العدوان (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) .

وهو سبحانه الذى دعا إلى المصابرة والمرابطة : يا أيها الذين آمنوا اصبروا (أى غالبوا الاعداء بالصبر على المكاره فى الحرب) ورابطوا (أى اجتمعوا فى الثغور مترصدين للعدو متأهبين للغزو) ويقول (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوه ومن رباط الخيل أى قلاع وحصون) .

أما فى الغرب فقد أنكر الفلاسفة مفهوم المسيحية للمثل الأعلى، ودعا نيتشه إلى صورة أخرى للمثل الاعلى تتمثل فى الانسان الاعلى : وفى صورة الطاغية المستبد الانانى الجبار الذى يعتصم بالظلم والقسوة والجبروت ويحتقر الصبر والحلم والدعة

يطالب بالقضاء على المرضى والمحتاجين ، ويرد الدكتور توفيق للطويل المثل الاعلى الذى رسمه نيقشه إلى نظرية التطور التى تأثر بها ، وأصر على تطبيق قانونها على الاخلاق ، ودعا إلى ترك المبادىء الخلقية والانصراف عنها ، حتى ينقرض الضعيف ويبقى الاقوى ، وكانت نتيجة التطبيق مروعة ، إذ سرعان ما تحولت به فضائل المسيحية من إحسان وتضحية ، وأصبحت القسوة والظلم والبغى والعدوان ونحوها فضائل تتجلى فيمن أسماه (السوبرمان) وقد قسم نيتشه الاخلاق إلى وأخلاق سادة وأخلاق عبيد ، ووصف المسيحية بأنها أخلاق عبيد ، أما أخلاق سادة فتمثل فى إرادة القوه واحترام الظلم والقسوة والمغامرة .

ويرى الدكتور الطويل أن مرد فلسفة نيتشه إلى رجل مصاب فى جسمه وفى عقله وقد أمضى عمراً من حياته يعانى آلام مرض وراثى فى جسمه ، وفى متاعب صرع أصابه فى عقله مما دعاه إلى التماس مثله الأعلى فى دنيا المغامره واقتحام الاخطار .

ولكن نيقشه انتهى ، ومثله الأعلى لم ينته ، بل يكاد يكون المثل الأعلى للفكر الغربى فى العصر الحديث وبه يتمثل الاستعمار والنفوذ الاجنبى والصهيونية .

ويتصل بالمثل الأعلى الغربى بآراء ميكافيلى ، ومذهبه فى السياسة الذى اعتنقته أوربا حيث يرى أن السياسة لا ترتبط بالضمير ولا بالأخلاق .

منطق أرسطو

سبقت الفلسفة اليونانية الأديان الكبرى الثلاثة ثم كان لها تأثيرها الواضح على الديانة الموسوية ثم أنتقل إلى الديانة المسيحية . فلما ظهر الاسلام وتمت رسالته واكتمل منهجه ، وكانت دعوته إلى التوحيد أمتداداً لمفهوم الاديان المنزلة من عند الله قبل أنحرافها ، بدا هذا التوحيد غريبا بالنسبة لمفاهيم الاديان التي كانت قد اختلطت فيها الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية مع الإديان القديمة كالبوذية والمجوسية وغيرها ومن هنا بدت مفاهيم هذه الاديان متقاربة متشابهة ، وبدأ الاسلام منذ ذلك الوقت وإلى اليوم وكانه يحمل مفاهيم مستقلة تختلف كل الاختلاف فى جوهرها عما وصلت إليه الاديان من تضارب وتحريف.

ولكن الفلسفة اليونانية لم تلبث أن أقتحمت مجال الفكر الاسلامى وأثرت فيه ، فقد أستعان الاسلام بمنطق أرسطو فى فترة من أدق الفترات وفى مواجهة مهاجمات الاديان وصيالها ومساجلاتها ومنه أنطلق علم الكلام للرد على شبهات خصوم الإسلام بنفس منطقهم .

غير أن الفكر الاسلامى لم يلبث أن تحرر من منطق أرسطو، وكشف أعلام هذا الفكر عن منطق للقرآن وكان لابن حزم والغزالى وأبن تيميه أراء واضحة فى هذا المجال ومما ذكره الغزالى أن منهج الكلام مثل الرداء وهو مما يحتاجه الإنسان فى فترة المرض .

أما منهج القرآن فهو مثل الماء والغذاء مما يحتاجه الإنسان فى مختلف فترات حياته. ثم جاء أبن تيميه فالف كتابه الرد على المنطقيين فاشار إلى أن للقرآن منطق خاص يختلف عن منطق أرسطو . وقد كشف أبن تيميه فى منطق أرسطو عن خصائص العقلية اليونانية التى تباين الفكر الاسلامى ويختلف عنه فالعقلية اليونانية تقع تحت الطابع النظرى فى التفكير وتعلى من شأن العلوم النظرية وتراها أشرف من العلوم العملية وتهتم بالجانب الصورى من المنطق دون المادى وتجعل القياس أكثر أنواع الاستدلال يقينا بينما يقرر الاسلام أو ضاع الحياة العلمية ويعتمد

على التجربة ويقول الدكتور النشار : أن العلوم الاسلامية نشأت تبعا لحاجات الحياة بل أن اهتمام الفكر الاسلامى بالحاجات الإنسانية قد دعا الفقهاء فى الاحكام إلى العدول عن قياس الغائب على الشاهد إلى الاستحسان .

ويقول العز بن عبد السلام أن الله شرع لعبادة السعى فى تحصيل مصالح عاجلة وآجلة تجمع كل قاعدة منها علة واحدة ثم استثنى منها مافى ملابساته مشقة شديدة أومفسده تربو على تلك المصالح ، ويعبر عن ذلك بما يخالف القياس وذلك جائز فى العبادات والمعاملات وسائر التصرفات .

ومن هنا فقد ناصر أبن تيميه المنطق المادى وانتقد المنطق الصورى ، وهاجم أفكار الماهيات والكليات وسائر التصورات التى لم تستند إلى وجـــود غيبى ، وبذلك بعد ابن تيميه رائداً لكل الاتجاهات الحديثة فى نقد منطق أرسطو من أرجانون فرنسيس باكون إلى المنطقية الوضعية لدى ستينج وكارناب وغيرهما كما ترك بصمات واضحة فى المنطق المادى لدى بيكون وميل والمنطق السيكولوجى لدى كوزان ثم وقدهاجم أبن تيميه الفلاسفة الذين تشيعوا لمنطق أرسطو أمثال الغزالى وأبن سينا وابن رشد .

وكان منهجه الواضح هو الكشف عن أن هناك مباينة واضحة بين الفكر الاسلامى والفكر اليونانى فى اعمق أعماقه وفى قضاياه الرئيسية .

ويرى أبن تيميه أن التسليم بمنطق اليونان يقوض أساس الحضارة الإسلامية إذ سينتج عن ذلك أحكاماً عامة تهدم ما تبناه المسلمون من أحكام ولا سيما فى نطاق الإلهيات . » فكانت عبقرية ابن تيمية لافى فقد المنطق الارسطاليسى وإنما فى استخلاص منطق بعيد عن خصائص العقلية الاسلامية ويحمل طابع الحضارة فيها .

المسرح والفكر الإسلامى

يتردد القول كثيراً حول المسرح والقصة فى الفكر الإسلامى والأدب العربى .

لماذا لم يظهر المسرح فى الفكر الاسلامى ، والواقع أن ذلك يتفق تماما مع طبيعة النفس العربية الاسلامية بطبيعة تركيبها ومن خلال مزاجها النفسى الذى اتصل بمفهوم الاسلام والقائم على التوحيد فقد تشكلت هذه النفس مطبوعة على الصراحة والوضوح ، وقد فرض عليها ذلك إيمانها بالله ، وجوها الصحراوى الواضح الذى يمتلىء بالضوء منذ الصباح الباكر فاذا أشرقت الشمس عم الكون كله ضياء ونور .

فالنفس العربية واضحة كل الوضوح ، صريحة كل الصراحة لا تحتاج إلى الرموز ولا إلى الإيماءات ولاتجد هناك ما يحول دون أن تقول الكلمة ، وقد أعطاها فكرها الاسلامى هذه القوة وهذا الوضوح ، فضلا عن بساطة العقيدة الاسلامية التى لا تحتاج إلى مسرحية طويلة لتشرحها أو تجلى فى نفوس الناس وعقولهم فلسفتها ،

وبالإضافة إلى ذلك فقد شكل القرآن منهج البلاغة العربية فاقامها على الوضوح والايجاز ، حتى عد أبلغ الكلام هو السهل الممتنع . وقال النبى عن نفسه . أن الحكمة قد اختصرت له اختصاراً وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها : أن النبى لم يكن يسرد كسردكم هذا ولكنها كلمات موجزة .

كل هذه العوامل كانت بعيدة الأثر فى انتفاء الملاحم والأساطير والمسرح عن الأدب العربى والفكر الإسلامى ، فقد كانت هذه الملاحم والأساطير والمسرح نتيجة لطبيعة الأمم التى عرفت هذه الفنون ، فقد اتخذتها وسيلة للافصاح عن فكرها حيث عاشت فى بلاد تميزت بالليل الطويل والظلام والغيوم

والسحب ، وعرفت بالجبال العالية والبحار العميقة ، وما يتصل بذلك من مخاوف كانت تملأ قلوب سكان تلك البلاد ومن هنا نشأت الأساطير والقصص الخرافية ، وكانت الفلسفة الوثنية تحتاج إلى تفسير وإيضاح ، ومن هنا كان الرمز فى التعبير وكان المسرح للتوضيح فكيف يوجد هذا فى بيئة تختلف كل الاختلاف ، ولا تحتاج إلى مثل هذه الوسائل لايضاح فكرها أو تبليغ كلمتها .

ولقد رأى العرب الشعر اليونانى والقصة اليونانية إبان حركة الترجمة التلقائية فأعرضوا عنها لأنها كانت مليئة بالوثنيات والأساطير وكانت متعارضة مع ذاتيتهم وعقائدهم ، أما ترجمتها اليوم فان ذلك لم يكن بارادة الفكر الاسلامى ، ولكن مما فرض عليه ومع ذلك لم يسغها ولم يتقبلها .

القرآن والأدب

جرت محاولات فى دراسات الأدب العربى خلال الثلاثينات ، كانت تستهدف وضع القرآن الكريم موضع النقد وتعتبره أثراً أدبياً يمكن أن يجرى عليه ما يجرى على أى قصيدة شعرية أو قطعة بلاغية .

ولقد أخطأت هذه الدعوة طريقها ، لأنها اعتبرت القرآن كتاباً موضوعا ، كتبه محمد ، بينما القرآن ليس كذلك ، فهو من آى الله المنزلة من السماء وليس من صياغة بشر ، ولذلك فان وضعه موضع النقد ليس بالأمر الصحيح علمياً حيث تناقش آثار الأدباء والكتاب .

ولقد أجرى الغربيون نفس المراجعات على التوراة والكتب الدينية ، غير أنهم أكدوا بطريقة حاسمة قبل أن يقوموا بهذا العمل أن هذه الكتب ليست سماوية ولا منزلة ، وأنها محررة باقلام بشر ، وقد بلغوا فى ذلك مبلغاً بعيداً من التحقيق فذكروا أسماء الكتاب الذين شاركوا فى كتابة هذه الكتب ، ومن ثم فقد اعتبروها تراثاً أدبياً قابلا للمراجعة والنظر وأخضعوها لقواعد النقد الأدبى .

ولكن الذين حاولوا مثل هذه المحاولة فى الأدب العربى كانوا يعرفون أن القرآن نص سماوى موثق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه ظل محفوظاً دون أن يطرأ عليه ما طرأ على الكتب الدينية الأخرى ولذلك فقد كانت محاولتهم أخضاع القرآن لمثل ما أخضعت له الكتب الأخرى فى الغرب ، كان جرأة ومجازفه وخروجا على مناهج البحث العلمى نفسه .

غير أن النظر فى الدوافع والخلفيات يكشف عن أن هذه المحاولة لم تكن خالصة لوجه البحث العلمى ولكنها كانت ضمن مخطط تغريبى يرمى إلى إخراج شباب المسلمين الذين يتعلمون فى الجامعات من قدسيه النص القرآنى ، وخلق أحساس بالاستهانة به والنظر إليه على أنه كتاب أدبى خالص ، وقد جاء ذلك فى غيبه التربية الاسلامية الصحيحة التى كان الاستعمار قد رفعها من مناهج التعليم حتى لا يبقى فى نفوس الشباب أى قدر من الإحساس باصالة القرآن وسلامته وأنه منزل من عند الله .

هزيمة المعتزلة

يردد كثير من الباحثين الغربيين ومن تابعهم من كتاب يكتبون باللغة العربية هذه العبارة « هزيمة المعتزلة » يريدون بها القول بأن هذه الهزيمة إنما كانت عاملا من عوامل الضعف الذى حل بالمجتمع الإسلامى.

وهؤلاء الباحثون هم أما مغرضون يعرفون الحقيقة ويتجاهلونها فى سبيل تمويه الأمور وغش القرآء وتضليلهم عن حقيقة تاريخ الاسلام وفكره .

أما هم مع الأسف لم يستوعبوا حقائق الاسلام ولم يفهموه فهما صحيحاً ، وربما فهموه من داخل دآئرة الفكر الغربى الذى كان دائماً سيء الرأى فى الاسلام وفى الأديان عامة .

والحقيقة أن هزيمة المعتزلة كانت نتيجة طبيعية لاختلاف هذة الدعوة مع جوهر الاسلام ومع طبيعة الفكر الاسلامى ومنهج المعرفة فيه هذا المنهج الذى يقوم على جماع العقل والوجدان ، لقد كان الاعتزال أساساً محاولة أصيلة لمواجهة المذاهب الفلسفية التى كانت تحتمى وراءها الأديان المعارضة للاسلام وقد أدى دوره فى هذا المجال على أحسن وجه ، وواجه علماء الكلام فى الأديان والفلسفات الاخرى فى قوة وأدال منهم وحقق كثيرا من النتائج وأدخل مئات من الوثنين فى الاسلام .

غير أن المعتزلة لم يلبثوا أن بلغوا درجة من الغلو فى تأكيد موقفهم وفكرتهم ، وبذلك أعلوا شأن العقل وبلغوا به مبلغاً خطيراً ، ولما كان المسلمين يؤمنون بالغيب والشهادة ، ويؤمنون بالوحى والعقل ، ويتكامل إيمانهم هذا ويتشكل فى وحده واحدة فان إعلاء شأن العقل وحده كان خروجا على مفهوم الاسلام، وهو خروج عرض المعتزلة للهزيمة وعرض فكرهم للانهيار تحت أضواء الاسلام الصحيح ، ومن هنا جاءت تعديلات وتصحيحات قام بها الإمام الأشعرى

ومدرسة الامام أحمد بن حنبل إذ كان لابد أن يعود الاسلام الى اصوله ، وان يتحرر مما أصابه عن طريق الفلسفة اليونانية من انحراف .

ولذلك كانت هزيمة المعتزلة نصراً لأصالة الاسلام وتعديلا لمسار فكره وربما كان حزن بعض الغربيين على هزيمة المعتزلة راجعاً إلى ما حاولوا ان يلصقوه بها من انها كانت منطلق الفكر اليونانى الاغريقى وإنها لو حققت نجاحاً مضطرداً لقضى ذلك على وسطية الاسلام وتكامله بل وربما قضى على ارفع مفاهيم الاسلام واصلها الأصيل « التوحيد » ولذلك فهم يتمسحون بالمعتزلة ويعلون من شأنهم .

وحدة الوجود

وحدة الوجود مذهب دخيل على الفكر الاسلامى والثقافة العربية ،وهو من المذاهب الفلسفية القديمة المرتبطة بالوثنية والمجوسية وفلسفات الاغريق والهنود والفرس التى تحرر منها الاسلام بالتوحيد وفصل بينه وبينها .

وتعنى وحدة الوجود تالية المخلوقات واعتبار الكون هو الله ، وقد أثار هذه الدعوة موج من الصراع الفكرى العنيف وشجبها الفكر الاسلامى ، على لسان كثير من علماء الكلام والمحدثين والمفسرين والفقهاء والصوفيين السنيين ، على اعتبار أنها دعوى تتناقض مع جوهر العقيدة الاسلامية تناقضاً مطلقا بحيث لا يمكن التوفيق بينها وبين عقيدة التوحيد بأى وجه من الوجوه .

وقد سمى آسين بلاسيوس فى كتابة ابن عربى دعاة هذه الفكرة بالاسلام المتنصر Ellslam eristianiza وقال أنها جاءت من المذاهب الباطنية .

وهذا هو سر اهتمام المستشرقين والمبشرين بالدعاة إلى هذه الفكرة كابن عربى والحلاج ، وترويج كتاباتهم رغبة فى إحداث شبهات عميقة تبلبل عقيدة البسطاء .

ومفهوم الاسلام فى مواجهة وحدة الوجود هو أن الموجود إثنان :
واجب الوجود ، وممكن الوجود :
واجب الوجود فهو صانعها الله احد الواحد الفرد الصمد .
وممكن الوجود هو هذه الكائنات التى ندركها بحواسنا الخمس مباشرة :
كما أنكر الاسلام عقيده الاتحاد : أى حلول الخالق فى المخلوق ، أو استغراق المخلوق فى الخالق ، وهو أى الاسلام يميز طبيعة كل منهما ولذا أنكر الاسلام فكرة الحلول .

والاسلام لا يقبل وحدة الوجود لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصلية (لا إله إلا الله) إلى ما يقوله بعض الصوفية (لا موجود فى الحقيقة إلا الله) وسياق كل منهما ينتهى إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف لنتائج الاخرى .
والتصوف فى مفهوم الاسلام يبدأ القرآن وينتهى إليه .

وحدة الحضارة

هناك دعوات ارتبطت بالاستعمار والنفوذ الأجنبى أطلقت عليها عبارة وحدة الحضارة ، وحدة الثقافة العالمية ، والحكومة العالمية .

وعبارة وحدة الثقافة العالمية : عبارة خلابة المظهر براقة الصورة ولكنها تخفى فى أعماقها التعصب والاحتقار للثقافات الانسانية ومعناها فى الواقع سيادة الثقافة الغربية وحضارتها وتشيدها على ثقافات الأمم وحضاراتها ولا سيما الثقافة العربية والفكر الاسلامى ، هذه التى سادت أفريقيا ، وآسيا ، والتى هى طابع هذه المنطقة التى ما تزال بجال النفوذ الاستعمارى للغرب وهى تسمى هذه الدعوة : دعوة التمدن والتحضير للأمم المختلفة ، رسالة الرجل الأبيض إلى العالم الملون ، والهدف الكامن فى أعماق هذه الدعوة البارعة الملمس والمظهر، وهو سوق الناس جميعاً إلى الولاء والعبودية للسيادة الغربية فى الفكر الغربى وإحلال قيم الفكر الغربى ومفاهيمه محل القيم الفكرية الثقافية التى يدين بها الشرق والعالم الاسلامى والعرب أفريقيا ، وهى قيم ومفاهيم تختلف فى جوهرها عن قيم الفكر العربى ومفاهيمه .

ومن الحق أن يقال أن هناك دعوات متعددة للحكومة العالمية أو الوحدة العالمية فالماركسية تدعو إلى وحدة قوامها الفكر الماركسى ، والامبريالية الغربية تدعو إلى وحدة تقوم على قيمتها ومفاهيمها ، وتحمل الصهيونية لواء دعوة إلى وحدة تخضع العالم كله للفكر الصهيونى، وكل من هذه الوحدات تتصارع وتحاول أن تفرض أيدلوجيها وتعمل كل منها لتضع العالم تحت سلطانها، والحضارة الإسلامية العربية لها دعوة عريضة إلى الوحدة الانسانية ، تحمل أصفى المثل وأنبل المبادىء ولا تتطلع من وراء هذه الوحدة إلى السيادة أو النفوذ الاستراتيجى ، ويرى الدكتور عوليلمو فرير والكاتب الايطالى فى كتابه وحدة العالم : أن الوحدة لا تتحقق بتغلب أمة على أمة أو جنس على جنس ، ولا يمكن أن يكون فرد واحد سيد العالم وكذلك الوحدة لن تكون بتوحيد اللغات فهذا غير ممكن .

ويتساءل هنريك رالف فى كتابه (الانسانية والوطنية)

Hamante et Patria

هل يجدر بالأمم الضعيفة المهضومة الحقوق أن تأخذ بالنزعة الانسانية وتضحى بالنزعة الوطنيه ، وهل تفكر فى سعادة الانسانية قبل أن تفكر فى سعادتها :

ويرى هنريك رالف أن النزعة الانسانية يجب ألا تعتنقها إلا الأمم القوية ، أما الأمم الضعيفة فإن لم تتمسك بوطنيتها اعتدت عليها الأمم القوية . ويعتقد هنريك رالف من أنصار السياسة الانسانية هم طائفة المنافقين يروجون لها دفاعاً عن مصالحهم الخالصة ورغبة فى الاستمرار على بسط نفوذهم وسيادتهم على الأمم المهضومة الحقوق .

ويرى كثير من الباحثين : أن محاولة الغرب فى توحيد البشر إنما يعنى صبغها بالصبغة الاوربية وطبعهم بطابعها . وما دام الغرب يؤمن أن ليس الانسان فى مجموعة سيد الخليقة وإنما الانسان الأبيض وحده هذا الانسان الأبيض الذى ندب لتطهير الأرض وحماية الحضارة ، فإنه لا سبيل إلى هذه الوحدة ، كذلك دعوة الصهيونية إلى امتياز شعب الله المختار وما يرددونه من رسالة انتدبوا لها ، كل هذا من شأنه أن يحول دون وحدة الانسانية التى لا تتجمع إلا وفق مفهوم الاسلام وحده : « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وإن الأمم شعوبها وقبائلها تستطيع أن تتعارف وتلتقى على الأخوة والمحبة والمساواة .

(٧٢)

الوسطية

مفهوم الوسطية ترتبط إلى حد كبير بالفكر الاسلامى إذا تصور أن الفكر الشرقى(البوذية الكنفشوسية والهندوكية) بما يوصف بالروحية الصرفة والفكر الغربى (المادية والماركسية والوجودية)بما يوصف بالمادية الصرفة ، فى هذا يوصف الفكر الاسلامى بالوسطية الجامعة بين الروح والمادة .

وقد تنبه إلى هذا المعنى كثير من الباحثين الذين يرون أن الخلاف بين أيدلوجية الفكر الغربى والفكر الماركسى لا يحلها إلا الفكر الاسلامى فحيث الماركسية تؤله المجتمع والغربية تؤله الفرد، يؤكد الاسلام الرابطة الجامعة المتوازنة بين المجتمع والفرد ، وحيث يقف الغرب عند نزعة الحرية وتقف الماركسية عند نزعة العدل يجمع الاسلام بينهما فى مزيج يعطى زبدتهما ، ومن هنا يبدو وما يسمى وسيطية الاسلام بين الروح والمادة من ناحية وبين الفردية والجماعية من ناحية أخرى ، ويرى العلامة السلجوقى : أن اليهودية انحرفت إلى الفردية الطاغية ، وأكدت المسيحية على الروحية الصرفة ثم جاء الاسلام وسطاً جعل الفرد متفاعلا مع المجتمع ، وجعل المجتمع متفاعلا مع الفرد على قاعدة التوازن وتبرز وسطية الاسلام ليس فقط فى تقريب الفرد مع المجتمع وليست فى تقريب المجتمع من الفرد ، وإنما فى هذا السلوك الخلقى لأن الوسط بين التفريط وبين الافراط هو فضيلة وهو خلق .

ويقول المستر قدجب : أخذ المسلمون يسلكون سبيلا وسطا فيأخذون خير ما فى الشرق وخير ما فى الغرب وسيؤدى هذا إلى ظهور المثل العليا الجديدة للثقافة العربية .

الباب الخامس

الدعوات والمذاهب

البهائية

خدع كثير من الباحثين الغربيين وربما قصد بعضهم إلى اعتبار البهائية دعوة من دعوات الاصلاح والتجديد الإسلامى توضع فى مجال التقدير والاعتبار فى موازاة دعوة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وقد تابعهم بعض الباحثين المسلمين فى هذا الرأى ، بينما تجمع المصادر المختلفة على أن البهائية حركة مضادة للفكر الاســلامى ومحاولة تغريبية للقضاء على مفاهيم الاصلاح على النحو المستمد من الفكر الاسلامى وقوامه التوحيد واحلال مفاهيم أخرى مستمدة من الدعوات الباطنية والمجوسية القديمة . وآية ذلك اهتمام الاستعمار بها وتشجيعها ورعاية المبشرين والمستشرقين ودعاة التغريب بها فى نفس الوقت الذى تقاوم فيه هذه المؤسسات جميعاً كل دعوة إصلاحية حقيقية وتخنقها فى المهد أو تجهضها قبل أن تولد .

وتبدو دعوة البهائية واضحة فى أنها محاولة لخلق جو من التضارب الدائم بين الأمم وذلك بإلغاء الأديان القائمة واحلال دين جديد يوحد بين الأمم وترك العصبيات المذهبية والجنسية والسياسية

وقد أحاط النفوذ الاستعمارى هذه الدعوة بالتشجيع والتقدير وأفسحت لها الصحف واهتم بها الكتاب وركزت على الأضواء فى نفس الوقت الذى كانت الصهيونية تحاول أن تسيطر فى فلسطين وغزوات التبشير تجتاح العالم الإسلامى ومصر على الخصوص ، وقد تردد أن هذه الدعوة إنما قصد بها إلى تركيز النفوذ الاستعمارى فى البلاد التى ظهرت فيها (إيران) وإنها حاولت أن تستمد مفاهيمها من موروثات قديمة باطنية ومجوسية ولكن براعة النفوذ الاستعمارى كانت قادرة على الإعلان بها وإذاعتها والاستفادة بها فى مختلف أنحاء معالم الإسلامى لاثارة الشكوك فى النفوس وكسب مزيد من الذين تزعزعت عقائدهم .

وحاول كتاب مصر فى العشرينات والثلاثينات الدعوة لها والقول بأنها تقوم على أساس وحدة الأديان وأنها جماع المسيحية واليهوديه والاسلام وأنها

تستهدف توحيد لغات العالم ومساواة الرجل بالمرأة ونبذ العصبات واتحاد الشرق والغرب وذلك بزوال الأديان ولم تفلح كل وسائل الدعاية فى أكبر الصحف — إذ ذاك — وبأكبر الأقلام فى كسب واحد من المسلمين لهذه الدعوة بل ماتت الدعوة فى مهدها وانكشفت معارضتها للذوق والضمير والروح الاسلامى .

وقد أولت بريطانيا داعية البهائية اهتمامها ومنحته الحكومة البريطانية لقب سير واحتفل به هربرت صموئيل المندوب السامى البريطانى اليهودى الأصل فى القدس ثم كشفت الأيام من بعد تلك الرابطة الأكيدة بين البهائية والصهيونية عندما عقد المؤتمر العالمى للبهائية فى إسرائيل عام ١٩٦٨ بعد وفاة زعيمها عباس البهاء بخمسين عاماً وتكشفت تلك العلامة فى أن دعوة البهائية إلى إزالة جميع الأديان اليهودية والمسيحية والاسلام لم تكن تهدف فى الحق إلا إلى إزالة الاسلام .

وقد حاول البهائيون التشكيك فى آيات القرآن وبأويلها بما يؤيد دعواهم وأنكروا عالمية اللغة العربية وكونها اللغة المشتركة — لغة الصلاة والعلوم الاسلامية فى العالم الاسلامى — ودعوا إلى إيجاد لغة أخرى تكون لغة الأمم وذلك بالاضافة إلى إنكار إعجاز القرآن والمعجزات المحمدية .

ويجمع الباحثون المنصفون على أن البهائية بعث جديد للباطنية التى وضعت تعاليمها الأولى على أساس محو الاسلام وإزالة سلطانه ، وهم يعدون مؤسسى البهائية رسول الله الأعظم ولهم كتاب يسمى الاقدس يرتل بطريقة القرآن .

ولم تتوقف الدعوة إلى البهائية منذ ذلك الوقت بل ظلت تتجدد سنوات بعد سنوات وفى كل مرة تجد من المسلمين من يكشف عن جوهرها . يقول فريد وجدى : إن دعوة البهائية إلى اتحاد الأديان قد سبق إليها الاسلام وأسسه على أقوى الأصول فقرر أن أصل الأديان واحد ، فوحدة الدين هى الأساس الذى يقوم عليه الاسلام وإن طموح البهائيين لأن يكون ديناً عاماً يقضى بالعجب لأنها ليست بدين سماوى وليس فيها من الأصول والمبادىء ما بلغت العقول إليها بعد أن بالغت فى فرض نفسها على الأمم ، وإن البشرية ليست فى حاجة إلى دين جديد

بعد الإسلام الذى استكمل شرائط الدين العام وأين هى من الاسلام الذى تبنى أمماً قوية ، ومدنيات فاضلة فى خلال عصور متعاقبة ، ولا يزال على مثل حيويته الاولى حتى ليتوقع فلاسفة كثيرون ومنهم برناردشو أن مبادىء الاسلام توشك أن تعم العالم أجمع ، ويقوم الإسلام على أصلين ضمنت لها التعميم والخلود . موافقته للفطرة واعتماده على العقل والعلم فأين البهائية من هذا الموقف العلمى الحق وهى تقوم على أصلين أحدهما عتيق غامض قال به أفراد من محبي السبح فى الخيالات وهى تصوير ذات الله بصور المخلوقين ، وثانيهما وهو صرف الألفاظ عن ظواهر بجال وهو فسيح للظنون والأوهام والخبط .

التبشـــير

للاستعمار مؤسسات أساسية ضخمة تقوم بالعمل على تثبيت وجوده وتأكيد بقائه : أهمها التبشير والاستشراق ، وهذه المؤسسات تحمل دعوات مختلفة إلى التغريب والشعوبية ولكنها لاتظهرها بأسمائها وإنما تخفيها وراء أسماء كبيرة براقة أغلبها يحتجب تحت أسماء ثقافية أو حضارية .

واقوى القوى العاملة هى «المدرسة» الأجنبية فى مجال التعليم والتربية وتكوين النشء والأجيال الجديدة والصحيفة فى مجال الثقافة والقراءة . وقد أكدت تقارير المبشرين المختلفة على الدور الخطير الذى قامت به المدرسة والصحيفة وما تزال تقوم به فى سبيل تحقيق غاية أساسية :

(أولا) تمزيق وحدة العرب والمسلمين والحيلولة دون التئامها .

(ثانيا) تدمير القيم الأساسية العربية والإسلامية الفكرية والحيلولة دون سيطرتها ومحاولة فرض مفاهيم أخرى « غربية » المصدر على الثقافة والتربية العربية والفكر الاسلامى رغبة فى القضاء على :

(١) الرابطة بين الدين والمجتمع .

(٢) أخلاقية التعليم والتربية والمجتمع والسياسة .

(٣) إذاعة أسلوب من التحرر فى مجال الفكر يصل إلى الالحاد وأسلوب من التحرر فى مجال الحياة يصل إلى الاباحة .

وللتبشير دور هام فى تحقيق هذا الهدف الأساسى من أهداف الاستعمار وهو خراج المسلمين والعرب من القيم التى تدفعهم إلى الحرية ومقاومة النفوذ الأجنبى وعدم الانصهار فى الأمية أو العالمية وإقامة مجتمعهم الخالص المستمد من قيمهم تاريخهم ولغتهم وأديانهم . فاذا أستطاع الاستعمار إذابة المسلمين والعرب فى بوتقة العالمية وصهرهم فى الثقافة العامة وإخراجهم من ثقافتهم وقيمهم لم يعد هناك مجال لتشكلهم بصورة خاصة ، بصورة الذات والشخصية الخاصة ، عندئذ تصبح الحضارة الغربية وقد حققت أكبر انتصاراتها بأن أحالت المسلمين والعرب إلى عبيد فى القطيع اسى يسود فيه الجنس الأبيض الغربى صانع الحضارة .

وقد اجمعت خطط المبشرين ودراساتهم وأبحاث مؤتمراتهم على أن الهدف من التبشير هو : إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الاسلامي وأبعاد العناصر التي تمثل الاسلام عن مراكز التوجيه » فاذا لم تنجح دعوة التبشير في إدخال المسلمين في دين جديد فلاأقل من أنها تكون قد أخرجته من الاسلام .

وقد كانت خطة التبشير شاملة وموحدة وذات مراحل وحلقات وقدأشرف عليها رجال ذوي خبرة وثقافة واتصال كامل بمخططات الاستعمار وهي تضم وزارات المستعمرات والخارجية في الدول المستعمرة للعالم الإسلامي ، ومؤسسات التبشير الكبرى بفروعها المختلفة وإرسالياتها ومعاهدها في العالم الاسلامي بالإضافة إلى جماعة المستشرقين المنبثين في مختلف الجامعات الأوربية والمتاحف والمكتبات العامة والمعاهد المعنية بالدراسات الشرقية والإسلامية والغربية ، وقد تأكد مدى التناسق بين هذه الهيئات من التقارير التي نشرتها هذه الهيئات والتي تكشف عن أن وزارات المستعمرات تستخدم المبشرين في العمل داخل البلاد العربية والاسلامية وتؤكد أهمية عملهم وخطورة دورهم في أن يكونوا عنوانا لها وأداة لتحويل الأفكار على النحو الذي تريده ، وتبدو هذه الأهمية في إشراف الساسة الكبار على مؤتمرات المبشرين أمثال لورد بلفور الذي أعلن أهمية مؤسسات التبشير في خدمة أهداف السياسة وذلك قوله: «والمبشرون هم في نظر الاستعمار عيونه التي تقوم باطلاع الدول الغربية بالنواحي التي يهمهم معرفتها من عقائد المسلمين وأدابهم والثقافات التي يأثرون بها »ويتجلى ذلك حين نرى أن مؤتمر التبشير في أدنبرج سنة ١٩١٠ يعنى بدراسة قرار حول اليه من المؤتمر الاستعماري المنعقد في برلين في نفس العام : يقول هذا القرار : « إن ارتقاء المسلمين يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم لذلك فان المؤتمر الاستعماري ينصح للحكومة بزيادة الاشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة ويطلب المؤتمر الاستعماري ممن في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الاسلام وإزالة العراقيل عن طريق انتشار التبشير .

وتتمثل خطة التبشير التي رسمها (شاتليه ، زويمر ، ماسفيون وغيرهم) في

أن يكون عمل التبشير مبنياً على قواعد التربية العقلية و « التأثير على عقول المسلمين وقلوبهم » فان عجزت ارساليات التبشير عن زحزحة العقيدة الاسلامية فى نفوس معتنقيها فانها تستطيع أن تحقق هدفها من هدم الفكرة الاسلامية ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية ، وذلك عن طريق نشر اللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية مما يمهد إلى إدخال الأفكار ، وذلك الغربية الهادمة للفكر الاسلامى عن طريق هذه اللغات،ومن هنا نسقط الأوضاع والخصائص الاجتماعية الاسلامية وتحل بدلا منها الخصائص الغربية .

ويرى زويمر شيخ المبشرين « أن القضاء على الاسلام فى مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وأن المسلم لا يكون مسيحياً مطلقاً ولكن الغاية هى إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون أما ملحداً أو مضطرباً فى دينه ، وعندها لا يكون مسلماً وهذه أسمى الغايات الاستعمارية » .

ومن مناهج التبشير وأنظمته تلك القاعدة التى تقول أن جميع الوسائل تستغل فى سبيل التبشير حتى أعمال البر ، وأن التطبيب والتعلم من وسائل المبشرين ويقول مولف كتاب طرق العمل التبشرى فى المسلمين : لنجعل هؤلاء القوم المسلمين يقتنعون فى الدرجة الأولى بأننا نحبهم ، فنكون قد تعلمنا أن نصل إلى قلوبهم ، وعلى المبشران يحترم فى الظاهر جميع العادات الشرقية والاسلامية حتى يستطيع أن يتوصل الحديث إرادته بين من يصغى إليها.كما تشمل هذه الأساليب دراسة اللهجات العامة واصطلاحاتها نظريا وعملياً ، ومخاطبة عوام المسلمين على قدر عقولهم ، وأن تلقى الخطب بأصوات رخيمة وبفصاحة ، وأن يخطب المبشر وهو جالس ليكون تأثيره أشد على السامعين وأن يكون خبير بالنفس الشرقية وأن يستعمل التشبيه والتمثيل أكثر مما يستعمل القواعد المنطقية ، وأن يكسب ثقة الشباب بالحديث فى موضوعات إجتماعية وخلقية وتاريخية ومنها يستطرد إلى مباحث الدين ، وعلى المبشران يحاول كسب القلوب بتظاهره بالميل إلى مطامح المسلمين من الاستقلال السياسى والاجتماعية .

ثم يرمى التخطيط إلى مرحلة أكثر أهمية حين يدعو إلى أن يكون تبشير

المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم وأنه يتحتم على طبيب الارسالية ألا ينسى ولا لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء وطبيب بعد ذلك وعليه استغلال فرص المرض والسيطرة على المرضى وانتهاز فرصة الضعف والحاجة وعدم القدرة على التفهم والاقتناع والدس للعقل الباطن بالايحاء.

وفى طريق العمل استطاع التبشير أن يكون فى العالم الاسلامى دعاة « من أنفسهم » ركز الاستعمار على أسمائهم وأكسبها شهرة ولمعانا ودفع بها فى خضم الثقافة والصحافة وآزرها حتى تصدرت وأصبحت قوة لها وزنها حيث تولت كبريات المناصب فى الجامعات والأعمال الرسمية .

ويقوم عمل التبشر فى مجال التعليم على فرض ثقافة الغرب وتاريخه وبطولاته ولغته واقصاء لغة العرب والمسلمين وتاريخهم وإثارة الشبهات حولها وانتقاصها وفى مجال الثقافة يعمد إلى إثارة الغمزات والاتهامات إلى الشريعة الاسلامية واللغة العربية والحديث النبوى ، على نحو يفتح باب الشكوك والاتهامات، هو يجرى فى ذلك على مخطط مدروس وأسلوب دقيق فهو لا يلبث أن يثير قضية جزئية ، حتى يتوقف ، ليبدأ فى إثارة قضية جزئية أخرى ، بحيث لا يشعر القارىء أو الباحث إلى أن هناك ترابطا بين هذه الاشارات وبعضها ، إعتمادا على أنه على المدى الطويل يستطيع أن يكسب من وراء ذلك خصما للفكر الاسلامى وصديقا للتبشير والفكر الغربى يكون عونا له على أبناء وطنه ودينه وتاريخه .

الصهيونية

الصهيونية حركة سياسية يقوم بها اليهود من أجل السيطرة على مقدرات الأمم والشعوب وقد ظهرت فى صور شتى وكتابات ودعوات متعددة منذ سقطت الأندلس فى أيدى الفرنجة الذين أخرجوا منها العرب والمسلمين ، وكان اليهود قد عاشـــوا فى حمى الأمة الاسلامية فى أمن ورخاء فلما تشتتوا وتوزعوا فى أنحاء أوربا والعالم كله واجهوا الاضطهاد العنيف مما دفع بعض حاخاماتهم إلى حمل لواء الدعوة إلى التجمع والسيطرة على الحكومات والدول وذلك بالسيطرة على الذهب والبنوك والثقافة والأعلام والعلوم الكيمائية وقد بدأت الحركة بالجماعة السرية (الماسونية) ثم استعلنت عام ١٨٩٧ بالحركة التى حمل لواءها تيودور هرتزل فى الدعوة إلى (الدولة اليهودية) والتى اتخذت من بعض نصوص التوراة المحرفة سندا إلى السيطرة على فلسطين ومن ثم كان السعى إلى تحقيق هذا الهدف بكل وسائل الخداع والاكراه والظلم والافساد وذلك بعد أن قطع اليهود شوطا طويلا بالسيطرة على الحكومات الاوربية بعد ان نجحت الماسونية فى أشعال الثورات المختلفة وفى مقدمتها الثورة الفرنسية التى كان هدفها الأساسى إعطاء حق المساواة لمختلف العناصر ، وإتاحة الفرصة لليهود للسيطرة على السياسة والحكومات بعد أن كانوا معزولين ذلك عن ذلك تماما .

وقد وجدت الصهيونية فى محاولتها للسيطرة على فلسطين إعتراضا قويا ورفضا قاطعاً من السلطان عبد الحميد خلال مدة حكمه للدولة العثمانية فقد رفض كل العروض والمغريات والتهديدات فى هذا الصدد ووقف موقف مشرفا كان من نتيجة أنه اشتد التآمر عليه حيث أسقطته المنظمات الماسونية التى سيطرت على حزب تركيا الفتاة (الاتحاد والترقى) وكانت حركة إسقاطه ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ جزآن من نفس مخطط الثورة الفرنسية فقد فتح لها الطريق على يد الاتحاديين إلى فلسطين وإلى السيطرة على مختلف الحكومات والزعماء مما هيء لوعد بلفور ١٩١٨ الذى أعطى الصهيونية جواز الاقامة والاحتلال لفلسطين وقد تمت هذه الخطوات كلها عن طريق دسائس اليهود ، ومؤامرات الصهيونية ، ومخططات الماسونية فى جميع أجزاء العالم

بما حقق قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ .

وقد خفيت هذه الحقائق على المسلمين والعرب زمناً طويلا وخدع كثير منهم بهذه المنظمات ، ولكن الحقائق أخذت تظهر فى السنوات الأخيرة وبدأ المسلمون والعرب يحسون بالخطر الجارف الذى يهددهم وخاصة بعد سقوط القدس فى أيديهم عام ١٩٦٧ وقد عرفوا الدور الخطير الذى قام به بعض الكتاب والصحفيين فى التعاطف مع مخططات الصهيونية التى تمثل الآن طليعة دور جديد للاستعمار الغربى لإقامة الإمبراطورية الصهيونية .

الطائفية

اصطلاح جديد ظهر مع الاستعمار الغربى والنفوذ الأجنبى ، حين ركز الاستعمار على الأقليات الموجودة فى العالم الإسلامى واحتضنها واتخذ منها سلاحاً للحيلولة دون تحرر الأقطار أو وحدة الشعوب . ولذلك فقد عمد الاستعمار إلى تنمية الطائفية وتعميق خلافاتها مع الأكثرية (راجع باب أقليات) وكانت الطائفية من أخطر العوامل التى استعان بها النفوذ الأجنبى لتحطيم الامبراطورية العثمانية تمهيداً لبسط نفوذه على العالم الإسلامى وكان دور الطوائف الأرمنية واليهودية كالدونمة فى تركيا أبعد الأثر فى تأريث المحطات الأجنبيةفى السيطرة .

ولم تكن الطائفية يوماً قضية فى وجود الدولة الإسلامية ، بل كانت مختلف الطوائف تجد حريتها وانطلاقها فى المجتمع ، وقد وضعت الشريعة الاسلامية لها حمايتها وأنظمتها وكرمت الأديان وحمت الكنائس والمعابد ، وقد وصل أبناء الطوائف المختلفة إلى أرقى المناصب فى عصر الازدهار وكان لهم دورهم فى الحضارة الاسلامية والثقافة العربية ولم يقع بينهم وبين غيرهم أى خلاف أو صراع إلا تحت نفوذ الاستعمار الذى أعلن أنه إنما جاء ليحمى هذه الطوائف من المسلمين وقد ورد صراحة فى تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ نص خاص بحماية الأقليات وكان لفرنسا وبريطانيا وروسيا نفوذ معروف فى لبنان كل منهما تحمى أقلية من الأقليات وكان لهذه السياسة أثرها فى اندلاع ثورة ١٨٦٠ التى قصدت بها الدول الأوربية الوقيعة بين المارون والدروز توطئة لوضعها فى نظام خاص يمكن للنفوذ الأجنبى من التغلغل فى لبنان وبناء مؤسساته الارسالية والتبشيرية والامتداد منها إلى العالم الاسلامى كله وقد تنبه لهذا كثير من المفكرين والزعماء فكشفوا عن التقارب بين المسلمين والنصارى والشيعة والسنة وكيف أن الدم العربى يجمع بين هذه الطوائف جميعاً ، كما أن الاسلام قد وضع قواعد أمينة للعلاقة بين الجميع ولاشك أن الدم العربى يجمع بين مسلمى العرب ونصرانيهم فى الشام ومصر والعراق ، وأن كل أنواع الخلاف إنما كانت نتيجة مواقف خاصة ودسائس أجنبية وقد أرث المستعمر هذه الخلافات القديمة واستغلها .

العلمانيه

العلمانية فى كلمة هى فصل الدين عن المجتمع والدولة وقصره على العلاقة بين الانسان والله وهو ما يعرف باللاهوت ، وبعض الأديان هى كذلك ، ولكن الاسلام يختلف،فهو دين عبادة ودين شريعة وأخلاق فى نفس الوقت . وفكرة العلمانية ظهرت فى أوربا نتيجة عدة عوامل منها موقف رجال الدين من النهضة والكشوف العلمية ، ومنها هدف اليهود فى القضاء على سلطان المسيحية فى المجتمع ، وذلك يتاح لهم السيطرة السياسية والنفوذ العسكرى .ومن هنا يبدو ذلك البغض الشديد للدين فى فلسفات عديد من الفلاسفة ، أمثال نيتشه وماركس وفرويد .

وقد تأثر العالم الاسلامى والفكر الاسلامى بظلال هذه النظرية ، وهذه الدعوة وكان للبعثيات التبشيرية والارساليات وسيطرة النفوذ الاستعمارى على مناهج التربية والتعليم أثره فى إعلاء هذا الاتجاه وتعميقه ، بعد عزل الأسلوب العلمى الدينى الذى يتمثل فى المدارس والجامعات الإسلامية القديمة .

ومن حق الغربيين أن يقفوا موقفاً ما إزاء دينهم وعقائدهم التى وقفت ضد نهضتهم وضد كشوف العلم وفرضت محاكم التفتيش وغيرها من أساليب السيطرة أما بالنسبة للمسلمين والعرب فإن الموقف تختلف اختلافاً كبيراً فإن الاسلام كان مصدر العلم والحرية والمساواة وداعية الاخاء .

فضلا عن ذلك ، فإن الصلة المحكمة التى تربط الدين بالمجتمع هى إحدى خصائص التاريخ الاسلامى فليس فى التاريخ الاسلامى دولة بثوقراطية (دينية) ولم يقع يوماً أن رجال الدين فى الاسلام — أمسكوا فى أيديهم أزمة السلطة السياسية العليا ، ذلك بسبب بسيط هو أنه لا وجود فى الاسلا الكهانة ولا لطبقة ممتازة تدعى رجال الدين ولهذا يستحيل أن يوجد فى الإسلام مؤسسة تشبه الكنيسة المسيحية التى تختص بأسرار الدين وطقوسه .

العاميـة

الدعوة العامية ، هى دعوة تغريبية خالصة ، تهدف إلى الوحدة الفكرية والوحدة القومية ، وقطع الصلات بين أجزاء العالم الإسلامى والأمة العربية ، وترمى أساسا إلى مقاومة لغة القرآن ، والقضاء عليها وهى فى مختلف صورها ، التى تقول تبليين اللغة العربية المستعصية ، أو خلق لغة وسطى بين العامية والفصحى ، إنما تهدف إلى فصم عرى الصلات القائمة بين المسلمين والعرب من ناحية وبين المسلمين والعرب وبين القرآن ومستواه البلاغى من ناحية أخرى .

ولاشك أن اللغة العربية هى رابطة الوجود العربى وصمامه الأصيل ، فإذا انحلت تبدد هذا الكيان ، وكل المحاولات التى تهدف إلى إعلاء العامية ووصفها بالقدرة على الأداء إنما هى محاولات استعمارية ضخمة ، تهاجم الإسلام والوجود العربى أيضا .

وقد نفذت مخططات اســتعمارية وتغريبية خطيرة بشأن القضاء على اللغة العربية وأعلاء العاميات فى العالم العربى ، وحملت هذه المخططات عناوين براقة خدعت البسطاء مثل القول : بأن اللغة ملك للأمة التى لها الحق فى أن تيسرها وذلك قول قد يصدق على كل اللغات ولكنه يخفق إخفاقا ذريعا بالنسبة للعربية ، ذلك أن العربية إنما هى لغة أمة وهى فى نفس الوقت لغة فكر ، فهى لغة الأمة العربية التى تتمثل فى حوالى مائة مليون ولا شك أن فى القضاء عليها قضاء على وحدة هذه الأمة التى تمثل الآن أكثر من أربعة عشر دولة وحكومة لا يجمعها جامع إلى الوحدة العربية أقوى من اللغة الفصحى ولاسبيل إلى تفاهم المغربى مع المصرى مع العراقى إلا عن طريق الفصحى ، وهى فى نفس الوقت لغة فكر جامع يجمع سبعمائة مليون من المسلمين تقوم ثقافتهم وفكرهم وتراثهم ودينهم وعبادتهم على أساس اللغة العربية التى هى المصدر الأساسى للقرآن الكريم قانون هذه الامة الإسلامية ودستورها ونظامها الكامل فى الاجماع والسياسة والأخلاق والتربية والاقتصاد .

العنصرية

التفرقة العنصرية والدعوة إلى تفاضل الأجناس هى إحدى مبتدعات الفكر الغربى مستمدا من مفهوم رومانىقديم أطلق عليه « روما سادة وماحولها عبيد » وقد تجدد هذا المفهوم فى ظل استشراء النفوذ الأجنبى والاستعمار الغربى كمبرر له بحجة القول أن هناك شعوبا متخلفة تحكم وشعوب ممتازة تحكم ، وجرى القول بالتفرقة بين العنصر السامى تخلفا والعنصر الآرى تقدما ، وحاول الكاتب الفرنسى جوبنيو أن يقــول ان بعض العناصر خلق للسيادة وبعضها خلق للخضوع ، واستغلت دوائر الاستعمار هذه المعانى فى مجال البلاد المحتلة ، وجرت محاولة إقناع المسلمين والعرب أن يستسلموا تحت لواء هذه النظرية للغزو والاحتلال ، ولكن العلم الصحيح نفسه أثبت كذب هذه الاراء وخداعها وضلالها وكشف عن أنها استغلت استغلالا غير برىء ، وتكشف فيما بعد أنها لم تكن ذات أصول علمية أو تؤيدها براهين حاسمة ، وقد قاوم الفكر العربى الإسلامىَ هذه النظرية بقوة نظريته الأصيلة القائلة بأنه لاتفرقة ولا تفاضل بين أسود ولابين عربى وأعجمى إلا بالعمل ، وتكشف أن عقلية الرجل الأبيض مسممه بالتعصب العنصرى ، وأن الحضارة الغربية حين ارتبطت بمقومات الوثنية وعقلية الإغريق اعلت من شأن العنصرية وكانت الكنيسة فى أوربا — على حد يعتبر الأستاذ سامى داود — هى التى تحمى الحق المقدس للملوك والاشراف فأقرت بذلك التفرقة العنصرية واعترفت بشوع السبى والاستعباد وإغلاق السجون والمطابق على العبيد والمستضعفين .

وقد ردد هذه الآراء زينان وجوبينو وغيرهم ثم أثبت العلماء أمرين ان الخلاف بين الآرية والسامية هو خلاف فى اللغة وليس فى العنصر أو الدم، وأن اختلاف الملامح والعادات لاعلاقة له بالفطرة والنفس ، وأنه لااختلاف فى أصل الطبيعة بين العقل البشرى فى الارى أو السامى أو الأبيض والأسود .

وقد سبقه كثير من العلماء وعلى رأسهم هردر وجينى ونوفاليس أراء القائلين بالتفرقة بين الاجناس البيضاء والصفراء والسوداء .

الفينيقيه

دعوة من الدعوات التى أثارها النفوذ الاستعمارى، وحركات الغزو الثقافى والتغريب ، لاثارة التاريخ القديم فى سبيل القضاء على الواقع التاريخى الحى ، ولإثارة دعوة الإقليمية والتفرقة العنصرية على أساس من أصول الأمم الشرقية القديمة قبل أن يصهرها الإسلام فى بوتقة الاسلام والعروبة . وقد حملت الدعوة الفينيقية إلى لبنان الدعامات الاستعمارية لعزل اللبنانيين عن العروبة ، وللقول بأن اللبنانيين هم أحفاد الفينيقيين القدماء الذين كانوا سكان هذا الساحل قبل أن يأتى العرب وأنهم تاريخيا ليسوا عربا وإنما هم خليط من أبناء الفينيقيين وأبناء الإمارات الصليبية وأن مصلحتهم الاقتصادية والحضارة تحتم عليهم أن ينشئوا كيانا خاصا غير عربى وأن يمارسوا دورهم الخاص محايدين ، الفينيقية واحدة من تلك الدعوات الفرعونية والآشورية والبربرية التى أذاعها النفوذ الاستعمارى فى العالم العربى وغذاها وجند لها نفرا من المفكرين والمثقفين الذين تخرجوا أساسا من جامعات الارساليات ومعاهد التبشير ، وقد حمل لواءها الحزب القومى السورى الاجماعى حين دعا إلى (سوريا الطبيعية) والأمة السورية ، وسوريا للسوريين والسوريون أمة تامة ذات حدود طبيعية وقد ردد الكتاب الفرنسيون هذه المعانى محاولين إثارة الشبهات بأن اللبنانيين ليسوا عربا وأنهم والسوريون فينيقيون ومن لم يكن منهم فينيقيا فهو من أحفاد الصليبيين الذين قدموا إلى سوريا ولبنان من مختلف أقطار أوربا ولاسيما فرنسا(١) .

وقد أشار أحد الباحثين العرب مصححا لهذه التيارات فقال : إن الفينيقية إلى الاستعمار الفرنسى فى لبنان تكون فيها حركات النشر عن طريق المدارس والمعاهد والصحف أوسع نفوذا ، مما أنشأ فى لبنان اليوم تيارا يدعو إلى عزله لبنان من العالم العربى وكان أغلب دعاة هذه الدعوة متعاونين مع الاستعمار العربى ، وهى التى حملت لواء الكتابة بالعامية اللبنانية والدعوة إلا كتابة العربية بالحروف اللاتينية وتغليب اللهجات .

---

١ - عبد الرحمن البزاز : بحوث فى القومية العربية

الفرعونيه

الفرعونية إحدى دعوات الإقليمية وتمزيق الوجود العربى قومية والإسلامى فكراً ، ولقد جرت الدعوة إلى الفرعونية وبلغت امداً بعيداً وخلفت مدرسة عاشت فترة ولكنها فشلت فى أبسط بسائط الدعوات ، فشلت فى أن تجد أرضية تنبعث منها،حيث لم تجد تراثا،فلكوريا أو قيماديقية أوأخلاقية أو اجتماعية أو عملا أدبيا مكتوبا ، أما حضارتها فقد تحجرت فى الأهرامات والتماثيل والمعابد وقد عبر الزمن بالمصريين أربعة عشر قرنا فى مجال التوجيه على النحو الذى أصبح معه ينظر إلى الوثنية نظرة كريهة ، ولا يرى فى هذه الاحجار المنحوتة إلا تاريخا يفخر به من ناحية القوة والصبر والصمود وسبق العالم كله والامم ذات النفوذ السياسى فى العصر الحديث بقرون إلى مجال المدنية .

لقد كان هدف دعاة الفرعونية إدخال مفاهم الوثنية الفرعونية المرتبطة بالوثنية اليونانية وغيرها وتجديد عبادة البشر والابطال بعدأن صرف عنها المسلمون القرآن الذى أعلى من شأن الله وحده ، وكرم البطولة فى معانيها وقيمها وليس فى أفرادها ودعاتها .

وقد كشف كثير من الباحثين وخاصة مؤلف (قناع الفرعونية) مخاطر الدعوة الفرعونية وقال أن أول ما تبادر إلى الذهن أن فرعون هناليس إلا رمزا لنوع من الحكومات الإستبدادية البائدة،فالفرعونية أذن هى نوع من النظم التى تنهض على الحكم الاستبدادى الجائر ، وتساءل : هل يستطيع المصرى المتشوق للحياة الصحيحة أن يجد فى شعار الفرعونية من قوة الدفع إلى الحرية والمساواة ما يجده المسلم فى كلمة الاسلام وخلص إلى القول بأن الفرعونية لم تكن نظاما إجتماعيا ولا قوة دافعة إلى الحرية والمساواة ، وأن المصرى المتشوق للحياة الصحيحة لايجد فى شعار الفرعونية من قوة الدفع إلى الحرية والمساواة ما يجده المسلم فى كلمة الإسلام فاذا لم تكن الفرعونية نظاما إجماعيا ولا قوة دفع إلى

الحرية والمساواة فكيف تكون فى النهاية ، انه مع إنفتاح كل قيد جديد تبدو مرئيات ذلك الكابوس الفرعونى الخانق والتى تتحرك معها ذكريات عصور وأحقاب أجدها الظلام الاجتماعى والتخلف العقلى .

كما كشف المولف عن مفهوم التوحيد المزعوم عند الفراعنة(١) ...

وقد تحررت الثقافة العربية فى سرعة عجيبة من أخطاء الدعوة الفرعونية وسقطات كلمات طه حسين الذى حمل لواء هذه الدعوة حين قال : أن الفرعونية متأصلة فى نفوس المصريين ، ولا يطلب من أن تتخلى عن فرعونيها ثم كـذبته الأحداث والوقائع حين قال : مصر لن تدخل وحده عربية » .

---

(١) قناع الفرعونية الأستاذ أحمد صبرى .

القوميه (الضيقة)

« القوميه » تيار غربى ظهر فى القرن الماضى فى أوربا فى ظل تحديات مختلفة واجهت الغرب من خلال مراحل النهضة والتطور والحضارة والاستعمار، خروجا من قيود الكنيسة وسلطان نفوذ أمراء الإقطاع ، وغلبة مبدأ الدولة وظهور مفهوم الأمة وفى محاولات للترابط بين الأجزاء فى محاولتين قوميتين هما القومية الايطالية والقومية الجرمانية.

وقد قامت القومية الغربية على مفاهيم حددتها تلك الظروف والتحديات ، وفى العالم العربى ، عندما سقطت الوحدة العثمانية العربية ، برزت الدعوة إلى « العروبة » ، وحاولت أن تستكشف مفاهيمها المستمدة من أوضاعها وتحدياتها الخاصة ، غير أن الاستعمار حاول أن يستفيد من الدعوة وأن يوجهها لخدمة أهدافه، وأن يحتويها ، أو يحرف مفاهيمها ويفرض عليها مفاهيمه الغربية رغبة فى إخراجها عن المضمون الأصيل المستمد من جوهر قيم الأمة العربية ومفاهيمها وتراثها .

وكانت المحاولة الأولى التى حاولها النفوذ الاستعمارى هو أن تكون القومية إقليمية ضيقة ، وأن تنحصر فى مفهوم الوطنية لاتتعداه ، وفى هذه المرحلة طرح التغريب دعوات القومية المصرية والقومية السورية ، وحاول أن يجعل لهذه الاقليميات فلسفة فأثار الفرعونية والآشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ، وحاول عن طريق آخر أن يحطم كل وحدة أكبر ، فأثار الخلاف بين المسلمين والمسيحيين ،وبين السنة والشيعة ، وبين الدروز والموارنة ،وبين العرب والبربر وبين العرب والأكراد وهكذا .

فلما فشلت كل هذه المحاولة ، وبرز مفهوم الوحدة العربية جامعاً قوياً فى مواجهة النفوذ الأجنبى عمدت حركة التغريب إلى تفريغ هذا المفهوم من قيمة ومقوماته فظهرت الدعوة إلى (قومية منفصلة عن التراث والثقافة) بحجة أن هذا التراث وهذه الثقافة إسلامية أصلا ، وبرزت الدعوة إلى قومية علمانية ، غير أن هذه الدعوى وإن استمرت فإنها لم تحقق أى نجاح، ذلك لأن الأمة العربية لاتستطيع أن تنفصل فى حركتها الفكرية والاجتماعية عن قيمها الأساسية .

وإن الاسلام الذى هو منطلق مزاجها النفسى والعقلى ليس دنيا بمفهوم الدين الذى عارضته القوميات الأوربية ولكنه دين وثقافة وحضارة ومنهج حياة وإن أكبر عوامل القومية وهى اللغة والتاريخ لاتستطيع فى الثقافة العربية أن ينفصل عن مفهوم الإسلام الأوسع ، كمصدر أساسى للفكر ومنهج للمجتمع .

وقد اعترف كتاب الغرب بهذه الحقيقة ولم يجدوا مفراً من تسجيلها ، يقول ولفرد كانتول سميث أنه لم تقم حركة وطنية فى العالم العربى إلا وكانت الروح الاسلامية أساسها ، وإن تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء ، وما لم يكن المثل الأعلى إسلاميا على وجه من الوجوه لن تثمر الوحدة .

وقال هاملتون جب : أن العرب متمسكون بلغتهم وأدبهم ومعنون بمجد الإسلام ، كما أكد كثيرون « أن العرب لا يفكرون بإبدال صرفهم بالحروف اللاتينية ، أو أن يتنحو عن لغة القرآن التى تربطهم بالعالم الاسلامى كافة » «وأن الروح الاسلامية ستبقى تسود بلادهم وتتقدم أبداً بلا كلل ولن يطرأ عليها أى ضعف أو وهن » .

وقد تأكد أن الصلة بين الفكر الاسلامى وحركة المقاومة الوطنية قوية ثابتة ، وأن كل ثورات المقاومة للاستعمار نشأت من أحضان المساجد ، وأن ثورة ١٩١٩ فى مصر بدأت فى ساحة الأزهر الذى كان مصدرها ووقودها ، وأن الذين حملوا لواء التحرر الاجتماعى نفسه كانوا من المفكرين الإسلاميين .

وقد كشفت ثورة الجزائر عن مدى أهمية هذا اللون من النضال وعمقه فى سبيل تحرير أرض المسلمين ومقاومة أى غزو أجنبى .

ويقرر كثير من المراقبين المنصفين أن أزمة القومية العربية إنما تتمثل فى ذلك الجفاء المصطنع بينها وبين الفكر الاسلامى ، وقد حمل بعض الدعاة لواء قومية علمانية على الطراز الأوربى وفق مفهوم الدعوة الطورانية وماحمل لوائة الاتحاديون فى تركيا ، وهو ما لا يجد فى الأمة العربية تقبلا ولاتقديرا .

ويقول الأستاذ جبريلى فى كتابه اليقظة العربية فى هذا المعنى : كان الاسلام ثورة عظيمة فى تاريخ العرب فمنه أستمد العرب قوة وهو الذى حفظ لهم لغتهم

والعرب لا يستطيعون فهم تراثهم القديم الذى هو جزء من حاضرهم إلا إذا فهموا الاسلام ، والمفكرون القوميون يرون أن الاسلام يمد العرب بخصائص خلاقة » .

ولقد حاول الكثيرون التصدى لمدى العلاقة بين الدين والقومية، وبين الاسلام والعروبة ، ولاشك أن مفهوم العروبة لا القومية فى الثقافة العربية والفكر الاسلامى هو مفهوم حضارى جامع ، يقوم على أساس تعاقد روحى واجتماعى عميق، دون أن يحمل معه أى معنى من معانى الاستعلاء بالجنس ، أو العداء للأجناس الأخرى ، بل على العكس من ذلك يؤمن بالانفتاح والالتقاء مع القوميات الأخرى ، التى يجمعها معها وحدة فكر وأصـــول ثابتة ، لا سبيل إلى تجاهلها أو نكرانها . ومن هنا فقد عجزت كل المحاولات فى أن تجعل من العروبة أن تكون مناقضة للإسلام أو مصادمة للأمم الاسلامية غير العربية .

ومع أن الاسلام ليس ديناً فحسب، حتى يقول دعاة النظرية الغربية بأنه لا يشترك فى مقومات العروبة ، فإن النظرة السريعة إلى القوميات الأوربية تكشف عن أنها لم تنفصل عن دينها ، فالبروتستانتية جزء لا يتجزأ من القوميات الهولندية والانكليزية ، بينما الارثوذكسية جزء أصيل من القوميات اليونانية والبلغارية والاسلام كان ولا يزال جزءاً أساسيا من القوميات التركية والايرانية والأفغانية والعربية والباكستانية والأندونيسية .

و يجد العروبة أن كل دعاة (علمانية القومية) من غير العرب الأصلاء فكراً ومن الذين تعلموا فى معاهد الارساليات والتبشير ، أما الذين عرفوا أصالة الثقافة العربية فقد ربطوا بين العروبة والثقافة العربية المستمدة من الفكر الاسلامى وهناك عشرات منهم لهم كتاباتهم وقصائدهم التى تؤمن بأرضية الاسلام الحضارى والثقافى للوحدة العربية ، بل أن البعض قد وصل إلى حد القول بأنه ليس من العروبة التنكر للإسلام ، أو التفتيش عن بعث عربى بغير دين العرب .

ويقظة الفكر العربى تؤمن بأنها لا تستورد المفاهيم ولكنها تصنعها من واقع أمتنا ووجودنا بل أنها لتؤمن بأكثر من ذلك ، وهو النظر بعين المراجعة والحذر إلى كل ما يصلنا من تفسيرات خشية أن يكون مصدرها محاولة التغريب والغزو الفكرى لصهرنا فى ثقافة الاستعمار ومفاهيمه .

المـادية

يقوم المذهب المادى على أساس المحسوس وحده ، منكراً ماسواه من عالم الغيب (الميتافيزيقا) إنكارا تاماً ، وتقوم النظرية المادية على إعتبار الكون موجود بنفسه ، وقديم وغير منته ، (وهو ما يخالف حقائق الأديان المنزلة) والمذهب المادى ليس علما خالصا ولكنه فلسفة تقوم على الافتراض ، ذلك لأنها تتصل بالجانب غير المحسوس ، وهو جانب يتحاماه العلم لأن أنابيقه لاتستطيع أن تضعه فى مجال التجربة ، ومن هنا فان التعارض بين المذهب المادى والواقع ليس خلافا بين الدين والعلم ولكنه خلافا بين الدين والفلسفة .

وحين يفترض الفلسفة المادية إنكار وجود الله والأنبياء والبعث والجنة والنار وغيرها إنما تختلف مع العلم الذى قد حدد عمله فى دائرة المحسوسات ولم يدخل فى الخلاف مع الأديان ، ومن هنا فان النظرية المادية لا تجد سنادها من علم أو تجربة ، أو برهان أو قياس ، ولكنها تجدد نظرية قديمة عرفها الاغريق القدماء .

أما العلماء فانهم بعد أن تحطمت الذرة قد أصبحوا يقررون أن هناك وراء هذا الكون المادى المحسوس عالم آخر ، ويقررون أن هناك حقيقة كامنة وراء المظاهر ، وأن الكون ليس حقيقة فى ذاته وليس هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة وأن هذه المفاهيم كلها قد وصلت إلى القول بأن ليس من شك فى أن قوة مدبرة مفكرة هى التى أبدعت الكون ، وقال أرنست رارز فورد ، أن نظرية المادة قد هدمت وان الذى هدمها هو ماثبت من أن الذرة تتكون من الكترونات (كهارب) تدور حول (بروتونات) على نظام يحاكى النظام الشمسى ، وأن المادة لم تعد ثابتة لقد أصبحت تتحول إلى طاقة والطاقة تتحول إلى مادة .

ويقول الدكتور محمد خليل من الخالق : أن الاساس الذى قامت عليه المذاهب العلمية فى القرن ١٩ قد انهار وأصبح العلماء الآن يتكلمون عن الكون وعن الإنسان وعن الحياة ، والان يكشف العلم عن ميادين جديدة

تبحث عن الأرواح واصل المادة وغاية الوجود ، ان مذهب داروين فرض وليس حقيقة وهو قابل للنقض .

وعندنا أن الخطأ هو فى التوسع فى إطلاق لفظ العلم على آراء الفلاسفة وفروض علماء الطبيعة ومن الحق أن يقال أن نظرية داروين قد استغلت استغلالا بشعا لتدمير قيم الأديان ومفاهيم الروحية ، وإثارة الشبهات حول حقيقة وجود الله والوحى والنبوة وغيرها ، وكان الهدف من استغلال النظرية أشاعه روح الالحاد والاباحة ، والتأثير فى مفاهيم الأخلاق والاجتماع .

وقد استغل هؤلاء الفلاسفة نظرية التطور وأخرجوها الى مجال هذه العلوم فى محاولة القول بأنه لا يوجد شىء ثابت وان كل شىء يستحيل ويتطور ويتحول من حال الى حال ، وأن من ذلك الدين والأخلاق . وهى نظرية خطيرة تغرى إلى دعوة الصهيونية المتدفعة الى تدمير القيم والحضارات فى طريقها إلى السيطرة العالمية .

وتقف الفكر الاسلامى من المادية موقفاً واضحا فهو يقرر أن الانسان مركب من بدن ونفس وجسم وروح ، وأن البدن من عالم المادة لأنه يمتاز بالخصائص المعروفة للأجسام أما النفس أو الروح فانها من عالم آخر يختلف فى خصائصه عن المادة والاسلام فى جوهره ثنائى يقر بوجود الله ووجود العالم وبوجود الدنيا والآخرة ، والروح والجسد ، والنفس والبدن ، وهو لذلك وهو يدعو الى الاقبال على الدنيا وتنمية الحضارات وبناء الأعمال المادية ولكنه يجعل هدفها انسانيا عاليا ولا يجعل مفهومها المادى هو كل غايتها .

وقد ذهب غلاه المادية الى القول بأن المادة هى كل شىء ، وهى أصل العقل والشعور ، آمنوا بأن المادة لا تنقسم ، وهو ما سموه الجوهر الفرد ، غير أن مفاهيم العلم تطورت وقلبت مفاهيمهم وحطمت نظريتهم حيث أثبت العلماء أن الذرة قابلة للتجزئة ، وأن المادة تصبح طاقة ، والطاقة تصبح مادة ، وأصبحت المادة والطاقة مظهرين لشىء واحد .

وكذلك واجهت نظرية المادية التاريخية والمادية والجدلية نقداً يشكك فى فرضيتها ويديل من غلوائها ».

وقد كان التحدى أمام فلاسفة المادية جميعاً هو نظرتهم إلى الدين والكنيسة وما يتصل بها من واقع وتاريخ ، ومن هنا جاء هجومهم على الدين ككل أما بالنسبة للإسلام فإن الموقف تختلف تماماً ، ويكفى أن الإسلام هو منشىء المذهب العلمى التجريبي الحديث .

الماسونية

الماسونية جمعية سرية أقامها اليهود للقضاء على كل القوى المناهضة لهم وفى مقدمتها الكنيسة الكاثوليكية وقد أخفوا هدفها الأساسى الذى يقوم على أساس إعادة بناء هيكل سليمان ومن هنا سميت الماسونية باسم (البنائين الأحرار) وقد خفيت هذه الغاية على المخدوعين الذين دخلوا إليها ظانين أنها دعوة إلى الحرية وأنصاف المظلومين، وقد شاعت فى دعواها العالم الاسلامى مع مخططات الاستعمار الأخرى كالتبشير وغيره ، ولم يكتشف العرب أمرها إلا بعد سقوط السلطان عبد الحميد الذى كان يعرف أخطارها منذ اتصلت محافلها القائمة فى سالونيك مع جماعة تركيا الفتاة وعملت إلى السيطرة عليها واحتوائها وتوجيهها إلى غاياتها الأساسية فى إسقاط عبد الحميد الذى وقف عثرة ضد مطامع اليهود فى فلسطين ، وكانت جمعية تركيا الفتاة الحاكمة خلال (١٩٠٩ — ١٩١٨) هى التى حققت هدف الصهيونية على أوسع نطاق كما حققت هدف الاستعمار بإيجاد مذابح دموية للعرب بواسطة الاتحاديين حتى لا تلتئم وحدة العنصرين المسلمين إلى وقت طويل .

وقد كشفت الدراسات التى قام بها الكثيرون مدى إخطار الماسونية التى استطاعت أن تقضى على كثير من الحكومات والملوك والحكام الذين حافظوا على مقومات بلادهم وحالوا دون نفوذ اليهود فيها، وكان فى مقدمة الذين كشفوا هذه المخططات السيد رشيد رضا فى مصر والأب لويس شيخو فى الشام ، ثم كان لسقوط وثائق مؤتمر بازل الذى عقده هرتزل وحضره ثلاثمائة من الحاخامات مؤكداً للرابطة الوثيقة بين الماسونية وبين الصهيونية كأداة سرية لها ، فقد جمعت هذه البروتوكولات كل ماعرف عن الماسونية من مخططات وأعمال ولذلك فقد عمدت الصهيونية إلى تكذيب هذه البروتوكولات واتهامها بأنها من أعمال خصومها ، بل لقد قام بعض العرب بمسايرتهم فى ذلك ، ولكن النظرة الصحيحة تكشف عن أن الماسونية جهاز من أجهزة الصهيونية الطامعة فى السيطرة على العالم وإقامة امبراطورية تكون القدس عاصمتها وإعادة بناء هيكل سليمان والسيطرة على العالم كله ووراثة الاستعمار الغربى .

الهدامة : المذاهب الهدامة

تعددت المذاهب الهدامة والدعوات الهدامة ، وقد حاول الاستعمار إغراء العرب والمسلمين بها وكان للصهيونية دور كبير فى حماية هذه المؤسسات ورعايتها ومن أبرز هذه المذاهب الدعوات : إلى الالحاد والإباحة والكشف وقصص الجنس وأنكار الأديان والوحى والجزاء واليوم الآخر . وقد كانت البهائية من أبرز هذه الدعوات التى ثبت أخيرا أنها نتاج صهيونى تحمل وسائل العمل له ، وكذلك الجمعيات السرية الماسونية التى انتشرت فى العالم الإسلامى خلال الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية والتى كان لها دورها فى إسقاط السلطان عبد الحميد على أثر موقفه المشرف فى معارضةأهداف الصهيونية فى الإقامة فى فلسطين ، ومن هذه الدعوات الهدامة : مذهب الروحية الحديثة التى تحاول خداع المؤمنين بالله بعد أن استوعيت الدعوات المادية غير المؤمنين وذلك حتى تتم السيطرة على المسلمين والعرب . وقد كشف الباحثون عن أخطار دعوة الروحية الحديثة وما وراءها من خلفيات صهيونية ومادية .

ومن الدعوات الهدامة تلك الدعوات التى تحمل لواء العروبة المنفصلة عن جذور الفكر الاسلامى ، وكذلك الدعوات التى تحمل لواء الأقلية الضيقة ، أو المنصرية ، أو محاولة جعل الوحدة العربية دعوة عدوانية منعزلة عن العالم الاسلامى ، منفصلة عن جيرانها من الترك والفرس والهنود .

وقد جاءت هذه النظرات من تقليد خاطىء لنظرية القومية الغربية التى قامت على أساس القضاء على نفوذ الكنيسة وإعلاء العنصر والجنس والدم مع العدوان والخصومة للأجناس الأخرى على النحو الذى عرفته النزعات النازية والصهيونية .

ولقد كان الفكر الاسلامى قادراً على نبذ هذه الدعوات الهدامة ودمغها بالخطأ ، ومعارضة الذاتية العربية الاسلامية والمزاج النفسى والاحساس العربى لهذة الدعوات التى تتمارض مع جذور هذه الأمة التى أقامت فكرها على أساس التوحيد والعدل والحرية ذات الضوابط البناءة للمجتمع والفرد .

الوثنية

يطلق كلمة الوثنية على مختلف العقائد التى لا تفرد الله سبحانه بالتوحيد من تعدد وتنسب الوثنية إلى الوثن أى عبـــادة الأحجار والأصنام ، وقد وصف اليونان القدماء (الاغريق) بالوثنية ، كما وصف بها أهل الجزيرة العربية على اختلاف فى المدى والفهم ، فقد كانت وثنية العرب ساذجة تقليدية بينما كانت الوثنية الاغريقية تقوم على فلسفة عريضة ، لها فلاسفة أمثال أفلاطون وأرسطو وشعراء أمثال اسخليوس وسوفوكليس والعقائد الوثنية متعددة منها تأليه الطبيعة (أو جزء من أجزائها كالشمس أو القمر أو بعض أنواع الحيوان) أو تالية البشر (فرداً أو أسرة أو جماعة) وذلك كعبادة الملوك والأسرالحاكمة عند بعض الأمم القديمة كالمصريين القدماء أو الحديثة كاليابان والهنود ، وكعبادة الأنبياء والأبطال والقديسين والأولياء ، ولذلك فقد حرص الاسلام على اقصاء أى نوع من أنواع التكريم المبالغ فيه للأبطال أو الصالحين حتى لا يتحول مع الزمن إلى مثل هذا النوع من العبادة وكان الاغريق يقولون بتعدد الآلهة ، فكان كل إله يمثل قوة طبيعية خاصة يديرها ويتولى أمرها ، ومن ذلك : زيوس : إله الرعد والبرق وهو كبير الالهة وديمتر إله الأرض والخصوبة ، وأفروديت آلهة الجمال وأبولو إله الشمس ، ونيتون إله البحر وهكذا ولا يفرق اليونان بين طبيعة الآلهة وطبيعة البشر ، إذ يجوز عليها ما يجوز على البشر من بغض وحقد وقسوة وشره وطمع وجبن وحب للانتقام وكانت آلهتهم لا ترى بأساً من اغتصاب زوجات الآلهة الأخرى وتتصف بالأخلاق الشريرة .

ومن العقائد الوثنيةالاعتقاد بالوهيةبعض الكائنات الخفيةوعبادتها كالملائكة والجن والشيطان والأرواح أو تأليه جزء من الانسان كالعقل ، وهناك العقائد السلبية والالحادية القائمة على أنطار الله وجوده ، وإنكار الحياة الآخرة .

ويقول الدكتور محمد البهى أن الوثنية التى يحاربها الاسلام ليس هى وثنية

---

١ ـ دكتور محمد المبارك ـ دكتور محمد البهى ـ دكتور محمد عبد الحكيم كرأرة

العرب التي كانت قائمة على تقديس الأصنام وبعض الكواكب فحسب ، بل هي وثنية الانسان على العموم وهي تقديس المشخص دون رعاية للمبدأ أو المثال ، وعنده أن الانسان دائماً في حاجة إلى معونة الدين في مكافحة الوثنية .

وقد هاجم الاسلام الوثنية وهاجم تعدد الآلهة ودعا إلى عبادة إله واحد لا يعرف شخصه ولا تحد حقيقته لأنه فوق الطبيعة وفوق ما بها من أشخاص .

وهناك إجماع على أن الوثنية وتعدد المعبود متلازمان ، كما أن الوثنية وتشخيص المعبود متلازمان .

وتختلف الوثنية العربية عن الوثنية الاغريقية في أنها لم تكن وثنية قائمة بذاتها ، وإنما كانت انحرافاً عن دين التوحيد الذي دعا إليه « إبراهيم » فقد اعتنق معظم العرب دين إبراهيم ولكنهم مع تقدم الزمن ومع تفرقهم في الأقطار كانوا يحملون معهم بعض حجارة الكعبة يتبركون بها ثم حولوا هذه الأحجار إلى أصنام وأوثان ، ومن هنا اختفى التوحيد وبرزت عبادة التماثيل والأصنام وقدمت لها القرابين ، من وثنية العرب عبادة النجوم . وقد عجزت المسيحيه بما فيها من تقاليد وما يتصل بها من عقيدة التثليث ودعوى صلب المسيح أن تجذب انتباه العرب ، أما التثليث فقد كان معروفا عند الفراعنة القدماء ، والهنود ، واليونان ، وكان الفرس يعبدون إلها مثلث الأقانيم مثل الهنود هو (أورمزاً ومترات واهرمان) ويقول (راون) في كتابه خرافات التوراة (Biblemyths) أن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديمة العهد جداً عند الهنود الوثنيين ويعتقد الهنود الوثنيين ويعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئة الأصلية . ويقول رتشارد في كتابه خرافات المصريين الوثنيين أنه لا تخلو كافة الأبحاث الدينية المأخوذة من مصادر شرقيه من ذكر أحد أنواع التثليث أو التولد الثلاثي أو اللاهوت الثلاثي وكان الهند يعبدون (تي مورتي) أي الأقانيم الثلاثة (الرب والمخلص وسيفا) والصينيون يعبدون بوذا ويسمونه (فو) ويقولون أنه ذو ثلاثة أقانيم والمصريون القدماء يعبدون (إيزيس . أوزيريس . حورش) .

فتالتثليث جاء إلى المسيحية من الفلسفة الإغريقية ،وهكذا يبدو تقارب واضح بين الوثنية والأغريقية والمسيحية الغربية (وهى غير المسيحية السمحاء المنزلة) والفرعونية ، وتشابه فى كثير من الطقوس والنظريات ، ويقف الإسلام وحده متميزا عن هذه الأديان جميعاً بطابع التوحيد الجذرى الأساسى وقد صور القرآن الكريم هذا المعنى فى قوله تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين » ومن هنا تأتى معارضة الإسلام للوثنية والشرك وللتحريف فى سبيل القضاء على الوثنية .

توحيد الأديان

ترتفع بين آن وآخر صيحة تدعو إلى توحيد الأديان ، أو على الأقل إلى توحيد الاسلام والمسيحية ، فى عام ١٨٨٣ كان القس اسحق تيلور يقوم بالدعاية لتوحيد الاسلام والنصرانية على أساس قاعدة التوحيد الموجودة فى الإسلام والموجودة عند الكنيسة الانجيلية وقد اتصل عن طريق صديق فارسى هو (فيرزابكو) بالأستاذ محمد عبده وهو فى منفاه فى دمشق،وقد تحدد هذا الموقف مرات ومرات وكان هناك من يدعى خريستفو جياره الذى كان يحل لواء هذه الدعوة فى مصر وقد هاجمه رجال الكنيسة وقال القمص سرجيوس أنه أراد أن يجعل المسيحيين مسلمين ينكرون لاهوت المسيح الذى هو أساس دينهم والذى تتركز فيه كل عقائدهم ، كما أنه أراد أن يجعل المسلمين مسيحيين يعترفون بصحة الانجيل الأمر الذى إذا سلم به المسلمون لوجب ألا يقبلوا كتابا آخر غير الانجيل وأن يعترفوا بلاهوت المسيح ، كما أنه أراد أن يجعل اليهود مسيحيين لأنه طلب إليهم أن يعترفوا بأن المسيح قد جاء الى العالم ولو اعترف اليهود بمجىء المسيح لهجروا طقوسهم اليهودية وعادتها وصاروا مسيحيين ، لأن المسيح هو محور نبواءاتهم . ومعنى هذا استحالة هذا التوحيد بين الأديان .

وهناك محاولة أخرى موضع الشك والريبة هى محاولة البهائية التى تتظاهر بتوحيد الأديان وتهدف الى هدم الأديان لتحل محلها الدين البهائى .

ومعنى هذا عبر المحاولات المختلفة أن من ورائها هدف سياسى استعمارى أو صهيونى من أهداف تلك الدعوات العاملة على تقويض المجمعات الإنسانية ، وليس فى مفهوم الاسلام نفسه توحيد الأديان دائما فيه تساندها على مقاومة الالحاد والاباحة وكشف الاعتقاد بوحدة الله والتقاء الانسانية على الخير والاخاء .

الباب السادس

التاريخ

اخوان الصفا

ليس الاهتمام بنشر رسائل إخوان الصفا وإعادة إصدارها عيباً فى ذاته ما أسديت للقارىء الحقيقة كاملة ، ودون أن تشوه هذه الحقيقة بإضفاء صفات غير صادقة على هذه الجماعة الغامضة التى عجز أصحابها أن يبرزوا أسماءهم أو يكشفوا عن أنفسهم أو يقفوا فى صفوف العلماء أو المصلحين أو الفلاسفة أو حتى دعاة المذاهب الدخيلة من أمثال ابن الراوندى والحلاج والسهروردى وغيرهم . ولكى يقرأ القارىء رسائل إخوان الصفا عليه أن يعرف من كتبها أولا فإذا وثق به وعلم أنه من أهل العلم الخالص البعيد عن الضلال أو الانحراف كان له أن يقرأ ما كتب فإن لم يتحقق له هذه الثقة فعليه أن يقرأ فى حذر على ضوء ما عرف من أمر الكاتب وأهوائه ، والإجماع بين الذين قدموا لإخوان الصفا منذ كشف أحمد زكى باشا هذه الرسائل إلى اليوم وقد تناولها الكثيرون بالبحث كالدكتور طه حسين وجبور عبد النور وعمر الدسوقى ودور النشر اللبنانية ، أقول أن الإجماع منعقداً على أن إخوان الصفا جماعة مشبوهة ليست من العلماء ولكنها من دعاة الباطنية والمجوسية والزندقة الحاقدة على الإسلام واللغة العربية والدولة الإسلامية ولهم صلات واضحة وأكيدة بالحركات المريبة التى كانت تعمل على تقويض المجتمع الإسلامى ، وقد أضفى هؤلاء الدعاة للجماعة السرية على هدفهم السياسى طابعاً على وسفيا ، بيد أن هذا الطابع لم يخف حقيقتهم ولم يحل دون بروز مقاصدهم من خلال عرضهم للنظريات المختلفة التى تكشف عن معارضة أكيدة لمضامين الإسلام وقيمه الأساسية وفى مقدمتها « التوحيد » : لب لباب الإسلام وفكره وقرآنه ودعوته .

وتؤكد مختلف المصادر التاريخية على أن « إخوان الصفا » تكونت على هيئة جماعة سرية (٣٣٤ — ٣٧٣ هـ) فى البصرة لبث آرائهم بواسطة رسائل علمية ولها صلة أكيدة بالباطنية والاسماعيلية . ويمكن القول جملة أن المنهج الفكرى الذى قدمه إخوان الصفا فى رسائلهم الجامعة ورسائلهم الاثنين والخمسين يكشف عن مجافاة أصيلة للإسلام وتلفيق كامل لكل الفلسفات الوثنية بمختلف أنواعها وفنونها : من أفلاطونية حديثة إلى فيثاغورية إلى نظريات أفلاطون وأرسطو

وأفلوطين وفيثاغورس والمجوسيةوالمزدكية والمانوية والزرادشتية جميعاً منظومة في سلك واحد في محاولة لخلطها بمفاهيم غامضة من الشريعة الإسلامية تلتقى بها مع عقائد الباطنية .

وقد وصفهم (أبو حيان التوحيدى) فى كتابه الإمتاع والمؤانسة بأنهم «عصابة وضعت منهجاً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ، وأنهم قالوا : أن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكم الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة الاسلامية فقد حصل الكمال » .

وقد وجهت إلى مضامين هذه الرسائل نقدات صريحة تكشف عن مخالفتها الجوهرية لقيم الفكر الاسلامى ووصفت بأنها تكشف عن إغراق فى الخيال واعتماد على الأفكار اليونانية من غير فحص ولا انتقاد المقومات وبحث فى كل علم من غير إشباع وإقناع ، وأبرز ما يكشف عن شعوبيتهم ومحاولاتهم لهدم المقومات الأساسية للإسلام فكرة أنهم يؤمنون بكل الأديان والمذاهب . وإذا أرادوا تأييد رأيهم وبث دعوتهم تمثلوا أنبياء الله المرسلين (موسى وعيسى ومحمد) وأضافوا إليهم اليزدان وغازيمون وأرسطو وأفلاطون ، وهم يخلطون الأديان بالفلسفات فى محاولة لبناء مذهب يلغى الأديان ويعيد الوحدة — إلى المسلم والنصرانى والمجوسى واليهودى والأفلاطونى والمشائى والفيثاغورثى — على حد تعبير الدكتور جبور عبد النور — ويجمع الذين درسوا رسائلهم أن غايتهم هى الباطنية وأنهم من الفرق الضالة الغالية التى تعمل دائماً على الاحتماء كذباً بأهل البيت ، وأن أكبر مصدر لإدانتهم أسلوبهم الرمزى وإخفاء أسمائهم ، والتحرز من ذكر الأعلام الذين يصدرون عن آرائهم وفكرهم تحفظاً من أن يكشف مذهبهم أو هواهم السياسى ، وفى كتاباتهم إشارات غامضة يستشف منها ميلا خفيا إلى المجوسية المعدلة بالوثنية الاغريقية ، وهم يرون أن عليا هو إلى طبقة الأنبياء أقرب ويفرقون بينه وبين الصحابة ويحاولون وصفه بالتفوق على الخلفاء الراشدين . كما اتسمت هذه الرسائل بالنقمة على الدولة الاسلامية والسعى إلى تحطيمها وتبرز في كتاباتهم مفاهيم الباطنية والاسماعيلية والفيثاغورثية والأفلاطونية

والمجوسية . وتخلط بين آرائهم على غير وفاق » وفى نصوصهم فقرات كثيرة ولكنها مموهة تشير إلى أن فى قرارة نفوسهم ميلا إلى الوثنية والوثنية إغريقية وبابلية وأشورية) وهم حين يوازنون بين الأديان السماوية والأرضية يفضلون الأخيرة ويسرفون فى تمجيد مفاهيمها .

ولهم آراء فى الكواكب تخالف مفهوم الإسلام فهم يعتقدون أنها السبب المباشر فى التكوين الطبيعى وظهور المادة ، وسبب ما يصيب الأجسام فوق سطح الأرض من علل وأمراض وقد لاحظ التوحيدى أنهم ينكرون البعث بالأجساد ج ٣ ص ٧٨ وج٤ ص ٤٠) ويفسرون الجنة والنار خلافاً لما تواتر عند المسلمين وينكرون الشياطين على الصورة التى يفهمها معظم المسلمين ويفسرون الكفر والعذاب تفسيراً باطنياً فلسفياً ، وتشتمل رسائلهم « على كثير من الاراء الخالية وبعضها مشتق من اليونان وبعضها وليد الأذهان وبعضها تراث الكهان كأسرار الأعداد والتنجيم والفال والرجز ، والسحر والعزائم والإيمان بطوالع النجوم وتأثيرها وموسيقى الأفلاك ونغماتها والحاقها ويشمل كذلك على عقيدة الوحى والإمام المستور والتقية ، وفيها إعداد النفوس والعقول لدولة جديدة وهى فى مجموعها شرائع من الحكمة والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة ، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية الالهية وقد كانت هذه الرسائل محاولة لوضع نظام جديد يحل محل الشريعة الإسلامية التى يعتقد إخوان الصفا أنها أصبحت عتيقه لا تؤدى رسالتها وقد أخفقت محاولة إخوان الصفا وفشلت فلم تنجح فى إقامة نظام علمى أو تنشىء مجتمعاً يقوم على أساسها لأنها خالفت جوهر الإسلام وبعدت عن المزاج العربى الإسلامى وملامح الذاتية التى أقامها الفكر الاسلامى فى الأمة التى نشرت بين أهلها وأكدت أن كل محاولة لدمج الفكر الاسلامى القائم على التوحيد بأى فلسفة وثنية ، كاليونانية أو الهندية أو المجوسية فإنه عمل لا يحقق شيئاً ، إذ لا يمكن أن يتحقق الذوبان والانصهار مطلقاً بين الفكر الاسلامى القائم على التوحيد ومختلف هذه الديانات والمذاهب والفلسفات القائمة أساساً على الوثنية والتعدد والالحاد والانكار ، وقد فشلت هذه المحاولة كما فشلت كل المحاولات التى سبقتها والتى تلتها فى خلط

الاسلام بغيره أو إضافة أجزاء منه إلى مذاهب و فلسفات أخرى ، وكشف الاسلام فى هذه اللقاءات عن ذاتية واضحة صريحة قادرة مستحيلة على الانصهار أو الذوبان فى غيرها محتفظة بطابعها وذاتيتها وجوهرها ومزاجها حتى فى أشد الفترات ضعفاً وتخلفاً .

وجملة القول أن محاولة إخوان الصفا والباطنية فى خلط الاسلام بأهرمين والبرذان وأفلاطون وأرسطو وغاذيمون ، أو خلط الفكر الاسلامى بالالهيات اليونان أو كتب الأديان الأخرى أو كتب الطبيعة والكواكب أمر غير متحقق لجوهر الاسلام مستحيل على الانصهار أو الخلط .

الاسرائيليات

من أخطر التحديات التى واجهت الاسلام والفكر الاسلامى والثقافة العربية ظاهرة « الاسرائيليات » وهى إضافات خطيرة ونظريات مستمدة من نصوص قديمة ، وثنية ومجوسية من خارج مفهوم الاسلام وذاتيته المختلفة عن الأديان والفلسفات ، تسربت مع الزمن وقصد إلى إضافتها خصوم الاسلام وأعدائه رغبة فى عزله عن جوهره الأصيل وقد شكلت مع الزمن قشرة صلبة أو حاجزا خطيراً عازلا عن مفهوم الاسلام فى بساطته ووضوحه ويسره وإيجازه ، وأضافت تفاصيل كثيرة باطلة وتوسعات عديدة تتعارض أساساً مع مفهوم الاسلام القائم على التوحيد ، والمتصل الواضح الصريح للغيب والايمان بقواعد القرآن ونهجه ومنطقه فى مواجهه مختلف القضايا والأمور السابقة وغير المنظورة وخاصة ما يتعلق بعالم الغيب وما وراء العالم المحسوس ، وفيما يتعلق بالعـــالم الاخر والتاريخ القديم السابق على الاسلام وتاريخ الأمم السابقة والمجتمعات وأحداثها

وقد أضيف إلى الاسرائيليات مع تطور الفكر لاسلامى إضافات أخرى تسربت من الفلسفات لليونانية والهندية والديانات الفارسية وغيرها مما كون حصيلة ضخمة إستعملها الشعوبيون وأعداء الإسلام والعرب فى القديم سلاحا لتحويل الأنظار عن مفهوم الاسلام وجوهره وإخراجه عن مضامينة وإتاحة الفرصة لمفاهيم الوثنية والثنائية والتثليث لغزوه .

وقـد واجه المفـكرون المسلمون هـذه الدخائل الإسرائيلية الباطنية والمجوسية وغيرها وفندوها وكشفوا عنها وفى مقدمة من تولى ذلك : الجاحظ (البيان والتبيين) القاضى بن العربى (العواصم من القواصم) وابن الجوزى (تلبيس إبليس) كما واجه هذه القضايا ابن حزم والغزالى وابن خلدون وعرضوا لاراء الباطنية والمجوسية والمزدكية والمانوية وغيرهم ويطلق علماء المسلمين كلمة إسرائيليات على جميع العقائد غير الاسلامية ولاسيما تلك العقائد والأساطير التى دسها اليهود والنصارى فى مفاهيم الاسلام ، وفى مقدمة هذه الاسرائيليات تلك الاضافات للنصوص الثابتة أو التفسيرات للآيات القرآنية والتوسع فى أوصاف

الملائكة الجنة والنار والحشر ويوم القيامة وتصويرها تصويرا حسياً .

وقد أفرد ابن خلدون فى مقدمته فصلين لدراسة هذا الموضوع ، وأدرك أهمية هذا النوع من التنبؤ فى تاريخ الاسلام ، وكان فى مقدمة من نعى عليه وشهر ببطلانه .

وهذه التنبؤات هى التى أضافتها الاسرائيليات فما يتعلق بالمهدى المنتظر أو رجعة المسيح أو ظهور المسيح الدجال ، وكل هذا الأمور وغيرهما مما لاسند لها من القرآن أو الحديث الصحيح .

وقد بدأ تكون هذه الحصيلة عندما حاول المفسرون المسلمون سؤال أحبار اليهود عن ما يوجد فى كتبهم من إشارات إلى بعض المسائل الى أوردها القرآن ثم نقلوا ما كانوا يسمعونه على أنه استرشاد أو توضيح ثم لم يلبث أن تحول إلى ما يشبه القضايا المسلم بها .

وفى عصر الضعف ومرحلة التخلف وفترة التجميع ظهرت كتب كثيرة لم يكتبها علماء محققون ، جمعت أحاديث منحولة وأكاذيب ومفتريات مدسوسة على الدين ، وفى مقدمة هذه المؤلفات بدائع الزهور والعرائس فى القصص والأخبار .

وقد ارتفعت الأصوات بالدعوة إلى غربلة هذه الكتب حرصا على مقاومة الخطر الذى تنفثه فى جمهور العوام وإنصاف المتعلمين .

وكان لدائرة المعارف الاسلامية وللمستشرقين إهتمام بالغ بأمثال كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وهم الذين أشاعوا الاسرائيليات فى صدر الاسلام ، وكان علماء المسلمين يسألونهم بوصفهم من أهل الكتاب عما عندهم فى مثل قضايا بدأ الخليقة وشأن الأنبياء والأمم القديمة ، ولم يكن هذا الا من باب التعرف إلى الشبهات والتحرز من الوقوع فيها ، غير أن بعض الرواة جمع مثل هذه الاراء أمثال السدى والكسائى والثعلبى والخازن والطبرى وسجلوها فى مؤلفاتهم ،فالتصقت بتفسير القرآن الكريم ، وقد عارض المفكرون المسلمون هذا الاتجاه وشجبوه وفى مقدمتهم العلامة ابن خلدون ،غير أن دائرة المعارف الاسلامية وكتابها جميعا من خصوم الاسلام فتعلت هذه الاراء وبوبتها وعدتها مصادر صحيحة وجاء جولدزيهر وهو من خصوم الاسلام فدافع عن كعب الأحبار وزملائه .

الإغريق واليونان

كلمات متعددة تمثل طقساً فكرياً معينا وتوحى إلى مناخ ثقافى له طابعه ومفاهيمه وتكشف عن عالم له قيمه ومقوماته : هى الاغريق واليونان ومنها اشتق اسم المذهب الفكرى « الهلينية » التى هى بمثابة النمط الثقافى الذى يتجلى فى المثل اليونانية أو اقتباس اللغة والفكر اليونانى والتزام المثل اليونانية العليا.
وترجع أهمية الدراسات المتصلة بالإغريق واليونان والهيلنية إلى ارتباط الحضارة الغربية الحديثة بالجذور اليونانية والاغريقية واعتبارها من مصادرها الأساسية ، فقد سقطت اليونان تحت حكم الرومان ١٤٦ ق . م وقد تبقى الرومان حضارة اليونان حتى سقطت الدولة الرومانية فى القرن الرابع المسيحى ، ودخلت أوربا فى فترة القرون الوسطى المظلمة التى كانت كذلك بالنسبة لأوربا وحدها ، حيث ظهرت أضواء الإسلام فى القرن السادس المسيحى ولم تلبث أن عمت العالم كله ووصلت إلى أوربا واستقرت فى الأندلس وجنوبى فرنسا وإيطاليا وكانت هى الشرارة التى أوقدت عصر النهضة ومن جذور المذهب العلمى التجريبى الاسلامى تكونت الحضارة الحديثة هذه الحضارة التى حاولت أن تنفى عن نفسها مؤثرات الفكر الاسلامى فى نفس الوقت الذى ارتبطت فيه بالاغريقية القديمة واعتبرتها مع المسيحية الوافدة من الشرق - بعد أن تحولت إلى طابع غربى وإطار للحضارة الغربية - مصدراً لها .

وقد ركز الفكر الغربى على التراث الاغريقى وابتعثه مجدداً واعتبره مصدراً أساسياً له ، ومن هنا فقد عنى المتصلون بالفكر الغربى عناية كبرى بالاثار اللاتينية والاغريقية والهيلنية واحتضنوا نظرية لم تتأكد لا تاريخيا ولا علميا بأن للإغريق واللاتينية أثر كبير فى الفكر الاسلامى وهى نظرية طالما رددها المبشرون والمستشرقون ودعاة التغريب فى محاولة لخلق تصور عربى إسلامى بأن القيم الاسلامية لها ركائز من الفكر الهلينى .

ومن الحق أن يقال أن الفكر الاسلامى قد تكاملت قيمه ومقوماته فى حياة الرسول ومع آخر آية من آيات القرآن الكريم وأنه لم تجر إضافة أى شىء إليه من بعد وإلى اليوم ، وإن كان هذا الفكر بطابعه فى الانفتاح على الثقافات

المختلفة قد أخذ وأعطى ورفض فى مجال المناهج والأساليب واستطاع أن يهضم كثيراً ماوجده فى ثقافات وفلسفات الأمم المختلفة بعد أن ساغه وصهره فى بوتقته. وشأنه بالنسبة للفكر الهلينى وشأنه بالنسبة للفلسفات الفارسية والهندية والمسيحية وغيرها.

أما موقف الفكر الاسلامى من الفلسفات اليونانية والتراث اليونانى فقد كان واضحا، إذ ترجم العلماء المسلمون الفلسفات العلمية والطبيعية وعلوم الفلك والحساب والطب وغيرها واعرضوا عن الاداب والشعر، ولما ترجمت الفلسفة الالهية وهى علم الأصنام عند الاغريق والوثنيات وقف منها المفكرون المسلمون موقفاً صريحاً فى المعارضة والرفض، وكان شأنهم فى كل ما تفعلوه أمرين أولهما أنهم أداروه فى أطار التوحيد والنبوة ورفضوا الثنائيات وعبادة الالهة والأصنام والوثنيات جميعاً وثانيهما أنهم أساغوه وصهروه فى بوتقتهم، وأحالوه إلى جوهر فكرهم دون أن تغير شيئا من قيمهم أو مفاهيمهم.

ولكن الغزو الفكرى وحركة التغريب حاولت محاولات ضخمة أن تفرض على الذوق العربى الاسلامى والمزاج العربى الاسلامى تصورات إغريقية ويونانية لها طوابعها الخاصة المستمدة من بنيانها وقد فشلت هذه المحاولة فى أن تغير من جوهر القيم الأساسية للفكر الاسلامى القائمة أساً على التوحيد، ذلك أن الفلسفات اليونانية الاغريقية قد تتلاقى مع الفكر العربى الحديث ومع المسيحية ومع اليهودية والتوراة، ومع الفرعونية والمجوسية الفارسية بحكم قاسم مشترك أعظم بينها، يكاد يوجد عنصر الالتقاء والتقارب والتشابه خاصة فى مجال الأساطير حتى بين نظرية إيزيس وأوزوريس وحورس وبين نظرية التثليث، يقول العلامة توينبى(١) أن شخصيتى إيزيس وسيبيل تظهران فى المسيحية مرة أخرى فى تجلى السيدة مريم فى شخصية أم الاله الكبرى، كما تشاهد تقاطيع إله الشمس فى الصورة ذات الطابع الحربى الذى يبدو وفيها المسيح فى بعض الأحيان.

---

(١) ج ٣ توينبى : مختصر دراسة التاريخ

ويمكن القول بأن المثل الأعلى فى الاسلام يختلف اختلافاً جذرياً عن المثل الأعلى اليونانى الذى ارتبط إلى حد كبير بالفلسفات الفرعونية والمسيحية وأبرز هذا الخلاف يتمثل فى التوحيد الاسلامى (لا إله إلا الله واحداً أحداً هو رب كل شىء) والانسان سيد الكون تحت حكمه وإرادته ، بينما فى المفهوم الاغريقى يوجد عشرات الالهة، التى تتصارع وتتقاتل وحيث يبدو الانسان هو سيد العالم وحيث يعبد جماله الجسدى ويؤلهه وحيث يصارع الانسان الالهة وينتصر عليها وحيث تفعل الالهة الشر ، يقول أنيش فريحه « أن الهتكم لا تتميز عن البشر إلا بقوتها وإلا بخلودها وعدم فنائها مع الزمن وهى فيما عدا ذلك كعامة الناس تماما تحسد وتغار ، وقد وزع اليونان السلطات بين هذه الالهة ، ووجهوا عنايتهم إلى تمجيد ودراسة الجسم الانسانى فأعطوا الالهة شكله ومثلوها به . ويرتكز المثل الأعلى اليونانى على أن الانسان هو مقياس كل شىء فى هذا العالم .

ويعتقد اليونان أن نصيبهم أوفى من نصيب غيرهم من حيث جمال الأجسام ومن هنا نشأ طابع الحضارة الاغريقية والثقافة الهيلنية وهو تمجيد وتأليه الجمال الجسمى ، ويضيف أنيس فريحه هذه الالهة بأنها تسرح وتمرح على جبل أولمبوس وتتصرف تصرف البشر فقد كانوا يحبون ويكرهون ويقتلون ويسرقون ويخطفون نساء بعضهم بعضا ، وبعبارة أخرى كانت آلهة اليونان أناساً ولكنهم جبابرة ذوى بأس يتصفون بكل ما هو جميل وبكل ما هو بشع ذميم ، كانوا أناساً يقتدى بفضائلهم ويهزأ برزائلهم ، ولذلك لم يشعر اليونانى أمام ربه أنه عبد ذليل بحاجة إلى الرحمة والشفقة بل ظل سيد نفسه متيقن أنه سيد الأرض وأن الحياه نهب له ولعبقريته ولم ير فى الكون قوة تسحقه » .

وهذه العبارات من كاتب معجب بحضارة الاغريق وبأسلوب مهذب كثيراً فى تصوير مدى هذه العلاقة بين الالهة والبشر لتكشف عن فهم مختلف كل الاختلاف وبعيد كل البعد ، عن مفهوم المسلمين والعرب فى علاقتهم بالله ، هذا الخلاف الجذرى بين الفكر اللاتينى والفكر الاسلامى ينسحب ويمتد من هذه النقطة إلى كل القيم والمفاهيم الاجتماعية والسياسية والدينية ويشكل خلافاً واضحاً بين مفهوم الاسلام ومفهوم الفكر الهلينى ومن هنا فإنه من العسير على الدعاة

إلى إفراغ الفكر الاسلامى أو الأدب العربى فى قوالب الفكر الغربى أو الفلسفة الهلينية أن يحققوا شيئاً ، وهذا العصر الذى يواجه دعاة التغريب اليوم ، إنما هو صدى للموقف الذى وقفه المفكرون المسلمين من الفكر الهليني عندما ترجم إلى اللغة العربية فى القرن الرابع الهجرى وأحدث سجالا عنيفاً وصراعاً ضخماً ، فى محاولة الفلاسفة المسلمين : الكندى والفارابى وابن سينا لتأصيله أو لاسلامه ، وهى المحاولة التى حاولها الفلاسفة الثلاثة لصهر الفلسفة اليونانية فى بوتقة الفكر الإسلامى وإطار التوحيد وقد كانت محاولة جد فاشله فقد استصفى الفكر الاسلامى من ذلك التراث القديم ما وافق مقوماته ورد الباقى وجاء الأعلام العمالقة : ابن حزم وابن تيمية والغزالى فكشفوا عن مناهج الفكر الاسلامى اقادرة على أن تؤدى ماحاول الفلاسفة التماسه من الفكر الهليني وانتهت دورة ضخمة من دورات الفكر الاسلامى إلى التماس مفاهيم الاسلام والتحرر من الآثار التى حاول أن يفرضها الفكر اليونانى الوثنى وقد رفض الفكر الاسلامى مبدأ التبعية للفلسفات اليونانية والفارسية والهندية وعدل انحراف المعتزلة وأهل الكلام كما عدل مذاهب الفلاسفة المتصوفة الذين أدخلوا مذاهب وحدة الوجود والحلول والاتحاد وكلها مذاهب لها صلة بالفكر الهليني .

وبالجملة فلقد ظل كفاح المفكرين المسلمين مستمراً أكثر من ثلاثة قرون فى سبيل تحرير الفكر الاسلامى بين هيمنة الفلسفة الهلينية والهندية والفارسية القديمة .

وبالجملة فقد رفضت العقلية الاسلامية الفلسفة اليونانية الالهية أما فى مجال الطبيعات والعلوم الرياضية فقد صححت أخطائها وحولتها إلى منهج أصيل مستمد من جوهر القرآن ومفهوم الاسلام للعلم كما حررت علم النجوم من النظرة الغيبية ، كما صححت أضخم النظريات اليونانية فى مجال العلم كأقليدس والطب .

ولعل أبرز ما قاومه الفكر الاسلامى من الهلينية هو نظرة الالحاد والثنائية والوثنية والاباحة ، وهى المظاهر التى ورثها الفكر الغربى والحضارة الغربية والتى يحاول دعاة التغريب فرضها من جديد على الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى بإعادة ابتعاث المسرحيات اليونانية والأدب الاغريقى على النحو الذى

جرى عليه طه حسين وتلاميذ التبشير والتغريب بحسبانه سلاحاً يراد به القضاء على جوهر الفكر الاسمى ومفهومه الأساسى (التوحيد) .

والقول الحق فى هذا المجال أنه ليس من شأن الفكر الاسلامى وهو فكر له أصالته وتاريخه وحضارته أن يلتمس مقاييس الفكر الغربى أو الأغريقى فى تعليل الكون أو فهم الحياة ، ذلك أن الفلسفة اليونانية ومفاهيم الوثنية إنما تتنافى مع التوحيدوالنبوة وتعارضها على خط مستقيم وتحمل طابع السخرية بالدين والوحى وأبرز مفاهيم اليونان التفرقة بين السادةوالعبيد فى المجتمع : واستخدام الرقيق ليقوم بالعمل بينما ينعم السادة بثمار الجهود وهو المفهوم الذى قامت عليه الحضارة الغربية وتوسعت من بعد من خلال الفردية والجنس الأبيض ومفهوم النخبة والصفوة .

البطولة

البطولة قيمة من قيم الفكر والمجتمعات الإنسانية ولكنها كمختلف القيم الأساسية لها فى كل فكر ومجتمع مفهوم ، فللغرب مفهومه للبطولة الذى يختلف عن مفهوم الإسلام والفكر الاسلامى . وفى الغرب اليوم مفهومين للبطولة : مفهوم الفردية ومفهوم الجماعية أو مفهوم الديمقراطية ومفهوم الماركسية : فالمفهوم الأول يستمد أسسه من تقدير الفرد وإعلائه وتخليده على النحو الذى يذهب به إلى أعلى درجات التقدير ومنها إقامة التماثيل وتأليف الكتب والاحتفالات السنوية بمناسبات المولد والوفاة ، وهذا المفهوم يؤمن بأن البطل يصنع التاريخ ويعبر عن روح العصر ، وليس ثمرة الأحوال الاجتماعية أو المادية وأن كل عصر يظفر بالبطل الجدير به . ومن ثم فان الرجل العظيم إبان أن يوجد فى إبان الحاجة إليه كما يرى هيجل ويرى كارليل إلى أن التاريخ العام فى اعتقاده هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء فهم القادة والأئمة وهم المبدعون لكل ماوفق إليه أهل الدنيا والبطل عنده لا تصنعه الحوادث ولا تخلقه الأوهام .

وهناك النظرية الاجتماعية فى البطولة وترى أن الرجل العظيم قبل أن يصنع المجتمع فان المجتمع هو الذى يكونه ويصنعه ، وأن البيئة تصنع العظيم قبل أن يعيد العظيم صنعها . وأن الرجل العظيم نتيجة مؤثرات طويلة متشابكة قد عملت على إيجاد الشعب الذى نبغ فيه .

ويقف الفكر الإسلامى جامعا بين المفهومين رابطا فى دقة ويسر بين الأمرين فالبطل يأتى نتيجة لحاجة المجتمع ثم هو يصنع التاريخ والمجتمع .

والبطولة فى الاسلام تتمثل فى النبى محمد صلى الله عليه وسلم فهو قد أخرجته الجزيرة العربية ثم هو أخرج الجزيرة العربية وغيرها وغير العالم كله ، غير قيمها وغير مفاهيم القيم كما كان يفهمها الناس قبل الاسلام وجاء برسالة تحمل مفهوما جديدا للبطولة . فقد كانت البطولة العربية قبل الإسلام بطولة الكرم والشجاعة والنجدة فاحتفظ لها بهذه القيم وغير مفاهيمها حيث كان الكرم من أجل الفخر ،

والشجاعة والنجدة من أجل المباهاة فوجه هدف الكرم والشجاعة والنجدة جميعا إلى التماس مرضاة الله ، ونقاها من زيف الفخر والمباهاه، ومن هنا فان تكريم الأبطال فى الاسلام يختلف عن تكريمهم فى الأمم المختلفة ، وهو تكريم للبطولة لا البطل والعمل لا الفرد ، ولا يحمل ضروب الوثنية أو التجسيم أو إعلاء البطل عن إنسانيته أو الفخر ، وقد آمن المسلمون بأن البطولة للفكرة لا للفرد ، فعزل عمر بن الخطاب خالد من قيادة الجيش فى أوج البطولة وهو من لم ينهزم فى معركة وقال كلمته التى تمثل مفهوم البطولة فى الاسلام : «خشيت أن يفتن الناس به فأردت أن يعلموا أن الله هو الصانع » .

وهكذا كرم الاسلام العمل ولم يكرم الفرد لذاته، بينما كرمت الامم الأخرى الأفراد لذاتهم وغالوا فى تكريمهم وبالغوا فى ذلك حتى بلغوا به درجة التقديس وكذلك فعل اليونان والفراعنة فأضافوا إلى الناس طبيعة الالهة وحنطوهم ليظلوا ماثلين ألرف السنين واتخذوا التماثيل استيفاء آلوجودهم المحسوس . أما فى الفكر الاسلامى فلا يخلد البطل لحمه ودمه ،أو صناعته من الأحجار والجرانيت وإنما يخلد ذكره وعمله . وكذلك فهم المسلمون أن البطولة ليست فى الفرد ولكن فى عمله فاذا اختار الرسول الرفيق الأعلى فعلى الرسالة أن تبقى وتستمر وكذلك فهم المسلمون الأموز « من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت » والبطولة ليست فى خالد ولكن فى عمل خالد ، فاذا عزل خالد فان العمل يجب أن يستمر ، وكذلك اتصل الأمر بتقدير البطولة فى الاسلام فى مفهوم الأمام والقائد الحاكم فهو بالموالاة ما دام على الحق فاذا انحرف فلا طاعة له على الناس ، ولا يكرم الرجل أو يعظم إلا من خلال عمله الصالح ومن هنا حارب الاسلام الخضوع للأمراء والأغنياء لمجرد غناهم وعد هذا نوعاً من الشرك ودعا إلى تكريم الفضائل والقيم فى ذاتها أينما كانت ، ومن هنا غلب العنصر المعنوى الخالد على العنصر المادى الفانى ، وقد اتصل هذا بمفهوم القصة فى الأدب العربى ، فهى إلى الحقيقة أقرب منها إلى الأساطير فى الأدب اليونانى والاسلام يكرم العمل ، ويجعل الكلمة مكان الطاوس والاستعراضات ، فعن طريق الكلمة الحق والعمل الايجابى تحققت البطولة التى تتمثل فى تحرير البشر من الوثنية والظلم ، وفتح آفاق اكتشاف الكون والرحلة واختراق البلدان

والقازات فى البحر والبر ، وتحققت فى ميادين العلم والفكر وفى آفاق النفس .
وتتجلى البطولة فى مفهوم الاسلام فى أن المال وسيلة وليس غاية ، وأن تقدير الانسان إنما يقوم بعمله لا بنسبة ولا شخصيه ولا مظهره ، وهكذا تمثلت البطولة الاسلامية فى القيم الخالدة كالايمان بالله والايمان بالجزاء والمسئولية وإقامة العدل والمساواة وحماية الضعف وتحريره والمروءة والشرف والوفاء والكرم والنجدة والشجاعة وقد ظلت البطولة فى تاريخ المسلمين وإلى اليوم تستمد مفهومها من هذا المعنى الأصيل فى الاسلام ، كما تمثل هذا المعنى فى القرآن الكريم الذى عرض شخصيات الأنبياء والقادة فى هذا الضوء واعتمد بطولتهم من خلال هذا المفهوم ، ومازال المسلمون يرون فى شخصية رسول الله « المثل الأعلى للبطولة » على النحو الذى أقره الاسلام وطبقه الرسول .

فالبطل المسلم يلتمس لعمله الله ، ولا ينسب لنفسه شيئاً من الفخر .

وقصة « صاحب النقب » معروفه ، هذا البطل الذى حقق للمسلمين بعد أكثر من شهرين إقتحام سور دمشق وقد عجزوا عنه ، وكان مما أولاه بالفخر بأنه بعد أكثر من ستين فارسا تقدموا ورجعوا أمام السهام ، ما كان أولاه بأن يعلن إسمه ولكنه أصر على التخفى فلما اضطره القائد إلى الاعلان عن نفسه تقدم بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يسأله أحد عن اسمه فكان عمل البطل المحارب الذى يقدم نفسه للموت فى كل لحظة موجها إلى الله ، لا يقصد به كسب مغنم مادى ، أو شهرة شخصية ومن هنا فقد كانوا يستقبلون الموت فى غبطة وكانوا يضيفون به إذا ما تآخر عنهم والبطولة الإسلامية كانت دوماً مسئولية وليست غنما ، عمر بن الخطاب كان لا يعطى أهله إلا أقل عطاء ويعاقبهم إذا خالفوا عقاباً مضاعفاً ، وعمر بن عبد العزيز ترك كل ثروته وماله والتمس الخشونة ، والبطولة الاسلامية كانت عفوا عن القدرة ، فقد سمح صلاح الدين أهل القدس من الصليبيين يخرجون ثرواتهم وأموالهم وغنائمهم ، ورفض أن يفعل بهم وهو المنتصر ما فعلوا بالمسلمين يوم إستيلائهم على القدس من قبل ٧٠ ألفاً من المسلمين .

ولا شك أن هذه المفاهيم للبطولة يختلف إختلافا واضحاً عن مفهوم البطولة الغربى الذى يقوم على أسس أخرى فبطولة نابليون أو الاسكندر أو قيصر أو

غيرهم تختلف إختلافاً جوهرياً فى دوافعها وغاياتها عن بطولة خالد وسعد بن أبى وقاص وعمر بن الخطاب .

ومع تقدير المسلمين للمثل الأعلى للبطولةفى شخصية الرسول فانهم لم يتخذوا يوم مولده أو يوم وفاته عيداً يحتفلون به أو مناسبة لاقامة المهرجانات ولكنهم إيمانا بمفهوم البطولة القائم على العمل لا على ذات البطل جعلوا يوم الهجرة : أعظم حدث فى التاريخ هو مناسبة تكريم بطولة الرسول .

ومن هنا فان شبابنا الذى يحاول أن يلتمس مفهوم البطولة من الفكر الغربى لن يصل إلى مفهوم الشخصية العربية ولاإلى المعنى الاسلامى وسوفلايجد الذات العربية أو المزاج العربى الذى صنعته وكونته قيم أساسية لها مفاهيمها وجوهرها المختلف .

تفسير التاريخ

هناك عدد من مذاهب تفسير التاريخ بعضها يعتمد على العوامل التاريخية أو الجغرافية أو الأجناس وكل تفسير من هذه التفاسير يعلى قيمة معينة ويجعلها أساساً ومصدراً ويخفض من العوامل والقيم الأخرى وأشهر هذه المذاهب: التفسير المادى للتاريخ الذى يعتبر أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام . والذى يرى أنه لا توجد قيم أصيلة أساسها الدين أو الأخلاق أو التقاليد، وعيب هذا المذهب أنه يتجاهل جانب المعنويات الحقيقة والقوى الذاتية الشعوب . أما تفسير الأجناس فيرد كل العوامل إلى الدماء والرسوس وتفاعلها وللعلامة ولفرد كانتول سميث نظرة جديرة بالاعتبار فى التفريق بين النظرة المادية والنظرة الروحية والنظرة الاسلامية فى فهم التاريخ .

وعنده أن النظرة الروحية كالمسيحية مثلا يعيش المسيحى فيها بشخصية مزدوجة أو عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط والمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق والواقع البشرى المطبق فى واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشور ويشير هذان الخطان فى نفسه متجاورين أو متباعدين ولكن بغير اتصال والتاريخ فى نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه .

وفى مفهوم الهندوكية (وهى نظرة روحية أيضاً) يقول أن الرجل الهندى لا يأبه التاريخ ولا يحس بوجوده لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال فى عالم المادة وعالم الحس ، والهندى مشغول دائماً بعالم الروح ، عالم اللانهائية ومن ثم فكل شىء فى عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن والتاريخ بالنسبة له شىء ساقط من الحساب :

أما فى المذاهب المادية كالماركسية مثلا ، فهو الإيمان بحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن الا بهذا العالم المحسوس ، بل لا يؤمن فى هذا العالم إلا بالمذهب الماركسى وحده وكل

شيء عداه باطل . والماركسي يتبع عجلة التاريخ ولكن لا يوجهها . ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها .

أما في الفكر الاسلامي فيرى « ولفرد كابتول سميث » (وهو صادق في هذا الرأي) : أن المسلم يحس بالتاريخ إحساساً جاداً، إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله في الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً ، يسير البشر في الأرض على مقتضاه، يحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره، ومن ثم فهو يعيش كل عمل فردي أو جماعي وكل شعور فردي أو جماعي بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض لأنه قابل للتحقيق .

والتاريخ في نظر المسلم هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر نتيجة الماضي ، والمستقبل متوقف على الماضي ، فالمفهوم الاسلامي واضح الايجابية ، فبينما غير المسلم يضحى بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة وهو حي وسامح لها بالمرور ، فهو يقف في طريقها حتى تدوسه وتقتله، ويكون ذلك أغلى قربان يتقدم به إلى الله فان المسلم حين يضحى بنفسه ، ففي حسه أن هناك نظاما إلهياً يراد أن يطبق في واقع الأرض وفي حسه وهو يضحى أنه يدفع عجلة هذا النظام خطوة إلى الأمام » . ا . هـ

ومن الحق أن يقال أن الفكر الاسلامي له تفسير للتاريخ يختلف عن التفسير الغربي المادي والشرقي الروحي على السواء . وان التفسير الغربي لا يصلح لفهم التاريخ الاسلامي .

فالتاريخ الاسلامي(١) لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا على ضوء النظرة الاسلامية للحياة الانسانية ، وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب من الخطأ العلمي لا يجوز أن يرتكبه باحث جاد أو مؤرخ يبتغي وجه الحق وحده . ولذلك فان كل مؤرخ عربي يفسر التاريخ الاسلامي وفق منهجه الغربي يقع في

---

(١) راجع نصيف الجنانى (الأقلام مارس ١٩٦٩)

الخطأ الذى يتمثل فى ظاهره واحدة : هذه الظاهرة هى وحدة المناهج الاسلامية والفكر الاسلامى فى مختلف فروعه وتكاملها . بينما يؤمن الفكر الغربى بتخرئه هذه المفاهيم والفصل بين الله والطبيعة والعلم والدين .

أما روح الفكر الاسلامى وحضارته وتاريخه فيقوم أساساً على وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة وأقسامها وذلك بحسبان أن الاسلام هو النظام الوحيد الذى يحقق هذا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد فى نظام الدين ، والسماء والأرض فى نظام الكون ، ويسلكها فى طريق واحد هو الطريق إلى الله . وان الاسلام — والاسلام وحده هو الذى يجمع بين العلم والدين فى وحدة تامة غير متنافسة ، ومن هنا فان تطبيق منهج التجزئة الغربى يحول بين الباحث وبين الوصول إلى الحقيقة ويجعل الأمور أمامه مضطربة غامضة .

هذا من ناحية الفكر الغربى . أما المفهوم المادى فيرى ما يرى الدكتور تريتون فى كتابه الاسلام : عقيدته ومبادئه : « إذا صح فى القول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى ، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعاً حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم ، وثبات أقدامهم فلم يبق أمام المؤرخون الآن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذة الظاهرة الفردية ، فرأو أنها تقع فى هذا الشىء الجديد ، الا وهو الاسلام » .

ويقول (البيان وأيد غراى) أن نظرة المسلمين إلى التاريخ نظرة بناءه فهم يرون أن البشرية إذا اعتقدت تعاليم الوحى (القرآن) فان إرادتها حينئذ تتطابق مع إرادة الله » .

الحملة الفرنسية

هناك محاولة دائبة من جانب دعاة التغريب للقول بأن الشرق الإسلامي لم يعرف «اليقظة» قبل الحملة الفرنسية وهي دعوى باطلة بواقع التاريخ نفسه ، وهذه الدعوى إنما تستهدف القول بأن العالم الاسلامي لم ينهض إلا بفضل الغرب ونفوذه ، وأنهم لم يستيقظوا حتى أوقظهم الغرب ، وهو خطأ صريح حيث لاسند تاريخي أو علمي له . فإن العالم الاسلامي والأمة العربية قد استيقظت قبل الحملة الفرنسية بأمد طويل ، هذه اليقظة بدأت في منتصف القرن الثامن عشر أو حوالى ١٧٤٠ م على التحديد حين انبثقت صيحة الامام محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية بدعوة التوحيد ، وما كان لها من أصداء واسعة في العالم الاسلامي كله .

وهذا الواقع يسبق وصول الحملة الفرنسية بأكثر من نصف قرن ، ويسبق وصول الارساليات التبشيرية بمائة عام على الأقل ، ومن قبل وصول الحملة الفرنسية كانت حركة العلماء في الأزهر قد وضعت أول وثيقة لحقوق الانسان حينما أخذت العهد المكتوب على الأمراء المماليك بأن لا يظلموا الرعية ولا يفرضوا عليها أي ضرائب أو قيود فإذا كان ذلك كذلك ، فإن القول بإعلاء شأن الحملة الفرنسية ليس إلا من دعاوى المستغربين والمستعمرين ، التي ملأت الكتب المدرسية بفضل نفوذهم وجميع المراجع الصحيحة تجمع على أن الحملة الفرنسية لم تكن مصدر نهضة بقدر ما كانت عامل تعويق للنهضة الأصيلة . والأمم لا تتجدد من خارجها ، وإنما تتجدد من مصادر فكرها ومن أعماق روحها ، ويقول شكري فيصل في هذا الصدد « ليس في تاريخ الشعوب شيء هو إكراه على التمدن ، لأن كل تمدن بالقوة هو معناه تمدن الأشكال دون الجوهر ، وهو تجديد يتناول مظاهر الأشياء دون أن يغوص في على حقائقها » ويصل إلى القول بأن تأثير الحملة الفرنسية كان سلبياً بالغاً ، وقد ولدت الحملة الفرنسية في مصر ما ولدت المعاهد التبشيرية في سواحل الشام وبيروت ، ولدت حذراً من المدنية التي مثلوها للناس متقاربة مع تقاليدهم وولد الحذر قلقا ، وامتد القلق والحذر بتأثير بعض التصرفات السيئة فأصبح تعصبا وكرها ، ويقول من المستحيل عقلا أن نتصور أن الشرق العربي كان

سيظل نائماً ، لأن لهذا الشعب تاريخا فى الحضارة وقدما فى التمدن وجذوراً عريقة ، لقد نهضت الشعوب التى هى أقل عراقة كالصين والهند واليابان .

وعنده أنه لولا الحملة الفرنسية لاستطاع الشرق العربى أن ينهض نهضة حقيقية ، والشرق له تقبل ذاتى للحضارة ، ليس مفروضا عليه من الخارج ، ولم يعرف المسلمون المرت بل الانحطاط فقط، وقد مرت بهم كما مرت بغيرهم أدوار الخمول .

ويقول ساطع الحصرى أن الحملة الفرنسية لم يكن لها أى تأثير فى النهضة المصرية ، وإنما هى مزاعم وأكاذيب نشرتها الصحف والكتب الفرنسية محاولة بها تدعيم مركزها الثقافى فى مصر واقتدى بها كثير من كتاب العالم العربى ثم يقول : وأنا لا أستغرب أبداً أن يتوهم بعض الكتاب من أبناء فرنسا أن الحملة الفرنسية خدمت النهضة المصرية ولا أستغرب كذلك أن يتباهى هؤلاء بهذه الخدمة الموهوبة ، على أن استغرب استغرابا شديداً كيف يظهر بين كتاب الأدب من يشارك فى ذلك (آراء وأحاديث فى التاريخ والاجتماع) .

الخلافة

كانت الخلافة الإسلامية هدفاً من أخطر أهداف الإستعمار والصهيونية ، فقد استطاع السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية فى أشد مراحل الضعف وهى ترمى من الدول الأوربية بالمؤامرات من أجل تمزيقها والقضاء على دولة الرجل المريض ، استطاع أن يحمل لواء الوحدة الإسلامية للأمم الهندية والفارسية وجميع المسلمين من خارج الدول العثمانية لاقامة حاجز ضخم فى وجه الزحف الاستعمارى الغربى وقد نجحت دعوته نجاحاً قوياً أكد وحدة المسلمين الروحية والفكرية والسياسية ، وقد كاد أن يحول ذلك دون مخطط الاستعمار المندفع إلى السيطرة والصهيونية العالمية الطامعة فى السيطرة على فلسطين : ومن هنا كانت تلك الحملة الضخمة التى ساقتها هذه القوى على السلطان عبد الحميد ورمية باتهامات متعددة أقلها الاستبداد . وقد جرى الباحثون وراء ذلك دون تبين لحقيقة ما صاغه النفوذ الاستعمارى من صور وهمية مستهدفاً القضاء على السلطان عبد الحميد عن طريق الجمعيات السرية الماسونية التى سيطرت فى سالونيك على جمعية الاتحاد والترقى وساقتها إلى أهدافها بعد إسقاط عبد الحميد من حيث حققت أهدافها فى تخليها عن طرابلس الغرب وسقوطها فى براثن إيطاليا ومن حيث تسليم فلسطين لليهود والسماح لهم بالإقامة فيها ومن حيث دخول الحرب العالمية الأولى فى صف ألمانيا وإيقاع الخصومة بين العرب والترك وتعليق الاتحادين لزعماء العرب على المشانق وما جرى بعد ذلك من اقتتال العرب والترك والمسلمين لحساب الدول الغربية التى سيطرت على الشام (سوريا ولبنان) وفلسطين ثم تسليم فلسطين للصهيونية العالمية .

ثم كانت الخطوة الثانية فى سبيل إسقاط الخلافة : (علامة الوحدة الاسلامية ودعامتها) وذلك عند ما سيطر مصطفى كمال أتاتورك على تركيا وتابع بصورة أشد

قوة وعنفا مخططات الاتحاديين والماسونية العالمية وكانت خطوته النهائية هى إسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ مما فك عروة الوحدة بين المسلمين وإسلمهم للنفوذ الاستعمارى ثم وقوف بريطانيا فى وجه أى دعوة للخلافة ووقوف الغرب كله أمام أى دعوة للجامعة الاسلامية .

وقد دعى أحد الماسون من علماء الأزهر إلى وضع كتاب مسخ فيه مفهوم الخلافة وأخرج نظام الحكم فى الاسلام كلية من مفهوم الاسلام وحاول أن يقر خطأ كبيراً مفترى هو أن الاسلام دين عبادة جريا وراء مفاهيم الاستعمار والغرب وخدمة للماسونية وأعداء الاسلام .

فتنة ١٨٦٠

تحاول كتب التاريخ وبحوث القوميات وغيرها أن تذكر فتنة ١٨٦٠ على أنها مؤامرة وقعت بين المسلمين والمارون ، اضطرت الدول الأوربية إلى التدخل لاقامة نظام خاص فى لبنان ، ومن الحق أن يقال أن هـذا التصور خاطىء من أساسه فلم يكن قبل بوادر النفوذ الأجنبى هناك أى خلاف من شأنه أن يوقع بين عناصر الأمة ، فقد كان المسلمون يرعون مختلف الطرائف والأقليات ويتيحون لها حماية كافية لأداء طقوسهم ورعاية مصالحهم . ولكن الحقيقة الأكيدة فى فتنة ١٨٦٠ أنها مؤامرة دبرتها الدول الكبرى لعزل لبنان عن الدولة العثمانية وأعدادها كمنطلق لاتمام عزل العالم الاسلامى والبلاد العربية وإسقاط الدولة العثمانية ، وقد أكد هذا المعنى كثير من المؤرخين المنصفين فقد احتضنت فرنسا الموارنة وثبتت بريطانيا الدروز ، ووقفت كل دولة وراء واحدة من هذه القوى وأمدتها بالأسلحة وأغرتها بالطائفة الأخرى ، وأثارت بينها الخلافات التى أججت فتنة ١٨٦٠ فلما وقعت الواقعة بين الموارنة والدروز ، وقتل من قتل ، تدخلت فرنسا وبريطانيا باسم وقف المذابح وأرسلت بريطانيا وحدة مكونة من ١٢ ألف جندى ، فسارعت فرنسا وأرسلت حملة قوامها سبعة آلاف جندى ، وفرض على الدولة العثمانية إقامة نظام خاص للبنان يمنحه الاستقلال الذاتى تحت رئاسة حاكم مسيحى تختاره الدول الأوربية ويصدق عليه السلطان .

ولم تلبث البعثات التبشيرية أنه هرعت إلى بيروت وأقامت معاهـــدها وإرسالياتها فى محاولة لفرض نفوذ ثقافى غربى على أبناء المارون ، وقد بدأت الارسالياب الفرنسية هذا العمل ولحقت بها البعثات الأمريكية ولم يلبث بعد قليل أن أصبحت مصدراً خطيراً لتصدير صحفيين وكتاب إلى مصر ومختلف أنحاء العالم العربى ، ومما يذكر أن سركيس وصروف ونمر ومكاريوس وزيدان وفرح أنطون وشبلى شميل هم الدفعة الأولى من خريجى هذه المعاهد وهم الذين تصدروا الصحافة العربية فى مصر وكانوا أصحاب الحملة العنيفة على الدولة العثمانية وعلى السلطان عبد الحميد وهم الذين مهدوا للنفوذ الاستعمارى وللصهيونية ولفصل العرب عن الترك وتقسيم البلاد العربية بين الصهيونية وفرنسا وانجلترا .

الكشف

أطلق تعبـــير الاستكشاف (Explaration) على الحملات الاستعمارية والتبشيرية التى قام بها الغرب فى قلب القارة الافريقية بدعوى أنها كانت مناطق مجهولة ، وأن أمثال ولفنجستون وصمويل بيكر وغيرهم كانوا مكتشفين رواداً بينما تؤكد الحقائق أن المؤرخين العرب قد جاسوا خلال هذه المناطق وكتبوا عنها فى مؤلفاتهم فقد وصل ابن بطوطة إلى أعالى نهر النيجر وإلى تمبكتو وسكوتو قبل أن يصل إليها الرواد الأوربيون وأول من أشار إليها وذلك بنحو ثلاثة قرون .

ويحاول الاستعماريون أن يرددوا هذه الشبهة وأن يفرضوها على كتب المدارس فى البلاد المستعمرة ، مدعين أنهم اكتشفوا الهند مثلا ، بينما كانت الهند معروفة فى القارة الأوربية فى العصور القديمة ، وذلك قبل وصول ماركبولو (١٢٥٤ — ١٣٢٤) الذى وصل إلى فارس وأفغانستان وبكين والتبث ، أو فاسكودى جاما الذى أبحر حول أفريقيا عام ١٤٩٧ ومنها إلى الهند .

يضاف إلى هذا ذلك الإدعاء الذى ردده الاستعمار من أن (صمويل بيكر) هو الذى اكتشف منابع النيل الأبيض مع أن هذه المنابع لم تكن مجهولة فى وقت ما ، وكانت الحقيقة تفرض أن يقال أنه أول من وصف هذه الأصقاع ، أما الذين قادوه إليها فهم رجال الحملة المصرية .

والواقع أن ما وصف بأنه رحلات الكشف هذه لم تكن إلا خطة الاستعمار التى فرضتها الدول الأوربية وفى مقدمتها (أسبانيا والبرتغال) بعد تحررها من النفوذ العربى الاسلامى فى الأندلس فى محاولة لتطويق عالم الاسلام .

وقد أشار ولفنستون فى إحدى كتاباته إلى هذا المعنى حين قال « أن نهاية الاكتشاف الجغرافى هى بداية العمل التبشيرى » فان الارساليات التبشيرية كانت تتحرك وراء هؤلاء الرحالة ، الذين كانوا فى الأصل دعاة ومبشرين .

وليس هذا إستنتاجاً وإنما هو نص من مصادر تاريخية مدعمة بالأسانيد :

حيث يقول رولاند أوليفر فى كتابه : (العامل التبشيرى فى شرق أفريقيا ، ما يأتى بالنص :

« ولقد أعد ولفنسجتون نفسه منذ سنواته الأولى حينما كان يعمل فى جمعية التبشير اللندنية للاطلاع بمشاعل التبشير الخاصة بأفريقية الاستوائية. و بالعمل بين شعوب فطرية فى بلاد لم يكن قد سكنها الأوربيون، وفى عام ١٨٤٩ كان ولنفنجستون لايزال يفكر بطبيعة الحال ، فى التجارة أكثر من الاستعمار ، وبما أنه كان أولا وقبل كل شىء مبشراً مسيحياً، فلقد اختار كعضو فى هذه الحركة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمخر فيه إلى داخل البلاد . لقد أراد ولفنجستون أن يستكشف طرقاً فى أفريقيا للمبشرين لا للمدنية ، كان ولفنجستون مبشراً قبل أن يكون رحالة ولم تكن رحلته المشهورة إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية » .

أما فاسكو دى جاما فقد لقى من كتبنا المدرسية اهتماماً كبيراً وصور بصورة البطولة . بينما تكشف الحقيقة عن صورة بشعة لأعمال فاسكو دى جاما وغيره من طلائع الفتح والاستعمار وما قاموا به من ظلم وبطش ، وتصف الكتب التاريخية الموثوق بها (دى جاما) بأنه من أقسى خصوم المسلمين ففى رحلاته إلى آسيا ضرب بمدافعه الثقيلة المراكب العزلاء التى تنقل الحجاج إلى مكة فأحرقها بعد أن نقل أموالهم وأمتعتهم إلى أسطوله وبعد أن حظر على رجاله انقاذ الغرقى ومنهم النساء والرجال حتى هلكوا جميعاً الا عشرين طفلا بعث بهم (دى جاما) إلى البرتغال حيث حملوا على اعتناق النصرانية .

هذه واحدة مما فعله دى جاما الذى تحاول أن تصوره كتب التاريخ فى العالم العربى كله على أنه مكتشف عظيم بينما أن (دى جاما) لم يكتشف شيئاً وهو لم يصل فى حياته إلى كالكوتا ولم يستقبله الحاكم الهندى لأن البرتغالى (بارتلمى دياز) كان قد بلغ رأس الرجاء الصالح قبل فاسكو دى جاما بعشر سنين فضلا عن أن عبور المحيط الهندى من سواحل أفريقيا الشرقية إلى آسيا كان معروفاً من التجار العرب والهنود منذ قرون (١) .

(١) عن بحث مستقصى للدكتور بدر الدين القاسم (مجلة المعلم العربى)

أما هنرى الملاح البرتغالى (١٣٩٤ — ١٤٦٠) فإن حقــدة على العرب والمسلمين واضح وصريح ، فقد حمل فى ريعان شبابه على مدينة سبتة التى انطلق منها طارق بن زياد إلى الأندلس ثم تصدى لمدينة طنجة المسلمة فرد على أعقابه، وأسس مدرسة بحرية ضمت رجالا حملوا لواء تجديد الحروب الصليبية وخوله البابا نيقولا الماضى حق الفتح والإستيلاء على جميع البلاد حتى الهند ، أما الرحالة البوكرك فقد كتب إلى ملكه يفخر بأنه ذبح جميع مسلمى مدينة غوا وجعلهم أكداساً فى المساجد ثم أحرقها ، وأنه أشعل النار فى سفن المسلمين ، ومع ذلك فإن هذا السفاح يذكر فى كتب التاريخ العربية بأنه فاتح منتصر .

محاكم التفتيش

كانت محاكم التفتيش من أسود صفحات الغرب الأوربي خلال العصور الوسطى بالإضافة إلى الحروب الصليبية وغزو الفرنجة للدولة الاسلامية فى الأندلس .

وقد شكلت محاكم التفتيش بطلب الراهب توركاندا وقامت بأعمالها ثمانية عشر عاماً (١٤٨١ — ١٤٩٩) وقد حكمت على عشرة آلاف ومائتين وعشرين شخصاً بأن يحرقوا أحياء فاحرقوا وعلى ٦٠٦٨ بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا وعلى ٩٧٠٢٣ بعقوبات مختلفة فنفذت وكان ذنبهم أن يعلمون علوم المسلمين والعرب من حكمة وفلك ورياضة .

وقد قاومت محاكم التفتيش دعوات حرية الفكر وقامت فى مواجهة البروتستانية التى أدالت من الكاثوليكية ، ثم عملت محاكم التفتيش فى سبيل إخراج بقايا المسلمين فى الأندلس من الاسلام وتحويلهم إلى المسيحية .

وقد كان القديس أوغسطين وتوما الأكوينى كلاهما يبرر الاضطهاد والتعذيب مادامت الأغلبية ترى فى ذلك الطريق إلى الله .

(اقرأ كتاب مستقلا عن محاكم التفتيش للدكتور على مظهر) .

ما قبل الاسلام

كان من أحرص ما عمدت إليه دعوات التغريب إثارة تاريخ ما قبل الإسلام والاذاعة به وتوسيع البحث فيه وذلك عن طريق البعثات الأثرية، وابتعاث الدعوات الفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية والبربرية ، وذلك من أجل إعادة المسلمين والعرب إلى ماضيهم الوثنى قبل الاسلام، وإعلاء هذا الماضى وتزيينه وكان للكشوف الأثرية التى حرص النفوذ الاستعمارى على استغلالها أبعد الأثر ، ففى مصر كان كشف قبر توت عنخ أمون فى العقد الثانى من هذا القرن وما وجد فيه من آثار عجيبة منطلقا للدعوة إلى الفرعونية فى مواجهة الدعوات العربية والاسلامية ، وقد جرى المصريون شوطا فى هذا المجال ، من حيث بناء القبور والقصور على الأنماط الفرعونية والدعوة إلى لغة وأدب وتراث فرعونى ، غير أن حملة هذه الدعوة لم يلبثوا أن فشلوا وعجزوا عن تحقيق وجود مثل هذا التراث ، ووجدوا أن الصلة قد انقطعت بين المصريين وبين الفرعونية خلال أربعة عشر قرنا كاملا وذلك بالاسلام الذى غير النفسية والعقلية والمزاج المصرى والعربى مغايرة كاملة بعد أن أخرجه من الوثنية ودفعه إلى التوحيد وإلى منهج ربانى قوامه الفطرة ، تقبله المصريون تقبلا ضخما وتصدروا به العالم الاسلامى كله .

وما تزال هذه المحاولات تجرى فى بيروت وفى غيرها ، وللبنانيين العذر فى التعلق بالدعوة الفينيقية نظراً لارتباط غير المسلمين بها وما لهم من نفوذ فكرى واجتماعى يغذيه النفوذ الاستعمارى الطامع فى تمزيق وحدة الأمة العربية والحيلولة دون اجتماعها على فكر موحد يدفعها إلى الامام بقوة .

ولقد كان الاستعمار والتغريب والصهيونية والماسونية والتبشير على اهتمام موحد بالدعوات القديمة التى كانت قبل الاسلام وهى كثيرة : منها الدعوات الفرعونية والبابلية وغيرها ومنها التراث اليونانى الاغريقى الوثنى بما يحمل من أساطير وملاحم وفلسفة إلهية مسرفة فى التعارض مع التوحيد ، فضلا عن الجاهلية العربية التى قامت على عبادة الأوثان والأصنام ، ومن هنا اتخذت

الصهيونية العالمية والاستعمار ودعوات التغريب والتبشير من هذا التراث القديم كله بما يتصل بالفلسفات الهندية القديمة القائمة على وحدة الوجود والحلول والاتحاد والفلسفات المجوسية الفارسية القديمة وغيرها مما يطلق عليه (الغنوصية) بالاضافة إلى الاغريقية الوثنية، اتخذت من كل ذلك تراثا تصدر عنه القصص والمسرحيات والمترجمات والكتب ليكون عملا من عوامل تدمير القيم العربية الاسلامية ويحاول أن يرد المسلمين عن التوحيد والنبوة والدين الحق عامة .

معركة سانت بارتلمى

من أبرز الفوارق بين الشرق والغرب ، وبين النزاع الدينى فى أوربا ، وما ليس له مثيل فى العالم الاسلامى، هذا النزاع الذى قام بين الكاثوليك والبروتستانت وكانت معركة (سانت بارتلمى) أقسى صوره ، فقد قتل فيها نحو مائة ألف بسبب التعصب المذهبى ، وقد عرف الاسلام بعض صور التعصب المذهبى بين الحنابلة والشافعية ، أو بين السنة والشيعة ولكن ما من خلاف بين هذه المذاهب زاد عن المعارك الكلامية . أما فى أوربا فالصورة مختلفة .

وقد وقعت معركة سانت بارتلمى فى القرن السادس عشر وفى عام ١٥٧٢ على التحقيق وفقدت فرنسا بها زهرة رجالها من أهل العقل والفطنة والحرية والعلم والصناعة .

ويعزى المؤرخون سبب هذه المجزرة إلى الحقد الدينى فى أقسى أشكاله وذلك أنه لما ظهر المذهب البروتستانتى فى ألمانيا فى أوائل القرن السادس عشر وامتد منها إلى سائر ممالك أوربا أصاب فرنسا منه جانبا هاما ، فقد انحاز إلى البروتستانتية كل من كان ناقما على سلوك الكنيسة الكاثوليكية إذ ذاك ،

وكانت البروتستانتية فى الواقع ثمرة العلم الاسلامى الذى تدافع إلى أوربا ، وأنشأ جواً من حرية الضمير وحرية البحث .

لم يرق فى عين الملكة كاترين دوق يسى أم ملك فرنسا شارل التاسع أن تنتشر البروتسانتية فعزمت على إحداث مقتلة عامة تكون سببا فى إفناء البروتستان الفرنسيين وقطع دابرهم أجمعين ، وكانت يد الكنيسة الكاثوليكية فى تدبير هذه المكيدة العظيمة فى ٢٤ أغسطس ١٥٧١ ، فلما دقت الكنائس أجراسها كان ذلك إشارة للجنود والمتطوعين بالبدء فى الفتك بالبروتستان فدهموا بيوتهم وفى أيديهم المشاعل تضىء إليهم الطريق فى الليل الدامس، وأخذوا يفتكون بأولئك الأبرياء مرتكبين من القسوة والوحشية ما يندر مثله فى تاريخ البشر ، حيث بقروا بطون الحوامل وأخرجوا الأجنة ثم ألقوها للكلاب

والخنازير ، وكانوا يتسلمون الأطفال الذين فى المهد للصغار الذين فى سن العشر سنين من أولاد الكاثوليك ويأمرونهم بقتلهم حزا من أعناقهم فى أسواق باريز ، ولم يزالوا كذلك حتى سالت شوارع المدينة بالدماء وعجت الأصوات إلى السماء

وتكرر حدوث مثل هذا فى كثير من مدائن فرنسا .

ومن أعجب ما وقع أن الكنائس دقت مرة أخرى فى اليوم التالى فظن اتباع الحقد الدينى بأن ذلك أمراً جديداً باستئناف القتال فانحوا على إخوانهم قتلا ونهبا وتمثيلا بأشد مما فعلوا بالأمس واستمرت المجزرة إلى اليوم الثالث وبعده ثم استحالت إلى مذابح فردية طوال شهرى سبتمبر واكتوبر فى باريس وغيرها .

مكتبة الاسكندريه

جرت محاولة التغريب على الصاق حريق مكتبة الاسكندرية بالمسلمين ، وجارى المستشرقين فى هذه الدعوى نفر من الكتاب فى مقدمتهم جرجى زيدان وطه حسين ، بينما دافع عن العرب بعض كتاب الغرب وفى مقدمتهم العلامة جيبون فى كتابه سقوط الدولة الرومانية حيث قال : أن هذه الفرية لفقها على المسلمين « أبو الفرج العبرى » فى كتابه مختصر الاول وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية فتلقفها أهل الغرض من الفرنجة فأذاعوها ، فأشار جيبون إلى براءة عمر ابن الخطاب وعمر بن العاص من التآمر على حريق مكتبة الاسكندرية وأثبت أن الذى أحرقها إنما هم الرومان بمراكبهم الحربية فى حصارها لجيوش كليوباتره بقيادة يوليوس قيصر .

قال جيبون : تأكدت أنها أحرقت قبل الاسلام بمائتى عام ، وأن أبو الفرج ابن العبرى لفق الفرية بعد الاسلام بنحو ستمائة سنة ، ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذلك ، حتى أن بطريرك الاسكندرية (أفتيكوس) مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر لم يذكر كلمة احدة عن حريق عمر ابن العاص لهذه الخزانة .

وكان الرحالة البغدادى قد زار مصر فى عهد الملك الكامل فنقل هذه التهمة وقد طبعت رحلته فى اكسفورد سنة ١٨٠٠ وهى محشوة بالخرافات والأكاذيب وقال لطفى جمعه إن كان أفاقياً (EnentuRier) نظنه ينتمى إلى حلب ويسمونه (التيس الملتحى) وقد نقض هذه الرواية واشنطون أرفنج وفليه وغيرهم كما نقضها أرنست رينان الذى قال فى خطاب له فى المجتمع العلمى الفرنسى : أنه لا يعتقد أن عمر هو الذى أحرق خزانة الاسكندرية لانها أحرقت قبله بزمن طويل .

مصر للمصريين

هذه كلمة حق أريد بها باطل كما يقولون : فان مصر للمصريين دعوة صحيحة إذا أريد بها الوقوف فى وجه الاستعمار البريطانى الذى سيطر على مصر عام ١٨٨٢ ، أما وأن الاستعمار البريطانى هو الذى رفع هذا الشعار فانه أبلغ العجب ، فقد أراد به إخراج المصريين من أمرين (١) من الأمة العربية المجاورة لهم والتى تربطه به اللغة والتاريخ والجوار والمصالح الاقتصادية والاجتماعية (٢) ومن العالم الاسلامى الذى هو الامتداد الطبيعى للأمة العربية فكراً وديناً وثقافة (٣) ومن الاســـلام نفسه وهو المنهج الفكرى والاجتماعى للمصريين وللعرب والمسلمين جميعاً .

ولذلك فقد جاءت كلمة (مصر للمصريين) مضادة لكل دعوة وطنية عربية إسلامية تريد أن تضع مصر فى مكانها الصحيح من الأمة العربية ومن العالم الاسلامى ومن الاسلام نفسه ، ولكن الاستعمار قدمها عن طريق بعض الفلاسفة القادرين على التمويه والتضليل فبدت براقة لامعة ، بينما كان المصريون يدعون أساساً إلى التحرر من نفوذ الاستعمار البريطانى والغربى ، أما الصلة التى كانت قائمة بين المصريين والدولة العثمانية فلم تكن استعماراً بأى معنى من معانى الاستعمار بل كان ترابطا بين جنسين يجمعهما فكر واحد ولقد جاء العثمانيون إلى العالم العربى : الشام ومصر والمغرب بدعوة من أهله وحماية له ، وتوسيعاً لجبهة المقاومة مع النفوذ الأوربى الاستعمارى الصليبى ، الذى حاول معاودة غزوة لمصر والشام كرة أخرى بعد أن انسحق نفوذه فى الحروب الصليبية فكانت تلك الوحدة الإسلامية : العثمانية العربية عاملا من عوامل القوة خلال أكثر من أربعمائة سنة (١٥١٧ — ١٩١٧) اضطر النفوذ الاستعمارى خلالها إلى تطويق العالم الاسلامى دون أن يتمكن من السيطرة على البحر الابيض نتيجة هذه الوحدة .

ومن هنا فقد كان لطفى السيد وجماعة الجريدة وحزب الأمة غير صادقين فى الدعوة إلى مصر للمصريين فقد كانوا باعترافهم على ولاء مع النفوذ البريطانى فى مصر وكانوا حيث سماهم كرومر : (الذين التقوا بالانجليز فى منتصف الطريق) وهم بدائل الاستعمار وخلفائه (لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى) وغيرهم هم تلاميذ مدرسة كرومر التى قامت على أساس فلسفته التى رسمها فى تقاريره السنوية (١) .

---

(١) راجع كتابنا (يقظة الفكر العربي في مواجهة الإستعمار)

إرساليات لبنان

ترددت كلمات كثيرة تحاول أن تعطى دوراً من البطولة للارساليات التبشيرية اللبنانية التى وردت إلى العالم العربى فى منتصف القرن الماضى وأقامت عدداً من المعاهد والمدارس يحاول بعض الداعين إلى تزييف الوقائع التاريخية بأن ينسبوا النهضة العلمية والأدبية والتعليمية فى العالم العربى إلى هذه الإرساليات والى خريجيها الذين وردوا مصر فأنشأوا الصحف من أمثال فارس نمر وصروف وسركيس ومن تابعهم من أمثال جرجى زيدان وفرح أنطون وأديب اسحق وسليم عنحورى .

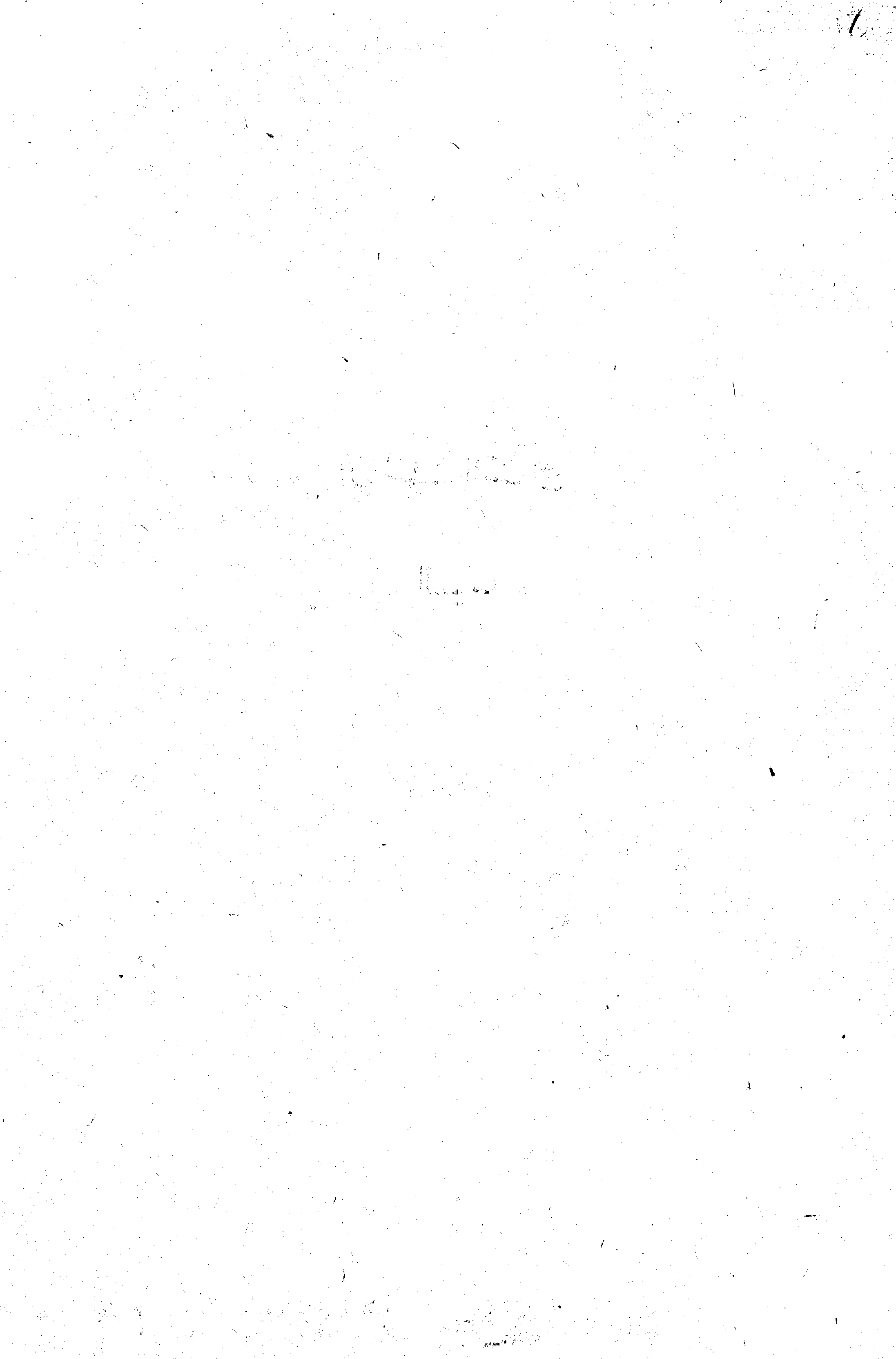
ومن الحق أن يقال أن اليقظة العربية الإسلامية بدأت بانبعاث صوت الإمام محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية وبالدعوة التى صدع بها العلماء فى الأزهر وما قامت به النهضة المصرية أيام محمد على من ترجمة وتأليف وكل هذه سبقت تلك الدعاوى التى يحاول بعض المبشرين وأتباعهم أن يصوروها منطلقاً للنهضة الفكرية والأدبية والاجتماعية فى العالم العربى .

بل أن الصيحة التى انطلقت من منابر هذه الإرساليات والتى كانت تحمل الدعوة إلى العروبة لم تكن خالصة ولا صادقة وإنما كانت فى أساسها دعوة إلى إخراج لبنان من الرابطة العثمانية العربية على النحو الذى أراده النفوذ الاستعمارى بأحداث ١٨٦٠ والتى انتهت بسيطرة النفوذ الفرنسى والبريطانى على لبنان لتكون منطلقاً للإرساليات ولتمزيق الجامعة التركية العربية التى كانت تقف فى وجه النفوذ الاستعمارى .

أما الدعوة إلى الوحدة العربية كحركة أصيلة فهى التى قام بها العرب فى مواجهة حركة الدعوة الطورانية التى قام بها فى الدولة العثمانية (جماعة تركيا الفتاة والاتحاد والترقى) وكانت هويتهم مع النفوذ الغربى للقضاء على الروابط العربية التركية .

الباب السابع

السياسه



الإستعمار

كلمة من أسماء الاضداد فهى اشتقاق من التعمير ، بينما هى تحمل فى مفهومها معنى السيطرة والغزو والفتح وهى شبيهة بكلمة الاستكشاف الذى كان مقدمة للغزو والاستعمار ، وهى متصلة أيضاً بكلمة « امبريالية » التى تعنى التوسع الاستعمارى . ولها امتدادان جديدان هما الإستعمار الجديد والإستعمار الثقافى ومن الحق أن يقال أن الاستعمار بهذه الصورة يختلف إختلافا بيناً عن الإستعمار القديم المتمثل فى الدول الفارسية والرومانية والبيزنطية . ذلك لأن الإستعمار الحديث قد ارتبط بالحضارة من ناحية وبدأ كأنما هو ثمرة لها أو وسيلة من وسائل نموها حصولا على الخامات وتصريفا للمنتجات ولكن أظهر مظاهرة أنه حمل معه أساليبه وفكره وقيمة لحاول فرضها على الدول التى استعمرها ، وحاول أن يقيم سيطرة كاملة على الأرض والانسان والحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والإقتصادية. ومن هنا فقد اختلف اختلافا ضخماً عن صورة الإستعمار القديم . وقد بدأ الإستعمار من قارة أوربا وجعل مجاله الحيوى عبر قارتى أفريقيا وآسيا واتخذلذلك أساليبا بعيدة كل البعد عن التعامل الاخلاقى ، بل فرض أسلوبا من السيطرة والإذلال والقمع والتفكك على نحو بعيد كل البعدعن أساليب المدنية أو قيم الحضارة وقد كان الإستعمار فى خطواته يحمل هدفين أحدهما ظاهر والآخر خفى، أما الظاهر فهو السيطرة على مقدرات الشعوب ،وفرض نفوذ كامل يحمل طابع الإستعلاء ويحمل فى نفس الوقت طابع الاستمرار فأوربا صاحبة الحضارة ليس لها موارد الا ما تستطيع أن تحصل عليه من مستعمراتها ، وهى تحصل عليه على أنه حق ، ولا تنظر إلى أصحابه إلا على أنهم عبيد تابعون يجب أن يظلوا خاضعين مكتفين بالحصول على أقل قدر ممكن من الأجر فى مقابل حصول الإستعمار على مقدراتهم وثرواتهم الضخمة التى لا حصر لها . أما الوجه الخفى للاستعمار فإنما يتمثل فى ذلك المخطط الذى يهدف إلى استمراز الإستعمار واتصاله على مدى الأزمنة وهو أمر لا يمكن أن يتحقق إلا إذا احتوت الحضارة الإستعمارية هذه الشعوب والأمم فى وجودها ومفاهيمها وحضارتها وثقافتها والقضاء على كل الطوابع التى تحملهاهذه الأمم وتدمير القيم الأساسية لها وصهرها

فى بوتقة الثقافة والحضارة الغربية على أساس أنها حضارة الإنسان الأبيض السيد الممدن الذى وكلت إليه العناية الإلهية تمدين المتأخرين والسود والملونين ومن هنا فقد نظم الإستعمار فلسفة كاملة لهدفه هذا جعل لها طابعاً علمياً ومظهراً وضاءاً وأخفى فى داخلها أغراضه الخفية وهى إدماج شعوب أفريقيا وآسيا إدماجا كاملا فى الحضارة الغربية وفكرها والتخلص الكامل من قيم هذه الشعوب وذاتيتهم ، ولما كانت هذه الشعوب الافريقية والآسيوية شعوب عريقة ولها حضارات باذخة

وتاريخ طويل وماض عريض فقد قاومت مقاومة جسوره جبارة ، وكانت الحضارة الاسلامية أشدها مقاومة بحسبانها أحدث هذه الحضارات وأكثرها إتساعا وأكثرها إرتباطا بالحياة ، فان أغلب تلك الحضارات كانت قد ماتت أو انطوت أما الحضارة الاسلامية العربية فإنها كانت لا تزال نابضة متفاعلة مع الحياة ، وأن اعترتها مرحلة من مراحل الضعف وهى إحدى سنن الأمم والحضارات بعد دورة بلغت ألف عام ويزيد ؛ ولقد كان الاستعمار يعرف مدى خطر هذه الحضارات على وجوده ومدى خطر مفاهيمها على بقائه، ومدى قدرتها على المقاومة والمواجهة والصمود، ولذلك فقد كان ضغطه عليها أشد وكانت حربه لأهلها وتدميره لثوراتها وقضائه على قادة فكرها أشد وأعنف .

وقد بدأت جولة الاستعمار الحديث منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادى بما أطلق عليه تطويق العالم الاسلامى وانتهت فأطبقت عليه منذ الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٠ إلى أن تمت السيطره عليه فى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ على نحو تمثل فى استعمار مباشر واحتلال وانتداب ، ثم فى صك بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

وقد شهد العالم فى خلال هذه الفترة حركة واسعة النطاق للإستيلاء على الأجزاء والوحدات المختلفة فى أفريقيا وآسيا ولا سيما القارة الأفريقية فى العقدين الأخيرين

من القرن التاسع عشر حيث كان الصراع عنيفاً بين فرنسا انجلترا وألمانيا وبلجيكا والبرتغال . ثم كانت حركة تمزيق الدولة العثمانية والقضاء عليها وتوزيع الأجزاء العربية بين إيطاليا وانجلترا وفرنسا وأسبانيا، وكانت الخطوات الأولى

الاستعمار عن أساليبه وغير من خططة وإن لم يتراجع عن هدفه الأساسى فأجلت الدول المستعمرة أغلب جيوشها واكتفت بالاتفاقيات والمعاهدات والنفوذ الاقتصادى وربطت الأقطار بنقدها واقتصادها ، وظلت قادرة على السيطرة على الموارد والثروات والخامات وأطلق على هذا النوع من النفوذ: « الاستعمار الجديد ».

والاستعمار(٢) الجديد هو فرض السيطرة الأجنبية من سياسية واقتصادية، على دولة ما مع الاعتراف باستقلالها وسياستها ودون الاعتماد فى تحقيق ذلك على أساليب الاستعمار التقليدية وأهمها الاحتلال العسكرى، ويطلق على هذا الأسلوب الاستعمارى إسم (الامبريالية الجديدة) ويستخدم الاستعمار الجديد فى تحقيق أغراضه وسائل خاصة لتحاشى المعارضة الشعبية الوطنية ومن ذلك الاتفاقيات الثنائية غير المتكافئة وتكبيل الدول النامية بشروط تحرمها من حرية التصرف والضغط عليها تتمثل فى صورة معونات وقروض ،وإقامة القواعد العسكرية وإثارة الاضطرابات الداخلية والانقسامات الطائفية والحزبية فى الدول الحديثة الاستقلال لاضعافها ووضعها تحت السيطرة الأجنبية وتشجيع الاقليات البيضاء التى تتمتع بامتياز اقتصادى وثقافى بارتقاء السلطة وممارسة سياسة التمييز العنصرى فضلا عن استخدام المنظمات الدولية التى تقوم عليها الدول الكبرى بدور رئيسى فى الضغط على الدول النامية وتوجيه سياستها .

ويتصل بهذا الاستعمار الجديد : الاستعمار الثقافى وهو أشد خطراً وأخفى أثراً ، ويتمثل فى الغزو الفكرى للدولة المسيطرة عن طريق مؤلفاتها وأخلاقها وكتاباتها ومذاهبها ودعواتها والترويج لها فى الشعوب الضعيفة الواقعة تحت نفوذها السياسى والاقتصادى ، ويتمثل هذا النوع فى الارساليات التبشيرية والمدارس الأجنبية والصحف والمؤلفات والأفلام ، وتقوم هذه المؤسسات بدور كبير فى مجال الثقافة والصحافة والتعليم ، وتعمل على تغيير القيم الأساسية للامم وفرض مفاهيم مختلفة عن مفاهيمها التى تتمثل فيها روحها وطابعها وذوقها ويصب الاستعمار الثقافى أخطاره على اللغة والتاريخ والدين والعقائد ، فينشر حولها جوا من التشكيك والسخرية ويفتح الطريق للإلحاد والاباحة والتحلل والدعوات الوجودية المادية والوثنية .

---

(١) القاموس السياسى — أحمد عطية الله

الإستعمار التركى

تتردد على ألسنة الكتاب كلمة الاحتلال التركى والاحتلال الغربى، وتوصف الأمة العربية بأنها وقعت تحت سيطرة استعمارين واحتلالين . وإيراد العبارات على هذا النحو أمر مقصوداً له هدف : بعيد هو تصوير العلاقة التى كانت بين العرب والأتراك على أنها علاقة استعمار أو احتلال وهذا مناقض للتاريخ والواقع معا ، فالرابطة التى قامت منذ ١٥١٧ م حتى ١٩١٨ م بين العرب والترك داخل نطاق الدولة العثمانية لم تكن فى الحقيقة احتلالا ولا شبيهه .

وإنما كانت محاولة من محاولات الوحدة والالتئام بين أقطار العالم الاسلامى فى مواجهة الأخطار ، وقد جاءت هذه الوحدة على أثر ضعف قوى السلاجقة والمماليك من بعدهم وتعرض البلاد العربية وخاصة مصر والشام لتجدد أخطار الغزو الصليبى الغربى والتحركات التى بدأها الأوربيون مرة أخرى لاستئناف الحروب الصليبية . والمعروف أن العرب قد رحبوا بالوحدة الاسلامية العثمانية بعد أن ضعفت قوى المماليك فى مصر وقوى البربر فى المغرب وأصبحوا هدفا لمحاولات صليبية جديدة، وقد وجدوا فى العثمانيين أخوتهم فى العقيدة منتعشا جديداً للإسلام وقوة شابة بدوية مقاتلة ، رفعت راية الإسلام عالية خفاقة وأعادت ذكرى الأبطال فى سبيل إعزاز الإسلام ونشره .

كما رحب العرب فى مصر والشام بالوحدة الاسلامية العثمانية بعد أن نقموا على دولة المماليك إهمالها شأنهم فى المرحلة الأخيرة فحاربوا فى صفوف العثمانيين والواقع أنه لم يكن فى هذه المرحلة خلاف جذرى بين العرب والترك ، فقد كان الطابع الاسلامى هو مظهر الوحدة الأساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنضمة تحت لواء الوحدة الاسلامية .

ومن الحق أن يقال أن العثمانيين قد قاموا فى هذه المرحلة الأولى بتمثل مفهوم الاسلام فى نطاق الحكم وتحركوا من خلال إطاره. ويشهد المؤرخون بأن العثمانيين قد اقتفوا أثر الخلفاء الأولين فى العدل والتسامح وتمثلوا أعمالهم

واتخذوهم قدوة ، وعملوا على جمع القلوب إليهم بتقدير العلماء الأتقياء وإنشاء الجوامع والمدارس .

ومن هنا فان القول بأن هذه الرابطة بين العرب والترك كانت استعماراً إنما هو من النظريات المشبوهة والعبارات المدخولة التى يحاول الغزو الفكرى والتبشير والتغريب إذاعتها وإقرارها فى الأذهان .

أما ما كان من الخلاف بين الترك والعرب بعد تنحى السلطان عبد الحميد وفى ظل حكم الاتحاديين دعاة الطورانية فذلك هو الخلاف الحقيق الذى يموه عليه خصوم المسلمين والعرب ويصفونه بأنه خلاف بين الترك والعرب وهو فى الحقيقة خلاف بين الاتحاديين أتباع الماسونية وأعوان الصهيونية وبين العرب الذين تصدو للزعامة فى هذه الفترة(١) .

---

(١) راجع فى هذا المعنى كتابنا (الإسلام وحركة التاريخ) .

الاقليات

قضية الأقليات نتاج استعمارى أصيل ، فهى الأداة التى حاول الاستعمار استغلالها لتحقيق غاياته وتركيز وجرده وهى من الوسائل التى اتخذتها الدول الأجنبية سبيلها لتحطيم الامبراطورية العثمانية وبسط نفوذها على بلاد الشرق فقد لجأت هذه الدول إلى استغلال هذه الأقليات الطائفية (كالأقلية اليهودية والأرمنية) وغيرها للثورة على العثمانيين ثم جاء الوقت الذى أعلنت كل دولة كبرى حمايتها لطائفة من الاقليات والطوائف ، وأثارت عن طريق هذه الحمايه وهذا الولاء صراعا وخلافا بلغ فى بعض مراحله حد إثارة الفتن والقلاقل (راجع مادة فتنة عام ١٨٦٠) ولم تكن هذه الطوائف فى أحضان الانظمة السياسية التى عرفها العالم الإسلامى تجد عنتاً ولا إرهاقا بل تجد حماية وتقديراً بحكم نصوص القرآن والنظم التى رسمها الرسول والخلفاء تطبيقاً للقرآن، ولسنا نحن الذين ندافع عن هذا المفهوم ولكن لندع واحداً من الغربيين المنصفين هو كابتن غوردون كانتج يقول : إن الاقليات المسيحية واليهودية كانت تعامل على الدوام خير معامله فى البلدان الإسلامية إلى أن تأتى دولة أوربية وتستخدم تلك الاقليات لقلب الحالة كما حدث فى مسألة الأرمن والاتراك ، إن زعماء العرب فى هذا العصر وفى العصور السابقة كانوا دائماً يعملون على تلافى هذا التنافر وإصلاح ذات البين ، فإذا كان التعصب قد أخذ مجراه فى زمن من الازمنة فقد كان المسلمون فى مذهب الحاكم ينالهم من الاضطهاد ما ينال المسلمين ، ومن الواجب أن تتخذ مبادىء (نجران) كالمثل الأعلى للزعيم المسلم : « إن دم الذمى كدم المسلمين » .

وقول بيررو ندو : لقد كان فى وسع الإسلام حل مشكلة النصارى فى الشرق بالقضاء عليهم دفعة واحدة ، ولكنه لم يفعل لأن دعوته لم تقم على الفتح فى الاساس ولم يكن ثمة إكراه فى الدين ، لهذا لم يتعرض الإسلام للنصارى واليهود ويخيرهم بين الموت أو اعتناق الدين الجديد بل تركهم يمارسون طقوسهم دون أن يخصهم بشريعة . ومن هنا فإنه إنصافا للحق والتاريخ نقول إن مسألة الاقليات لم تكن موجودة قبل دخول النفوذ الاستعمارى للعالم الإسلامى، ولقد ركز النفوذ الاستعمارى على الطوائف الطارئة والمتوطنة فاستخلص بشريعة فى البلاد

العربية : الارمن الاشوريين والمهاجرين من اليهود والروس واليونان والافرنج ليقاوم بهم العرب (١) وخلق من هذه الطوائف قوى يحركها بالثورة على أهل البلاد متى تشاء ، وقد أسكنت بريطانيا الاشوريين فى شمال العراق وأرادت به ما أرادت من إسكان اليهود فى فلسطين ؛ ولما لم تستطع إنكلترا أن تخلق بالاشوريين قلاقل ذات أهمية فى العراق أعارتهم للفرنسيين الذين نقلوهم إلى سورية ولبنان ليكونوا مصدر قلق لسوريا كما كانوا للعراق .

وقد انزعج المستعمر حين تم الالتقاء بين الاكثرية المسلمة والاقليات غير المسلمة وأبدى قلقاً لا حد له .

وهكذا كانت محاولة المستعمر الدائبه لاستغلال الاقليات فى كل وطن وهو الذى كون فى هذه الاقليات ، ذلك الإحساس الذى يسيطر على بعضها من أنها لا تأمن على قوى خارج نطاق بلادها . وإن كان هذا المعنى قد زال تماماً فى بعض البلاد التى بلغ فيها الوعى القومى والوطنى درجة كبيرة وسيزول تدريجياً فى المناطق المتحررة بالقضاء على عوامله الإقطاعية والقبلية والطائفية .

ويتصل بمسألة الاقليات ذلك الدور الذى قام به الصحفيون الشاميون فى مصر أو طائفة السوريين المتعاونين مع الاستعمار فقد كان كل الدعاة إلى الآراء الهدامة المادية والإلحاد والشعوبية والتغريب من أولياء النفوذ الاستعمارى وخاصة البريطانى من أمثال فرح أنطون ولويس صابونجى وفارس نمر والدكتور شبلى شميل وجرجى زيدان .

وقد وصف اللورد كرومر هذا العريق فى مذكراته بأنهم منحة من السماء وأنهم خيرة البلاد ووصل بعضهم إلى أعلى المراكز الإدارية وفى فصل مطول من كتاب الدكتور أنيس صايغ : « الفكرة العربية فى مصر » يتحدث عن الاقليات فليرجع إليه من يشاء ومما قاله : لم يكن كل السوريين المتعاونين مع الاحتلال موظفين أو مرابين فمنهم من أنشأ صحفاً وأشهرها صحيفتا المقطم والمقتطف اللتان أصدرهما فارس نمر ويعقوب صروف واسكندر مكاريوس ، وكانت الصحيفتان اللسان الناطق لسلطات الاحتلال باللغة العربية فأيدنا ذلك

(١) « ك » التبشير والاستعمار (عمر فروخ)

الاحتلال وهاجمتا الحركات الوطنية بكل ما فى لفظتى تأييد ومهاجمة من معان ، وكتب هؤلاء الثلاثة يدافعون عن حق الانجليز بمصر ويصفون حسنات الاستعمار ويمجدون أبطاله ويطالبون باستمراره ويدعون أهل مصر إلى الرضوخ إليه لأنه يحميهم من داء الوطنية ولم تمر بمصر حادثة واحدة إلا وقفوا فيها موقفاً معارضاً لأمانى الشعب ، فطلبوا سجن الأحرار وعارضوا توظيف الوطنيين ، بل أنهم زحبوا بإعدام الأبرياء أثر حادثة دنشواى ، وبإعلان الأحكام العرفية واحتلال السويس وسلخ السودان عن مصر وغير ذلك من مساوىء الاحتلال »

ويرى الدكتور أنيس صايغ أن الأقليات فى كثير من فترات التاريخ الحديث كانت تتحالف مع الاستعمار وتتنكر لحق المشاركة القومية (راجع ص ٩٨-١٠١)

وقد اتصل هذا الخط ببعض الدعوات كالفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية ، وكان لعلماء الآثار والكشوف الأثرية الحديثة أثرهم فى إعطاء مزيد من الوقود لهذه الحركات التى كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على ربط الحاضر بالماضى البعيد للأمم متخطية أكثر من ثلاثة عشر قرناً من تاريخ الاسلام وقد فشلت هذه الدعوات جميعاً وأكدت خطلها ، بل لقد تبين بمراجعة التاريخ الصحيح أن الفراعنة والفينيقيين والبربر وغيرهم إنما هم موجات قدمت من الجزيرة العربية أصلا .

الاقليمية

نستطيع أن نفهم إصطلاحات الوحدة الاقليمية إذا نظرنا إلى الخلفية الأساسية التى يحركها الاستعمار والتى تستهدف التمزيق والتفرقة واعتبارها من عوامل سيادة النفوذ الأجنبى ، هذا المعنى يبدو واضحاً خلف كل قضايا الوحدة القومية والدعوة الطورانية والدعوات الاقليمية واصطلاحات القومية والوطنية وكلمات الكيان الخاص والفرعونية والفينقية والبربرية .

والمعروف أن العالم الاسلامى والأمة العربية لم تكن تعرف من قبل هذه المصطلحات المتعددة وإن كانت تعتبر أن وحدة الفكر هى أساس الوحدة الاسلامية ، وكانت جامعة الفكر القائمة على المفاهيم المستمدة من الاسلام هى مصدر التلاقى والوحدة ، غير أن النفوذ الاستعمارى لم يكن يستطيع أن يقيم قواعد نفوذه إلا على تقسيم الجماعات الواحدة إلى عناصر يتبع بعضها الجنس والعرق أو يتبع اللغة أو يتبع الدين ، وكان دوماً قادراً على إثارة الخلافات المذهبية بين أبناء الدين الواحد ، والخلافات بين أصحاب الأديان المختلفة ، وإثارة الخلافات بين الافريقيين والآسيويين أو بين أبناء المدن المختلة فى القطر الواحد .

وكلما وجد النفوذ الاستعمارى أن أمة بدأت تحقق وحدتها الوطنية لتلتقى فى وحدة الامة مع جاراتها التى تربطها بها اللغة والتاريخ إستعمل مخططاته فى سبيل القضاء على هذه المحاولة وبث الالغام من جديد لاثارة الفرقة والخلاف . بل لقد بلغ الاستعمار إلى أبعد من ذلك فى محاولاته للحيلولة دون الوحدة التى تقوم على رابطة الأمة وعودة الاجزاء ، والمثل الذى يضرب فى هذا أن فرنسا حكمت المغرب العربى بأقطاره الثلاثة المتجاورة المتلاصقة التى تجمعها جبال الأطلس وهى تونس والجزائر ومراكش ومع ذلك فقد أقامت فى كل قطر نظاماً مختلفاً فى عناصره الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وذلك حتى لا تتلاقى هذه الأقطار ، وحتى يتم تعميق الخلاف والاقليمية بينها وكذلك فعل بين مصر والسودان ، وبين سوريا ولبنان ، ومن الحق أن يقال أن الامة العربية كانت دائماً ساعية إلى الوحدة ولكن النفوذ الاستعمارى كان دائماً يحطم هذه المحاولات

واحدة بعد أخرى وقد جرت محاولة لتقديس الحدود والأعلام والعملة والنظم، بحيث يصبح من العسير انصهارها وتلاقيها . وإذا كانت محاولات الوحدة بين أجزاء الأمة الواحدة عسيرة إلى هذا الحد بفعل النفوذ الاستعماري فان محاولة الترابط بين أجزاء العالم الإسلامى تلقى مزيداً من العسر والمقاومة .

ويجمع المؤرخون على أن أوربا منذ أخذت فى مواجهة الدولة العثمانية والضغط عليها أثارت مسألة المسيحيين والأقليات ودورهم ومسئوليتهم وحقوقهم ثم توسعت فى هذا الشأن فى العالم العربى أيضا .

وقد كان بعض الأقليات أصحاب دور فى التركيز على تمزيق الدولة العثمانية وخاصة بعض السوريين الذين قدموا إلى مصر وعملوا فى مجال الرأى والصحافة .

ثم جعل الاستعمار مسأله الأقليات فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى ورقة رابحة يلعب بها ويكبت بها كثيراً من التطلعات والمشاعر والأعمال النافعة باسم الخوف من إثارة الأقليات وكان أخطر ما قام به النفوذ الأجنبى فى مصر لاثارة الخلاف بين الأقليات وغيرهم فى مصر أن نصب من الأقلية رئيسا للوزارة فأحدثت صداماً استفاد منه الاستعمار تركيزا لقواعده .

الرجل الأبيض

من النظريات التى يذيعها الاستعمار والتغريب ويحاول أن يؤكدها فى نظر الأمم الواقعة تحت نفوذه وسلطانه، القول بأن الرجل الابيض — لا الإنسان عامة — هو تاج الخليقة وأن الغلبة فى كل صراع ينشب على وجه الأرض سواء كان بينه وبين غيره من الأجناس الملونة أو بينه وبين مظاهر الطبيعة كالجبال والغابات والبحار أو بينه وبين الوحوش، ويرددون عبارة الكاتب الأمريكى شتانبيك (الرجل الأبيض لا تغلب) وهم عندما يكتبون تاريخهم يبدأونه بشعب أبيض، هو شعب اليونان وينقلون زعامة البشر بعده بين أجناس بيضاء من رومان وطليان وجرمان فاذا ظهر شعب ملون وارتفع إلى مستواهم نظروا إليه بعين الذى يعتقد أنه الصعود الذى لابد أن ينهار يوما لأن أصحابه ليسوا من الجنس الأبيض، وقد كان ذلك موقفهم من اليابان.

ونظرية الجنس الأبيض لم تكن فى الحقيقة إلا أسلوباً من أسلوب السيطرة عن طريق إخضاع بعض الأفكار الاستعمارية لمظهر علمى يخفى وراءه أهواء الاستعمار ويحاول أن يصورها بصورة الواقع المفروض. ويقلل من أهمية هذه النظرية تاريخيا أن الدولة الرومانية سقطت فى القرن الرابع الميلادى وظلت أوربا أكثر من ألف عام تعيش ظلمات القرون الوسطى بينما كانت أجناس أخرى ليست بيضاء تتولى مقاليد الحضارة الانسانية وتذيعها فى كل مكان وتقيم مجتمعات من حدود الصين إلى حدود فرنسا وإيطاليا فى قلب أوربا وقد استطاعت هذه الحضارة أن تقدم للبشرية المنهج العلمى التجريبى والجذور الأساسية لمختلف العلوم الطبية والطبيعية والكيميائية والفلكية التى نماها الغرب فيما بعد وأقام بها الحضارة الحديثة ومن هنا فإن فكرة الجنس الأبيض نفسها لم تكن هى مصدر الحضارة.

هذا فضلا عن أن هذا الاستعلاء باللون لم يكن يوما من الايام مصدراً من مصادر التقدم، أو الامتياز فان الجنس الآرى الذى يوصف بأنه الإنسان

الأبيض قد وصل إلى أوربا قادما من قلب آسيا من فارس والهند ومع ذلك فان شأنه فى فننا يختلف عن شأنه هناك ولك لأن عوامل كثيرة ومختلفة هى التى أعطت الاوربيين قيادة الحضارة فى هذه المرحلة حين بلغ العرب والمسلمون مرحلة الضعف ، والرجل الأبيض الذى « ورث » تراث العلم والحضارة العربية الاسلامى قد اشتعلى فى غطرسة وغرور عن أن يعترف بالفضل وأنكر دور العرب والمسلمين وحاول إطلاق كلمة العصور الوسطى المظلمة على العالم كله ، وما زال ينظر إلى التاريخ من حيث هو بدأ فى أوربا وينتهى بها وتلك نظرة ظالمة بعيدة عن الانصاف تنكر حضارات الأمم والشعوب المختلفة التى سبقت وأثرت فى مصر الحضارة البشرية التى ليست هى نتاج الرجل الأبيض وحده ، إلا أن يكون الرجل الأبيض هو وريثها والمتصرف فيها .

وقد كان الرجل الأبيض يدعى أنه ممدن البشرية ، وأن سلطانه ونفوذه ليس إلا عملا إنسانيا يستهدف تحضير الشعوب وتعميرها (واشتق اسم الاستعمار من التعمير) ولكن الشعوب رأت كيف كان الرجل الأبيض قاسياً وظالما وعنيفا وأنه لم يكن ممدنا بقدر ما كان مستعمراً جشعا يحرص على أن يمتلك كل شىء ، وأن يسيطر على مختلف الخامات والثروات وينقلها إلى بلاده ، دون أن يترك لأصحابها إلا الفتات القليل وأنه كان حريصاً أن لا يقدم لهذه الشعوب من من حضارته إلا الجوانب السلبية والبراقة والتى تحمل جرائم قتل الكيان والشخصية وتذويب القيم وتحطيم المعنويات وذلك بقصد استدامة السيطرة وإبقاء النفوذ وإطالة أجل الاستعمار وقد كشفت الابحاث العلمية المنصفة خطأ نظرية الرجل الأبيض وتميزه عقلياأوجسميا ،وتأكدأن ماحصل عليه من التقدم العلمى إنما هو تطور البشرية الطبيعى والجهد المشترك الذى ساهمت فيه مختلف العقول والقوى وأن هذا التميز العلمـــى وحدة ليس هو كل شىء فى الحضارة وإنما الحضارة قوى روحية ومادية ، وإن العمل المادى الصرف منفصلا عن الأخلاق والدين لم يحقق إلا أزمة العصر ، أزمة العالم الذى كبر عقله وتوقف قلبه عن النمو بين قوتيه الصانعتين لحياته .

ولقد اتخذ الرجل الأبيض مفهوم روما القديم وطبقه فى العصر الحديث فأهل روما سادة وما وراءها عبيد واستعمل قوته المادية وقدرته العلمية فى غروروتية ، على الانسان الملون فأوجد التفرقة العنصرية، وحاول أن يقول بالحرية والمساواة والاخاء فجعلها قاصرة على الاوربى والأبيض وحدهما وأنكر حق الأجناس الملونة فيها ، وبذلك أعطى البشرية ذلك الأسلوب المضطرب الذى أشقاها بالحضارة ، وحول العلم إلى مجال الفتك والتدمير والصراع الذرى النووى الرهيب ولم يوجهه إلى منح الانسانية الامن بعد الشدة أو الغنى بعد الفقر، وكان مصدر هذا الاضطراب جميعاً هو ذلك الفهم القائم على الغرور والاستعلاء، الفهم الذى يفرق بين الرجل الأبيض والرجل الملون حيث تكشف حقائق التاريخ والعلم والاجتماع أن لا فروق عقلية أو جسمانية تميز جنسا عن جنس ولا لونا عن لون .

الجامعة الإسلامية

كانت صيحة الجامعة الاسلامية عندما استعلنت إنما تعنى بجميع المسلمين فى العالم الإسلامى تحت لواء الخلافة العثمانية فى وجه النفوذ الاستعمارى الزاحف الذى كان يخطط من أجل تمزيق الدولة العثمانيـة وإيقاع الخلاف بين العرب والترك كعنصرين تجمعهما وحدة سياسية وفـكرية واجتماعية وإسقاط الخلافة الإسلامية كقوة جامعة للمسلمين .

ولقد كانت دعوة الجامعة الإسلامية قسماً بين السلطان عبدالحميد وجمال الدين الأفغانى ، أما السلطان عبد الحميد فقد حمل لواءها منذ تولى الحـكم كمحاولة لتجميع مسلمى كله مع الدولة العثمانية فى وجه النفوذ الغربى الذى كان قد بدأ يسيطر على كثيرة من أجزاء البلاد الإسلامية .

أما جمال الدين الأفغانى فقد كان يطمع فى تحرير قطر من الأقطار العربية ليـكون منطلقاً للوحدة الإسلامية وكان يركز على مصر بالذات فى هـذا المجال ، فلما سقطت مصر فى قبضة النفوذ الاستعمارى البريطانى عام ١٨٨٢ رأى أن يدعم دعوة السلطان عبدالحميد إلى الوحدة الإسلامية الجامعة وانتقل إلى استانبول من أجل هذا الغرض غير أن حوائل كـثيرة حالت دون تحقيق هدفه ، أهمها : مزاجه النفسى وطابعه الفكرى كداعية ومفـكر وما شاب حركة السلطان عبد الحميد من معوقات وضغوط ،

غير أن النفوذ الاستعمارى ومن وراءه الصهيونية العالمية كانا يعملان فى إصرار وعنف إسقاط السلطان عبد الحميد كوسيلة لاسقاط دعوته ، وقد تمـكنا ذلك عام ١٩٠٩ حيث تولى أمر الدولة العثمانية أولياء الماسونية والنفوذ الاستعمارى من رجال الاتحاد والترقى الذين أعدوا الدولة للسقوط والتمزق الكامل بتسليمهم طرابلس الغرب لايطاليا ، والسماح لليهود بالإقامة فى فلسطين . ودخول الحرب العالمية الأولى مع الألمان مما مهد لقيام حركة مصطفى كمال التى كانت المرحلة النهائية فى القضاء على الطابع الاسلامى فى الدولة العثمانية بإلغاء الخلافة والتحول إلى دولة علمانية غربية .

الجنس

تستعمل كلمة « جنس » فى الفكر العربى بمفهومين : مفهوم (الجنس) من الدم والقبيلة و (الجنس) من الصلة القائمة بين الرجل والمرأة ، أما الجنس بمعنى القومية فهو من خصائص الأمم ، والفكر الاسلامى يقبله ، بمفهوم له مخالف لمفهوم الغرب ، فهو لا يعلى من شأنه إعلاء شأن العنصرية الغالية المصارعة بل يراه وسيلة لتلاقى الأمم على حد قول القرآن (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وقد استعلى نداء الجنس بوصفه العرق والعنصر استعلاء شديداً وتحرك فى دوائر مختلفة أولها استعلاء الجنس الأبيض بوصفه صاحب الحضارة وقد حاول الاستعمار أن يبرر سيطرته على الأقطار الاسلامية والافريقية والآسيوية بأنه جنس متفوق وتلك أجناس متخلفة، وإن إليه وحده أمانة الحضارة وتمدين الأمم وقد كذبت الوقائع هذا الادعاء فقد كشف الاوربيون والغربيون عن دخيلتهم التى تقوم ازدراء عجيب للشعوب الملونة وخاصة إذ ساموها سوء العذاب وعملوا على على الابقاء جهلها وضعفها واستنزاف مواردها .

ثم ظهرت نزعات استعلاء الجنس فى صيحة الجنس الآرى والجنس السامى ومحاولة المفاضلة بينهما وهى صيحة مرتبطة بالدعوة الأولى ، ثم كانت دعوة الجرمان إلى سيادة الدم الالمانى وغيرها من الدعوات وفى السنوات الاخيرة علت دعوة اليهود إلى ما أسموه شعب الله المختار وقد كانت حرب الأجناس هى صيحة الاستعمار أساساً حين حاول إخراج الأمم من أثوابها الفكرية والروحية والنفسية القديمة التى كانت تقوم على وحدة الفكر ، فأثار دعوة العرق والعنصر فظهرت دعوة القومية الضيقة والإقليمية والكيان الخاص وكلها دعوات أفاد منها الاستعمار والنفوذ الأجنبى حيث استطاع السيطرة على الشعوب والامم وحال بينها وبين الالتقاء فى وحدات واسعة ، من ثم عمق فيها دعوات الاعتزاز بالإقليمية الضيقة فى محاولة بينها وبين الالتقاء فى وحدات شاملة توسع دائرة المقاومة والتجمع، وقد أكد علماء الاجناس أن أجناس البشر على اختلاف ألوانها متساوية فى قدراتها الفعلية

والفكرية وأسقطوا مختلف نظريات التفرقة بين الأجناس التى حاول بها الاستعمار والنفوذ الأجنبى فرض سيادته .

أما مفهوم الجنس بوصفه الصلة بين الرجل والمرأة ؛ فإن الإسلام ينظر إليه بغير تعقيد ولا يثير حوله الأزمات خلافاً لنظرة الفكر الغربى إليه ؛ لأنه يجعله من المباح فى حدود الشريعة ، ويفسح له المجال فى العمل . ويضع له الضوابط التى تكفل له سلامة الاتصال وبعده عن التفسح والاضطراب والأزمات ويقول ويقول الامام ابن قيم الجورية :

(إن الاتصال الجنسى تحفظ به للصحة وتتم به اللاذة وسرور النفس وتحصل به مقاصده التى وضع لأجلها) .

ولا ينظر الإسلام للجنس نظرة بعض الديانات الأخرى من أنه ثمرة خطيئة ولا ينظر إليه نظرة بعض الفلسفات من إطلاقه بغير ضوابط ونظم فالاسلام يأمر بالعفة إذا عجز الشاب عن الزواج . وبذلك يكون الزواج هو الطريق المفتوح أمام الجنس الطبيعى السليم وذلك فى مواجهة الخطأ الفلسفات التى تدعو الى حصر الزواج فى أضيق نطاق وتمنعه على بعض الرغماء الروحيين وتمنع زواج الأرملة والمطلقة .

وقد رفع الاسلام من شأن المرأة بتنظيم الجنس وضبطه ؛ وهو حين حرم الزنا كان يصدر عن احترام للجنس وتنزيه له عن العبث واحترام المرأة وتنزيه لها عن أن تكون أداة لمتعة الرجل(١) وذلك لأن الرجل الذى يمارس الجنس مع المرأة دون أن يرتبط بها ولا أن يحمل أولادها اسمه انما يخفى احتقاراً للمرأة فتحريم الزنا يعنى تحريم احتقار المرأة واكتمال الحرية الشخصية للرجل والمرأة إنما يكون بحق الزواج ثم بحق الطلاق لا بالتفريط ولا بالإباحة الجنسية فليست الإباحة مرادفة للحرية . وكما عبرت عقوبة الزنا عن احترام عميق للمرأة وتقدير للجنس فإن الطلاق يعنى حرية تصحيح الخطأ والبدء من جديد وإنقاذ الأسرة بدلا من أن تسحق تحت حقد الفشل والكراهية .

---

(١) محمد جلال كشك : (دراسة فى فكر منحل) .

ولقد ظهرت فى الفكر العربى الحديث نظريات ودعوات تعلى من شأن الجنس وفق مفهوم الاباحة والكشف على أسس من الفلسفة المادية والنظرة المدمرة التى بثتها الماسونية والتى تحمل طابع العلم وصورته .

وكان أقوى من حمل لواء هذ الدعوة فرويد فى دراسات النفس ولورنس فى الأدب وسارتر فى مذاهب الفلسفة ولما كانت هذه الدعوة لها خافية تتصل بأهداف الصهيونية العالمية التى وردت فى بروتوكولات صهيون التى تدعو إلى تدمير الجنس البشرى وتحطيم معنوياته فقد وجدت سبيلها إلى الفكر العربى الاسلامى والثقافة العربية عن طريق غزوات التغريب والنفوذ الأجنبى والاستعمار الفكرى وقد وجدت هذه الدعوات مجالا خصبا فى الآداب الاوربية والقصة واتخذ مذهب فرويد أساساً للقصة والأدب المعاصر ومنه امتدت خيوط إلى الأدب العربى والثقافات الاسلامية .

وتحمل نظريات الجنس دعوة مدمرة خطيرة إلى التحلل والانطلاق والقضاء على مختلف الضوابط والقيم فى مجال علاقات المرأة بالرجل ، ويستهدف النفوذ الاستعمارى والغزو الثقافى من هذا التركيز على هذه المعانى فى المحيط العربى الإسلامى نتيجة أساسية وهى : أن تدمير الجنس فى أمة من الأمم يضمن دمارها وانحلالها وزوالها والمعروف أن انحلال الحضارات المختلفة فى التاريخ كله قد ارتبط بالانحلال الاجتماعى والأخلاقى . وأن الانحلال الجنسى الموجود الآن فى قلب الحضارة الغربية إنما هى علامة خطيرة من العلامات التى تشير إلى نهاية هذه الحضارة .

العالميه

الدعوة إلى العالمية لها مفهوم إنسانى يبهر النفس ويعجب العقل . ولكن لكل مفاهيمه وموازينه ؛ والدعوة إلى العالمية فى هذه المرحلة التى يمر بها العالم الإسلامى والأمة العربية إنما تستهدف أخطاراً كبيرة على الأمم فى حالات الضعف أو حالات وقوعها تحت نفوذ الاستعمار أو قبل أن تتكامل قواها ، وأن الدعوة إلى الأممية أو العالمية فى هذه المرحلة بالذات هى محاولة لتذويب الامم ذات الحضارات والثقافات المتميزة فى حضارة الغالب وثقافته والقضاء على قدرتها فى المقاومة أو التميز بكيانها الذاتى وشخصيتها الخاصة . فالعالمية مذهب فلسفى ينكر حقيقة الأوطان ويرى أن إنقسام العالم إلى أمم متعادية أو متناحرة مضاد للعدالة والأخوة الإنسانية ؛ ومن شأن الفوارق الطبيعية والأخلاقية والاجتماعية والروحية والجغرافية والتاريخية واللغوية — وهى عميقة الجذور بعيدة الاصول فى البشر الى درجة كبيرة — من شنها أ ن تجعل قيام وحدة فكر انسانية شاملة أمر بعيد بل مستحيل « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين » .

ومن الإنصاف أن يقال أن هناك جوانب تلتقى فيها الامم . وأن هناك جوانب أخرى من العسير التقائها حولها . وأهم هذه الجوانب العسيرة الاخلاق والعادات والآدات والتقاليد والاذواق والروح . فليس فى الامكان القول بأن هناك خلقاً وذوقا عالمياً بل ليس هناك خلقاً وذوقا أوربياً . ولكن هناك خلقاً وأدباً وذوقا وروحاً انجليزاة ومثلها فرنسية ومثلها روسية وللعرب والمسلمين خلقاً وتقاليد وآداباً وذوقا مختلفا ، هذه الامور هى مقومات كل أمة ومنبع الهامها ويرجع هذا التباين الى عوامل كثيرة ذاتية من الدم الى الجنس الى البيئة الى الدين الى اللغة الى التاريخ الى السجايا والمفاخر مما يجعل من الاستحالة التقاء الامم فى العالمية —)

ولا شك أن من وراء الدعوة الى العالمية أهداف يحمل لوائها الطامعون والاقوياء . فهناك الدعوة العالية تحت لواء الحضارة الرأسمالية . وهناك الدعوة الاممية التى تحمل لوائها الماركسية وهناك دعوة العالمية التى تطمع الصهيونية فى تحقيقها وذلك بالسيادة على البشر جميعها تحت لواء زعامة شعب الله المختار :

الوطنيه

برزت فى العصر الحديث فكرة (الوطنية) كما برزت فكرة (القومية) ، وظل الباحثون يضطربون فى التفرقة بينهما وتحديد مفهوم كل منهما بحيث لا يتداخلان ، وقد استقر الرأى على أن الوطنية تتصل بالأرض كما أن القومية تتصل بالعرق والدم والأمة ، فالمصريون حين يتحدثون عن مصر أرضها وسمائها وكيان وجودهم فيها فهى وطنية ، وحين يتحدثون عن أمتهم وأرومتهم وإعراقهم فهى قومية ، الأولى تتصل بأرض مصر والأخرى تتصل بالأمة العربية ، ولقد حاول النفوذ الاستعمارى والتغريب والغزو الثقافى بلبلة الثقافة العربية بهذه المصطلحات وإلقاء التعارض والمضادة بينها ، وإعلاء شأن الوطنية الضيقة ، ومحاولة جعلها قومية حتى تفصل المصريين عن العرب ، وكذلك فعل الاستعمار فى سوريا وفى المغرب وفى لبنان ، للحيلولة دون قيام فكر موحد قومى يجمع الأمة العربية فى كيان واحد ، وإثارة خلافات قديمة بائدة ، والتركيز على ملامح طبيعية يختلف فيها كل قطر عن الآخر لخلق روح الإقليمية مرتبطة بتحويل الوطنية إلى قومية ، غير أن هذه المحاولات عجزت عن أن تحقق هدفها ثم برزت نظرة شاملة من وراء إنحراف دعوات الوطنية بالمفهوم الضيق ، أو القومية بالمفهوم الغربى ، تقوم على الترابط بين حلقات ثلاث :

فى الوطن الواحد : الوطنية بمعنى الأرض وهى تتعلق بالأرض فى كل قطر والقومية بمعنى الأمة وهى تمثل الوحدة العربية .

ووحدة الفكر فى مجال الثقافة التى ترتبط باللغة والتاريخ والتراث ذى المصدر الواحد فالمصرى يرتبط بوحدة الأرض الوطنية وبوحدة الأمة العربية ووحدة الفكر الاسلامية .

وكذلك العراق والسورى والمغربى وهكذا .

ولا سبيل إلى الفصل بين الحلقات الثلاث، ولاسبيل لأن يقبل العربى انفصاله

عن مصادر ثقافته ووحدته الفكرية ،ولا سبيل إلى قبوله الوطنية المجردة من روح العروبة وما يزال الاسلام عاملا أساسياً فى أرضية الوحدة الثقافية والقومية وقد استحال أن تقبل الثقافة العربية مفهوما للوطنية أو القومية مستورداً من تجربة الغرب ، فتلك تجربته الخاصة التى صاغها وفق ظروفه وعصره ومقومات فكره وتراثه ، وليست هى بالتالى قابلة لفرضها على أمة أخرى له فكرها وله مقومات شخصيتها وكيانها وذوقها ومزاجها وتراثها الخالص الذى كونته أعصر طويلة خلال أربعة عشر قرناً ، وقد عجزت قوى التغريب عن صهر الثقافة العربية والأمة العربية فى قوالبها التى أرادت بها أن تصهرها فى بوتقه الثقافة العالمية : أى ثقافة الاستعمار المسيطر نفسه .

الاتحاديون وليس السلطان عبد الحميد

هناك خطأ ذائع وشائع ، هو أن الدولة العثمانية هى التى أساءت إلى العرب وعلقتهم على المشانق وأوجدت الفرقة والخلاف ، وكانت سبباً فيما ترتب على ذلك من سيطرة فرنسا وانجلترا على الشام بأجزائه الأربعة (فلسطين والأردن وسوريا ولبنان) وكذلك العراق وذلك بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ وبعد أن اتفق العرب مع بريطانيا على إقامة دولة عربية نظير تأييدهم لها .

والحق أن الدولة العثمانية كلمة مبهمة عامة ، والحقيقة أن (حزب تركيا الفتاة المسمى الاتحاد والترقى) الذى تولى السلطة من عام ١٩٠٨ حتى عام ١٩١٨ هو الذى دمر العلاقات بين العرب والترك بدعوته إلى الطورانية ومحاولته تتريك العرب والقضاء على لغتهم وتعليق زعمائهم على المشانق عام ١٩١٦ .

والاتحاديون جماعة سرية كانت بايعاز من النفوذ الاستعمارى والمنظمات الماسونية العاملة لحساب الصهيونية العالميـة ، تعمل على إسقاط السلطان عبد الحميد حامل لواء الدعوة إلى الجامعة الاسلامية ، وتعد العدة لتمزيق الدولة العثمانية وتسليم الأجزاء العربية وغير العربية منها إلى الدولة الأوربية على النحو الذى وقع فعلا وذلك باعلاء طابـع القومية التركية والعنصرية الطورانية .

أما السلطان عبد الحميد فقد كان يدعو إلى توسيـع جبهة المقاومة على النفوذ الأجنبى وذلك بربط مسلمى آسيا وأفريقيا بالدولة العثمانية وكان موقفه من العرب مشرفاً وكانت إجابته فى مواجهة تحديات الصهيونية لدخول فلسطين من أشرف ماقاله رؤساء الدول وزعماء الأمم عنـد ما رفض رفضاً باتاً إغراء

هرتزل بالملايين من الذهب وقال (تقطع يدى ولا أفرط فى فلسطين ، أن فلسطين ليست ملكا لبلادى ولكنها ملك العرب) ولكن أمثال ساطع الحصرى وغيره من الباحثين المتأثرين بأغراض خاصة يطوون هذه الصفحة ويموهونها على النحو الذى لا تبدو تلك الفوارق بين الدولة العثمانيه وبين الاتحاديين واضحة كما يقيمون الفوارق الدقيقة بين موقف السلطان عبد الحميد الذى دافع عن فلسطين ودفع ثمن ذلك عرشه وحياته وبين وموقف الاتحاديين الذين علقوا العرب على المشانق فقطعوا كل صلة بين العثمانيين والعرب .

الباب الثامن

الكتب والمؤلفات

ألف ليلة وليلة

من أخطر شبهات التغريب محاولة اعتبار كتاب (ألف ليلة وليلة) مصدراً تاريخياً ممثلا لحياة العالم الإسلامى ، فقد جرت محاولات متعددة لاعتبار القصص الذى تضمه ألف ليلة ممثلا لحياة العرب والمسلمين بصفة عامة بينما تكشف أقل مراجعة لمصادر ألف ليلة عن أنه تراث إيرانى وهندى سابق للاسلام وأنه لايمثل بحال صورة المجتمع الإسلامى العربى ، أو مفاهيم الفكر العربى، وقد حكى المؤرخ الكبير المسعورى المتوفى ٩٥٦م (القرن الثالث الهجرى) فى كتابه مروج الذهب عن وجود كتاب قديم بالفارسية أو بالفهلوية يحكى عن ملك وعن بنت وزيره (شهر زاد) وخادمتها دين زاد وقد أشار إليه ابن النديم مؤلف الفهرست المتوفى ٥٩٠ه مجملا وقال أنه كتاب الحماقة والسيئات ، كما أشار إليه المؤرخ القرطبى وقد كانت كل إشارات المؤرخين المسلمين إليه إشارات تحمل طابع الرفض والامتهان والنص على أنه مصدر ساقط فى أنظار العلماء والباحثين على حد عبارة الدكتور سنيتى كما رجترجى فى محله ثقافة الهند (يناير ١٩٦٢) .

ومعنى هذا أن لكتاب ألف ليلة أصلا كان سابقاً للاسلام وأن مصدره أساطير هندية وفارسية ، وقد ظل العرب يتناقلونه بعد ترجمته كوسيلة من وسائل الترف ويضيفوا إليه حكايات جديدة ، كما أضيفت إليه فى العهود المختلفة وآخرها عهد دولة المماليك ومسامرات أهل بغداد والقاهرة .

ومن هنا نرى خطر الاستعانة به كمصدر لدراسة حياة المجتمع الإسلامى بل على حد اتجاه بعض المستغرقين ودعاة التغريب من اعتباره مصدراً وحيداً فى رسم صورة رائفة .

ومما يذكر أن أول من أبدى اهتماماً أزاء ألف ليلة وليلة هو جاسوس انجليزى مغامر (ريتشاود بيرتون) عام ١٨٨٣ وهو واحد من أولئك الذين كانوا يتخفون فى زياراتهم للبلاد العربية ويلبسون العباءة العربية أمثال لورنس وفيلبى وكان يطلق على نفسه فى دمشق الحاج عبدالله والمعروف أنه تصرف فى النقل على النحو الذى يخدم أهدافه .

ومن الحق أن يقال أنه مهما تكن صورة الحياة التى ترسمها ألف ليلة فهى ليست الصورة التى يرسمها لمجتمع الإسلامى والمرأة التى تصورها ألف ليلة ليست قطعاً صورة المرأة العربية أو المسلمة ، فقد غير الإسلام نظرة المرأة إلى الحياة كما غير واقعها تماماً فلم تكن فى مفهومه ولا فى مجتمعه الأصيل أداة جنس أو مصدر غايات حسية ، كما كانت فى مفهوم المجتمع الوثنى أو الجاهلى ، وحتى بعد أن اضطربت الحياة فى المجتمع الإسلامى فقد ظل هناك فارق واضح وحاجز كبير بين ما كانوا يسمونها (الغانية) وبين ذات الصون والعفاف .

وقد حوى ألف ليلة صورة مشوهة عن المجتمع العربى الاسلامى يزيد فى زيفها أن قصصه تمثل أمما مختلفة وعصوراً متباينة وأن الجانب الأكبر منه كان موجوداً قبل الاسلام : وقد أضاف المترجمون الغربيون — بالقصد العمد — القائم على التعصب والخصومة ، أضافوا إلى بشاعة الصورة التى يحملها الكتاب إضافات زادته فساداً ، فقد أشار (غالان) المستشرق الفرنسى الذى ترجم ألف ليلة لأول مرة عام ١٧٠٤ م بأنه « فرنج » الكتاب ليلائم ذوق قارئه وأنه ركز على صور الرفاهية والترف وأنه عمد إلى رسم ما سماه : صورة الشرق الحيوانى .

وكان أن استقى من هذه الترجمة باحث آخر هو المستشرق (لين) أرضية كتابه (وكذلك ألف كثيرون) عن المجتمع الاسلامى اعتماداً على هذه الصورة وقال ريتشرد بيرتون (الانجليزى) فى مقدمة ترجمته لألف ليلة انه إنما أراد منها أن يتعرف مواطنوه بما فيه الكفاية على طباع المسلمين وعاداتهم وأخلاقهم ليكون لديهم الحنكة الضرورة لحكم المسلمين الواقعين ضمن امبراطوريتهم .

وقد أخطأ هذا المستشرق فى تقديم هذه الصورة للمستعمرين لأنها لا تمثل المسلمين والعرب من قريب أو بعيد ، ولقد أخطأ المستعمرون فى الاعتماد عليها كأساس لمعرفة أخلاق المجتمع الاسلامى المختلف عن ذلك اختلافاً كبيراً .

شمائل المصريين المحدثين

من أسوأ الكتب التي وضعت للطعن من قدر المصريين والعرب والمسلمين ومن قدر حضارتهم ومجتمعاتهم ومهمتهم الأساسية هـذا الكتاب الذى ألفه المستشرق (ادوارد وليم لين) وقصد فيه إلى التقاط كل ما يتعلق بالعادات والخرافات والأساطير ومحاولة تلفيقها فى صورة زائفة يراد بها تقديم صورة للمجتمع المصرى، وهى صورة ليس فيها شىء من الحق أو الانصاف وليس فيها أى قدر للصدق أو التحقيق العلمى. وكان إدوار لين قد قدم إلى مصر عام ١٩٢٥ لدراسة آثار المصريين القدماء، واتخذ له منزلا فى بعض الأحياء الشعبية وادعى الاسلام وأطلق على نفسه اسم منصور افندى ولبس ملابس الأتراك، وبذلك أحاط نفسه بجو من الثقة مكنه من خداع الوطنيين وتحقيق هدفه فى تجميع خيوط وهمية نسبها إلى الإسلام فقد أخذ يتصل بالطرق الصوفية وموالد الأولياء ويجمع ما يردده العامة من أحاديث الخوارق والخرافات والبدع، ثم صنع من هذا كله دراسة فى جزئين كبيرين كانت كسباً ضخماً لدوائر الاستشراق فى أوربا إذ بلغ الاهتمام بها قدراً كبيراً وتناقلتها اللغات المختلفة واعتبرت لدى المبشرين والمستشرقين مرجعاً يعتمدون عليه وقد عنيت دائرة المعارف الإسلامية إلى أنشأها متعصبو الاستشراق بهذا الكتاب واعتبرته مرجعاً، تنقل منه هذه الخرافات على أنها حقائق. وقد جرى هذا المجرى من بعد (أحمد أمين) حين لبى نداء هؤلاء العتاة فى إنشاء قاموس للعادات والتقاليد الشعبية ونقل كثيراً مما كتبه (لين) وجرى مجراه فكان ذلك من الأمور الخطيرة البعيدة عن التحقيق العلمى.

الأغانى

(الأغانى) كتاب أدبى فى بضعة وعشرين جزءاً وضعه أبو الفرج الأصفهانى ليسامر به الأمراء والفارغين من المترفين فى أسمار الليل ، ولم يقصد به إلى العلم أو التاريخ وكان الاصفهانى فى نفسه إنساناً رافضاً لمجتمع المسلمين والعرب وله ولاء بالمولد وبالفكر جميعاً إلى خصوم المسلمين والباطنية والرافضة وغيرهم، ولم يكن عمله هذا إلا نوعاً من الحرب العنيفة التى شنتها الشعوبية على الإسلام والمسلمين والعرب رغبة فى هدم فكرهم كوسيلة إلى هدم مجتمعهم .

واشتد حرص التغريب وأصحاب نظرية النقد الأدبى الغربى الوافدة على إلقاء الأضواء الساطعة على هذا الكتاب وإحيائه واعتباره مرجعاً فى الدراسات الأدبية ومصدراً لتصوير المجتمع الاسلامى وكان الدكتور طه حسين جزاه الله أبرز من دعوا إلى ذلك وألحوا عليه فقد عمد إلى الاغانى نفسها فاستصدر إعتماداً على قصصها أحكاما زائفة على مجتمع المسلمين وتاريخهم أراد بهما المساهمة فى عملية التغريب الضخمة التى كانت تجرى فى الثلاثينات من هذا القرون .

غير أن أقل مراجعة لسيره الاصفهانى تكشف عن أنه كان من الشعوبيين وقد عرف بالتحايل والاغراق ، وأثبت كثير من الباحثين والمؤرخين أنه لم يكن مؤرخاً .

وأكدوا أن كتابه لا يصلح لان يكون مادة تاريخ، وإنما هو جماع لقصص وجدها فى الكتب والاسواق وأراد بها أن يسجل للأغانى والمغنين وهو جانب واحد من حياة المجتمع الاسلامى الحافل بالجوانب السياسية والاجتماعية والفقهية والصوفية ، وقد شهد عليه الكثير من معاصريه ومؤرخيه بالانحراف ودمغه المؤرخ البوسقى بشهادة تحطمه فى نظر العلماء كمصدر موثوق به إذ قال « أن أبا الفرج أكذب الناس لانه كان يدخل سوق الوارقين وهى عادة الدكاكين وهى مملوءة بالكتب فيشترى منها شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها » وذكر عنه صاحب معجم الادباء (جـ ٥ ص ١٥٣) قوله :

(كان شأنه فى معاقرة الخمر وحب الغلمان ووصف النساء شأن الشعراء والأدباء الذين كانوا فى عصره أو قبله ، حيث يقدم دهاقين الخمارين وجلهم من النصارى واليهود والصابئين والمجوس ، وقد عرف بمعاقرته للخمر ولم تكن له عناية بتنظيف جسمه وثيابه) .

وقال عنه الصابى فى كتابه الذى ألفه فى أخبار الوزير المهلبى (وكان أبو الفرج الاصفهانى وسخا قذراً لم يغسل له ثوباً منذ فصله إلى أن قطعه وكان الناس يحذرون لسانه ويتقون هجاءه ، ويصدون عن مجالسته ومما شرته على كل صعب من أمره لأنه كان وسخاً فى نفسه وثوبه ونعله) .

وحكى القاضى أبو على المحسن التنوخى فى كتابه نشوار المحاضرة :

« إن أبا الفرج كان اكولا نهما وكان إذا أكل الطعام وثقل على معدته تناول خمسة دراهم فلفلا مدقوقاً ولا يؤذيه ولا تدمع له عيناه وبعد ساعة أو ساعتين يقصد » .

ولست أدرى كيف يصلح مثل هذا الكاتب مرجعاً فى نظر الباحثين ، أو يمكن أن يؤتمن على رأى أو قول ، ولقد عودتنا مناهج الفكر العربى الاسلامى أن تنظر إلى الكاتب قبل أن ننظر إلى كتابه فان وجدناه أميناً كريماً موضع تقدير الناس بالصدق والحق قبلنا منه وإلا رفضنا ما يقدمه ولو كان صادقاً فى بعضه - وقد أشار الدكتور زكى مبارك فى كتابه (النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى) إلى مكانة الاصفهانى وكتابه الأغانى فى بحث مطول نجتزىء منه قوله : (وشهره الاصفهانى وكتابه مستفيضه وإنما أريد هنا أن أنص على ناحيتين فى الاصفهانى وكتابه لم أجد من تنبه لهما من الباحثين . ولهاتين الناحيتين أهمية عظيمة فى فهم الحياة الادبية وسيكون لهما أثر عظيم فى دعوة المؤلفين إلى الاحتياط حين يرجعون إلى كتاب الاغانى يلتمسون الشواهد فى الأدب والتاريخ (الناحية الأولى) خاصة بالاصبهانى ، تلك الناحية هى خلقه الشخصى فقد كان الاصبهانى مسرفاً أشنع الاسراف فى اللذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب فى تكوينه الخلقى أثر ظاهر فى كتابه ، فان كتاب الاغانى أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون ، وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد

الجوانب الضعيفة فى أخلاقهم الشخصية ويهمل الجوانب الجدية إهمالا ظاهرا ، يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجد والرزانة والتجمل والاعتدال وهذه الناحية من الاصبهانى أفسدت كثيراً من أراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ونظرة فيما كتبه جرجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية وما كتبه الدكتور طه حسين فى حديث الأربعاء تكفى للاقتناع بأن الاعتماد على كتاب الأغانى جر هذين الباحثين إلى الحط من أخلاق الجماهير فى عصر الدولة العباسية وحملها على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر فسق وشك ومجون .

« ولا شك أن اكثار الاصبهانى من تتبع سقطات الشعراء وتلمس هفوات الكتاب جعل فى كتابه جوا مشبعاً بأوزار الاثم والغواية وأذاع فى الناس فكرة خاطئة هى اقتران العبقرية بالنزق والطيش .

(أما الناحية الثانية) فهى خاصة بكتاب الأغانى : تلك الناحية هى نظم ذلك الكتاب ففى مقدمته عبارات صريحة فى الدلالة على أن مؤلفه قصر اهتمامه أو كاد على أمتاع النفوس والقلوب والأذواق ، فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ ، وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدم لأهل عصره أكبر مجموعة تغذى بها الأندية ومجامع السمر ومواطن اللهو وأنه ليحدثنا فى المقدمة بأنه أتى فى كل فصل من كتابه بفقر إذا تأملها قارئها لم يزل متنقلا بها من فائدة إلى مثلها ، ومتصرفاً فيها بين جد وهزل . وأخبرنا بعد ذلك بأنه اهتم بالغناء الذى عرف له قصة تستفاد وحديثاً يستحسن وعلل ذلك بقوله « إذ ليس لكل الأغانى خبر نعرفه » .

وقال زكى مبارك : والخطر كل الخطر أن يطمئن الباحثون إلى أن لروايات الأغانى قيمة تاريخية وأن يبنوا على أساسها ما يشيرون من حقائق التاريخ ولا سيما وصاحب الأغانى يصارحنا بأن « فى طباع البشر الانتقال من شىء إلى شىء والاستراحة من معهود الى مستجد » .

وهكذا تبدو صورة كتاب الأغانى على حقيقتها أمام الباحثين ،

البيان والتبيين

واجه كتاب البيان والتبيين للجاحظ حملة عاصفة من النقد والتجريح من كاتبين شهيرين هما سلامة موسى وطه حسين بينما خطى بعض كتب الجاحظ بتقدير هذين الكاتبين . وهذا موضع الغرابة التي تكشف عنها عناصر هذا الكتاب .

« فنقطة الانطلاق فى هذا الكتاب هو مواجهة دعاة الشعوبية وتوضيح ما للعرب من مزايا فى لغتهم وبيانهم وبديهيتهم وسرعة خاطرهم وذلك أن المفاضلة بين العرب وسواهم فى هذا الباب كانت من المسائل التى عنى بها الشعوبيون وخصومهم وخاصة فى مجال الخطابة ، فقد دافع الجاحظ عن العرب وبيانهم وتكلم عن الخطابة عندهم والكتابة وعن شعرهم ولهجاتهم ونوادرهم ومناظراتهم ورويتهم وبديهتهم وذكر عدداً من شعرائهم وخطبائهم وكتابهم وأشار بما جبل عليه العرب من بلاغة وقوة عارضة فى بواديهم وخواطرهم ويتمثل هذا الجزء الذى أزعج دعاة التغريب (وهو الجزء الثالث) الذى أطلق عليه : الشعوبية ومن يتحلى باسم السوية وقد وصفهم بذلك لأن ظاهر دعوتهم كانت المطالبة بالتسوية بين العنصر العربى والعناصر الأخرى بعد أن بين آراء الشعوبية ومزاعمهم ورد عليها فبين أولا أن اليونانيين إنما كانوا أصحاب فلسفة ومنطق لا أصحاب خطابه أن الهنود كانوا أصحاب حكمة وأدب وأنه لم يشتهر بالخطابة حقا إلا العرب والفرس ثم فرق بين خطابة الفرس وخطابة العرب .

وقال أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم إنما هو عن حول فكره وعن اجتهاد وخلوه ، وكل شىء للعرب إنما هو بديهية وارتجال وكأنه الهام وليست هناك معاناة » .

المضنون به على غير أهله

نسب إلى الامام الغزالى كتاب يطلق عليه اسم « المضنون به على غير أهله » وقد كذبت المصادر المختلفة هذه النسبة وفى مقدمتها ما ذكره السيد المرتضى الزبيدى فى شرح الأحياء قال : اعلم أنه عزى إلى الشيخ كتب منها (المضنون به على غير أهله) ، قال ابن السبكى : ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه ، وقال معاذ الله أن يكون له . وبين سبب كونه مختلقا عليه والأمر كما قال وقد اشتمل الكتاب المكذوب على الغزالى على التصريح بقدم العلم ونفى علم القديم بالجزئيات وفى (المسامرة) لمحى الدين عربى : أن هذا الكتاب من تأليف على بن خليل السبتى وكذا صرح صاحب تحفة الارشاد بأنه موضوع عليه .

الامامة والسياسة

تردد أن كتاب الامامة والسياسة هو من تآلف ابن قتيبة وهو من الأخطاء الشائعة ، التى نقلها الوارقون حين طبعوا مثل هذا الكتاب ويؤكد خطأهم عدد من الثقاة المحققين ويقول السيد محب الدين الخطيب رحمه الله :

« كتاب الامامة والسياسة : لقيط مجهول النسب ، وابن قتيبة برىء منه ولم يذكر له مترجموه كتاباً بهذا الاسم . وأسلوب القول فيه يخالف أسلوب ابن قتيبة فى كتاب (المعارف) وفى سائر كتبه ، والكتاب يشعر بأن مؤلفه كان بدمشق وابن قتيبة لم يخرج من بغداد إلا إلى الدينور ، والمؤلف يروى عن أبى ليلى ، وأبو ليلى كان قاضياً بالكوفة قبل مولد ابن قتيبة بنحو مائة وعشرين سنة . ويذكر فتح موسى بن نصير لمراكش وهذه المدينة شيدها يوسف بن تاشفين بعد ابن قتيبة بمائة سنة . فكتاب الإمامة والسياسة لا يجوز لمؤلف أن يجعله من مصادره » .

المنجد

قاموس المنجد : يشتمل على قاموسين : قاموس للالفاظ اللغوية ، وهـذا ليس موضع المناقشة الآن ، وقاموس أطلق عليه (معجم الآداب)إعدادفردنيان توتل وهو القاموس الحافل بالأخطاء والشبهات ، والذى عرض له عديد من الباحثين ، وكشفوا عن أخطائه وفى مقدمتهم العلامة عبد الله كنون الذى نشر فى مجـلة دعوة الحق المغربية أكثر من عشر فصـول عنه تضم أكثر من اربعمائة خطأ شائع : تاريخى وعلمى ، وقد قرأت أولى تخطئة المنجد فى مجلة الفتح عام ١٩٢٦ و ١٩٢٧ وقد أحصى عن الستار فراج فى مجلة العربى للمنجد مائة خطأ تاريخى ولغوى وجغرافى من الأخطاء الصارخة (مما يجب أن يحذف أو يصحح أو يصاغ بطريقة تبرئة من الشك والابهام) .

وأشار إلى أن المؤلف قد اعتمد على دائرة المعارف الاسلامية التى وضعها كبار المستشرقين ، وعلى كتاب التمدن الاسلامى لجرجى زيدان وعلى كتاب بروكلمان وكلها منقوضة .

وأسوأ مافى القاموس مادة « محمد » وهى فى عباراتها تنضح بالتعصب والحقد وفساد المنهج والبعد عن العلمية والانصاف .

يقول : « محمد نبى المسلمين من بنى هاشم تزوج من خديجة ورزق منها فاطمة دعا الأعراب إلى الاسلام وانتصر على الملكيين فى بدر ولـكنهم غلبوه فى أحد فحاربهم فى حنين ودخل مكة ظافراً » .

ولاشك أن قاموس المنجد من أخطر القواميس التى فى كل الأيدى والمحملة بالأخطاء وخاصة فيما تحاول أن تدخله إلى الألفاظ العربية من مصطلحات كنسية وطائفية ولا هوتية وهى ألفاظ ليست عربية أصلا فضلا عن أنه يفسرها تفسيراً لا يتفق مع مفاهيم الاسـلام .

دائرة المعارف الإسلامية

وضعت دائرة المعارف باللغات الأوربية فى دوائر الاستعمار والاستشراق والتبشير بهدف أساسى هو أن تكون مادة فى أيدى الخبراء والمبعوثين الذين ترسلهم دوائر وزارات الاستعمار إلى عالم الاسلام والعروبة ،ولذلك فهى تنضح بالحقد والتعصب والشكوك والاضطراب وقد كتبها جهابذة التبشير والاستشراق وحملوها كل خصوماتهم وأحقادهم .

وقد لفت الباحثون المنصفون النظر إلى أخطاء دائرة المعارف عندما ترجمها نفر من الكتاب فى الثلاثينات فقد تصدى لهم أكثر من باحث منصف يعارض خطتهم ويطالبهم بتصحيح تلك الأخطاء فى صلب البحث ولكنهم اكتفوا بالتعليق على هذه الشبهات فى الهوامش ففوتوا كثيرا من الحقائق على القارىء العجل الذى لا يعنى بالرجوع الى الهامش . وقد أشار العلامة فريد وجدى الى ظاهرة خطيرة فى هذه الموسوعة وهى (سيطرة البدع الدخيلة فى الدين الاسلامى على مواد الموسوعة باستفاضة مثيرة ، حتى ليظن الباحث أنها من أصول الاسلام) وقد أمعن مؤلفوا الدائرة فى تسجيلها وشرحها كأنها حقائق مقررة، وبينما تسيطر هذه البدع على أنها من المعارف الاسلامية فان الاسلام يبرأ منها وماجاء الا لمحاربتها . وأشار العلامة وجدى الى « القصد المتعمد فى الجمع بين أساطير البدع وحقائق الشريعة » وقال أن أكبر كتاب الدائرة قسس مبشرون يهمهم أن يتحيفوا الاسلام لا أن ينصفوه وقليل منهم من يتصف بالشجاعة العلمية فيتغلب على عناصر التعصب وليس كتاب الدائرة وحدهم من النمط بل جل المشتغلين بالدراسات الاسلامية فى الغرب لا يتجاوزون صناعة التبشير ومنهم « توماس باترك هيوز » صاحب قاموس الاسلام وهو مرجع متبادل لا تكاد تخلو منه مكتبة أوربية ، وقد قضى القس المؤلف فى وظيفته التبشيرية ببلاد الهند بين المسلمين والبرهميين والبوذيين أكثر من عشرين سنة ، وجمع ونشر معجمه هداية للموظفين الانجليز الذين يتولون الحكم ببلاد الهند فى أواخر القرن الماضى ومساعدة للمبشرين بالمسيحية ممن يحاولون علماء الاسلام وللباحثين فى الأديان المقارنة .

ومن المصادر التى إعتمدتها دائرة المعارف (كتاب شمائل المصريين) الذى كتبه المستشرق إدورد وليم لين عام ١٨٢٥ عن المصريين وقد أصبح هذا الكتاب أحد المراجع الهامة لمؤلفى دائرة المعارف ينقلون عنه الخرافات وكأنها حقائق. وقال أحمد أمين : إن نظرة المستشرقين فى دائرة المعارف هى نظرة خاصة يختلف عن النظرة التى ينظرها المسلمون وبعضهم كان متعصباً يمزج تعصبه ببحث كما فعل الأب لا منس فى بعض ما كتب.

وقال العلامة تقى الدين الهلالى : أن فى دائرة المعارف الاسلامية أخطاء ودسائس ناشئة عن التعصب الأوربى ، وفى بروكلمان مثل ذلك وأقبح، وقد وجه دكتور محمد يوسف زايد النقد إلى دائرة معارف البستانى فقال . إن الدائرة بشكلها الحاضر لم تحقق ماهدف إليه ناشروها وماينتظره منها القارىء العادى الذى لا يستطيع أن يطمئن إلى دقة معلوماتها كما أنه لا يجد فى كثير من موادها الترابط بين الأجزاء الذى يسبغ على المادة وحدتها كما أنه أيضاً لا يجد المراجع الضرورية لبحثه فضلا عن المتخصص الذى لا تروى مواد الدائرة غلته بطبيعة الحال .

يقظة العرب

يقظة العرب لجورج أنطونيوس من الكتب الخطيرة التى يجب الحذر الشديد فى الأعتماد عليها فى كتابة تاريخ العرب والاسلام الحديث ، وقد أشار بعض المستشرقين ودعاة التغريب بالاعتماد عليه فأفسد كثيرا من أبحاث الباحثين، وأن المراجع لوقائع حياة جورج أنطونيوس لا يدهش من أن يكون كتابه خدمة للتيارات الغربية وتركيزاً على الوقائع المشبوهة فهو من مواليد دير القمر بلبنان ومن خريجى كلية فيكتوريا بالإسكندرية ومن رواد جامعة كمبردج ، وكان متلحقاً بدائرة المعارف فى حكومة الاحتلال البريطانى فى فلسطين ، شأنه فى هذا شأن نجيب عازورى ، الذى يركزون على كتابه (يقظة الأمة العربية) .

وقد غالى أنطونيوس فى تصوير الدور الذى لعبته الجمعية العلمية السورية التى أنشأها النفوذ الاستعمارى داخل الكلية السورية الانجيلية والذى عده عاملا أساسياً فى نشوء القومية العربية بينما كان الانصاف يقتضيه أن يعتبر هذه الجمعية السرية هى أول عامل محرك لدفع اللبنانيين إلى الانتقاض على الدولة العثمانية والمطالبة بحكم خاص تحت نفوذ الدول الأجنبية وخاصة فرنسا ، وأن رفع لواء العرب فى هذا الوقت لم يكن من أجل وحدة العرب بل من أجل الانفصال عن دولة الخلافة .

وأبرز أخطائه الناشئة عن التعصب موقفه من السلطان عبد الحميد واتهامه بما هو منه براء ، والتنكر لموقفه من الصهيونية ومن هرتزل وهو من أشرف المواقف ومن العسير أن يطلب من مثل جورج أنطونيوس فى ثقافته وعقائده الدينية والفكرية أن ينصف الدولة العثمانية أو السلطان عبدالحميد ، ولقد كشفت الوثائق الكثيرة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة من الحقائق ما يجعل الكثير مما ذهب إليه أنطونيوس زائفاً وخاطئاً وأبرز أخطائه أن اعتبر ناصف اليازجى وبطرس البستانى مبدأ اليقظة العربية فضلا عن إساءته إلى عبد الرحمن الكواكبى ، من أجل هذا كله أصبح كتاب يقظة العرب من الكتب التى تقرأ بحذر ولا تؤخذ على أنها من المصادر العلمية .

الموسوعه العربيه الميسرة

وجهت إلى الموسوعة العربية الميسرة نقدات شتى وجملة ماقيل عنها أنها دائرة معارف أجنبية (هى فى الواقع دائره معارف كولومبيا) قد ترجمت إلى اللغة العربية دون تقدير للتاريخ العربى الإسلامى وحقائقه ودون تقدير حاجة الباحث العربى ، فهى لا تحمل مطلقاً أى وجهة نظر عربية لما تناولته من موضوعات ، وهى تتنكر أساساً للسنة الهجرية والتاريخ الهجرى فى كل ما توردة من مواد وخاصة فيما يتعلق بعصر النبى والخلفاء .

فإذا عرضنا للمواد الاسلامية وجدناها ضعيفة جداً وفاترة ومدرسية إلى أبعد حد وليس بها من السعة والعمق ما نجده من للمواد التى لا حاجة للباحث العربى بها هذا بالإضافة إلى غلبة طابع السيطرة الصهيونية على المواد وخاصة فيما يتعلق بفلسطين وتاريخ الأديان .

ومن المقارنة بين مادة مسجد ومادة مسرح تجد أن المسجد قد كتب عنه خمسة عشر سطراً بينما كتب عن المسرح ١٧٠ سطراً .

وتصويرها لمادة شريعة ، ومادة صلاة ومادة صوم هو تصوير بدائى وساذج .

وتضم الموسوعة بعض المواد التى اعتمد فيها على الاسرائيليات والروايات التى تضمنها الكتب غير العلمية كمادة إسرائيل . وأسوأ ما فى الموسوعة إنها تحمل وجهة نظر اليهودية فى مختلف المسائل . فهى تحاول أن تفرض على الباحث العربى مفهوما خطيراً بالنسبة لفلسطين لا يتفق مع حقائق التاريخ .

ومن عجب أن باب الأديان والعقائد قد حرر تحت إشراف إبراهيم مدكور وأحمد فؤاد الأهوانى وغيرهم . وأن ثلة من الكتاب المسلمين والعرب ذكرت أسمائهم فى المقدمة كمحررين لفصول الموسوعة .

تحرير المرأة

كان لكتاب تحرير المرأة الذى كتبه قاسم أمين ولا يزال دوى كبير وشهرة عالمية فى مختلف دوائر الفكر والسياسة ، وقد اعتبره الكثيرون نقطة بدأ لنهضة المرأة المصرية الحديثة غير أنه لفهم مضامين هذا الكتاب يجب معرفة البواعث والظروف التى أحاطت باصداره ، وهى كتاب الدوق داركون الذى كتبه عن مصر ورد عليه قاسم أمين وصالون الأميرة نازلى هانم فاضل الذى كان يرتاده محمد عبده وسعد زغلول ، تحت رعاية اللورد كرومر وفى ظل مخططات النفوذ الاستعمارى وقد روى فارس نمر صاحب جريدة المقطم عام ١٩٢٥ ذكرياته فى هذا الصدد فأشار إلى بواعث تأليف كتاب تحرير المرأة وكيف كان قاسم أمين يشير فى رده على الكاتب الفرنسى داركور مهاجماً الحركة النسائية التى تتزعمها هذه الأميرة وكيف كلف فارس نمر أن ينتقد ما كتبه قاسم خاصاً بالمرأة ، ثم اقترح الشيخ محمد عبده أن يتقدم قاسم إلى صالون نازلى للاعتذار عن الطعن الذى أورده فى كتابه وما رآه فى معارضة السفور على النحو الذى كانت تدعو إليه الأميرة فى مجتمعاتها ، وكان أن اتفق على أن يكتب قاسم كتاباً يرضى الأميرة ، وكان إلى جانبه فى هذا الرأى محمد المويلحى وسعد زغلول ومحمد عبده ، وقد أشارت مصادر كثيرة إلى أن الشيخ عبده كتب بعض مواد هذا الكتاب ، وقد أرادوا بذلك ترضية الأميرة وكسب ودها حرصاً على حمايتها لهم فى ظل النفوذ البريطانى . ومن هنا نرى أن قاسم أمين لم يكن فى الحقيقة منطلقاً من هدف صحيح ، هذا فضلا عما أثبتته الوثائق من أنه رجع عن أغلب آرائه فى أيامه الأخيرة وقال أنه أخطأ وتسرع فى الدعوة إلى السفور فى مجتمع لم يستكمل بعد عوامل النضوج(١) .

---

(١) راجع كتابنا (الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب) .

حديث الأربعاء

كان كتاب (حديث الأربعاء) واحداً من كتب الدكتور طه حسين التى استهدفت غرضاً معينا فى مجال إثارة الشبهات والتشكيك فى التاريخ والأدب العربيين : وكانت فصول حديث الأربعاء تنشر فى جريدة السياسة الأسبوعية فى يوم الأربعاء من كل أسبوع بينما ينشر الدكتور قصصا فرنسية إباحية مترجمة فى يوم الاثنين . وقد أثار هذا بعض المراجعات حتى قال الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى : لفتنى من الدكتور فى كتابيه (حديث الأربعاء) وهو مما وضع) وقصص تمثيلية (وهى ملخصة) إن له ولعاً بتعقب الزناة والعشاق والفجر والزنادقة ، وقد ينكر القارىء أنه أدخل القصص التمثيلية فى هذا الحساب ويقول أنها ليست له وإن كل ما له فيها أنه ساق خلاصة وجيزة لها .

وهذا الاعتراض مدفوع لأن الاختيار يدل على عقل المرء ويشى بهواه ، كالابتكار سواء بسواء ، وإنما يختار المرأ ما يوافقه ويرضاه ويحمله عليه اتجاه فكره حتى لا يسعه أن يتخطاه .

وها هو ذا حديث الأربعاء ماذا فيه ، كلام طويل عن العصر العباسى وللعصر العباسى وجوه شتى وفى وسعك أن تكتب عنه من عدة جهات وأن تتناول فلسفته أو علمه أو شعره وجده وهزله .

ولكن الدكتور طه يدع كل جانب سوى الهزل والمجون ويروح يزعم أنه عصر مجون ودعارة وإباحة متغلغلة إلى كل فرع من فروع الحياة ، فلماذا ؟ لأية علة يغضى عن الجوانب الأخرى لذلك العهد . بل قل لماذا لا يرى غير الماجنين والخليعيين صورة منـــه ، ولست أفترى عليه فانه القائل فى الصفحة السابعة والعشرين من كتابه :

« ادرس هذا العصر درساً جيداً واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء، وما كان يجرى فى مجامعهم من حديث تدهشك ظاهرة غريبة ، هى ظاهرة الإباحة

والاسراف فى حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم سواء أكان هذا القديم دينا أم خلقا أم سياسة أم أدباً » .

ولم يكف الدكتور أن يعهد إلى طائفة معينة من شعراء العباسيين وأن يرسم من سيرتهم صورة يزعمها صورة العصر بل هو ينكر أن غير هؤلاء من العلماء أو الشعراء يمثل العصر العباسى، ثم يمضى ويورد سيرة أبو نواس ومن إليه مثل الوليد بن يزيد ومطيع بن أياس وحماد عجرد والحسين بن الضحاك ، ووالبة ابن الحباب، وإبان ، ومروان بن حفصة ويقول فى بيان الحكمة من ذلك أنه لايريد أن يكتفى بالقول بأن القرن الثانى للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك والمشغوفين بالخير إنما كان عصر شك ومحويه وعصر افتتان وإلحاد عن الأخلاق المألوفة والعادات الموروثة والدين أيضاً . وإنما أريد أن أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون تشخيصاً لا يحيل إلى الشك فيها سبيلا ، ثم أريد أن أبين أن هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، وإن سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الوهد فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعهم يحبونهم .

أقول . إذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندى شك فى أن هذا العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم ، لم يكن عصر إيمان ويقين فى جملته وانما كان عصر شك واستخفاف وعصر مجون واستهتار باللذات (ص ١٨٤) .

يقول المازنى :

« وحسبنا هذه المقتطفات، ونكتفى بملاحظة واحدة هى أنه ما من عصر يمكن أن يكون له جانب واحد كما يريد أن يصور لنا العصر العباسى ، وأنه لم يخل زمن قديم أو حديث من مثل ما يضيف الدكتور ، ولو أن كاتبا تناول عصرنا الحاضر لاأنى الكلام ذا سعة على نحو ما فعل الدكتور ، ولكنه لايكون صادقاً ولا دقيقا . إذا ذهب يزعم أن حياتنا الحاضرة قائمة على الفسق والفجور

والدعارة والإباحة والزندقة والالحاد ، من أجل أن الشعراء والكتاب — وأنا منهم ولا فخر — ذكروا الخمر وتغزلوا وتشببوا وأن الناس يتفكهون فى مجالسهم ويرفهون عن نفوسهم بالتلهى والمجانة أحياناً وأن ذلك يعجب الفارغين ويروقهم » ا . ه

وقد واجه ما جاء فى كتاب حديث الأربعاء كتاب كثيرون ودحضوا زيف الرأى الذى وصل إليه الدكتور باتهام العصر كله ، ومما قاله أنطون كرم فى بحثه عن الأدب العربى فى آثار الباحثين قوله (وكان من جرأته (أى الدكتور طه) إن حلت الاستنتاجات العامة محل اللطائف المستدقة والقوانين الشاملة فى موضع الخصائص الفردية وخالط عرض الحقائق لون من التحدى الخطابى فى الاثبات وقال : احتفظ المؤلف لنفسه أن يجمع بين الأنماط الثلاثة فى دراسة هذا الشعر : التاريخى والذاتى والفنى ، وأنه يحاول الجمع بين أسلوب (سانت بوف) و (جول لومتر) و (تين) فيجرى فيها جميعاً على غير استيفاء ، يتنحى الملامح ولا يتسلل إلى الدقائق فإذا به يخطىء طريق المؤرخ الحق فى جلاء الشك وتحرى الحق الأخير ويخطىء طريق الذاتيين فى تفكيك الذات المبدعة حين يقتصر منها على جوانب » .

كما تناول محمد غلاب وزكى مبارك هذا الاتجاه بالنقد ورده .

الأخلاق عند الغزالى

بدأت الحملة على أعلام الفكر الاسلامى مبكرة من خلال اطروحات أوائل خريجى الجامعة المصرية ، وكان زكى مبارك قد تولى نقد فكر الامام الغزالى معتمداً على كل ما أورده خصوم الفكر الإسلامى عنه من شبهات وتخرصات جمعها فى رسالته التى كانت موضعاللنقد والمراجعة بعد مناقشتها علنا ،على أعمدة الصحف والمجلات ، وكان ذلك عام ١٩٢٤ وما تزال الحملة على الإمامالغزالي قائمة ومستمرة حتى هذه الأيام ، لا تتوقف ولا يحاول دعاة التغريب وقف الهجوم على هذا الرجل الذى دحض قوائم الفلسفة اليونانية الإلهية وحطمها وكشف عن زيفها وأوقف تيارها فى الفكر الاسلامى حتى جاء ابن تيمة فأقام منطق القران بدلا من منطق أرسطو وأكمل عملية تحرير الفكر الاسلامى من محاولة سحقه تحت براثن هذه الفلسفة الوثنية التى سيطرت على كثير من الاديان والعقائد .

وكانت أكبر الاتهامات التى ساقها زكى مبارك للغزالى أنه لم يشر فى مؤلفاته صراحة كلها إلى موقف واحد فى مواجهة الحملة الصليبية التى كانت قد استقرت فى الشام فى هذه الفترة ، ولكن المراجع لفكر الغزالى كله ولعمله الضخم (أحياء علوم الدين) يعلم فى وضوح أن تحدى الحروب الصليبية هوالذى دفعهإلى إعادة صياغة الفكر الإسلامى من جديد فى فهم متكامل وأن اسقبطانة للحدث الضخم كان مصدر أروع معطياته وأعماله .

ولقد شاء الدكتور زكى مبارك أن يراجع نفسه من بعد ، وكانت فرصته لدراسة التصوف الاسلامى بعد أكثر من عشرين عاماً من اطروحته عاملاهاما فى أن يكتب مقاله المعروف الخطير فى مجلة الرسالة عام ١٩٤٤ .

« وإليك أعتذر أيها الغزالى » .

حيث أشار إلى مدى الخطأ الذى وقع فيه وما وصفه بالإندفاع دون التحقق فى موقفه مع الإمام الغزالى وأعلن عودته عن رأيه فيه وقد كان ضروريا وقد أعيد طبع كتاب الأخلاق عن الغزالى فى السنوات الأخيرة أن يشار إلى هذه الواقعة فى المقدمة إقراراً للحق وتأصيلا لمنطلقات وتطورات الكتاب بعد الأعمال الأولى المبكرة فى حياتهم الأدبية .

على هامش السيرة

فاجأ الدكتور طه حسين قراءه عام ١٩٣٣ بظهور مجلة الرسالة بنشر فصول جديدة تحت هذا العنوان شكلت من بعد كتاباً ضخماً فى أجزاء ثلاثة أقبل عليه القراء فى شغف بالغ فقد أغراهم أسلوب طه حسين الموسيقى وحملهم حملا على متابعته ، وكانت صيحات الاعجاب تختلط بصيحات الدهشة بعد أن أشيع أن الدكتور طه حسين رجل قد هاجم بعض القيم الاسلامية فى كتابه الشعر الجاهلى :

وبذلك تحقق الهدف الذى قصد إليه الكاتب ونجح نجاحاً كبيراً فى استعادة مكانته لدى العامة ، وفرح لذلك أيضاً الذين خططوا للعمل نفسه، من حيث أصبح فى مقدور الدكتور طه حسين العودة إلى التأثير فى مناهج التعليم والجامعة والثقافة جميعاً على النحو الذى جرى عليه من قبل .

غير أنه بالرغم من العمل البارع الذى استطاع به طه حسين أن يستعيد مكانته فى نظر الجماهير بالكتابة عن الرسول ، وما حققه ذلك له من ثقة فى مجالات العمل الذى قصد إليه أساساً فان كتابة هامش السيرة كان عملا خطيراً وبعيد الأثر فى إثارة الشبهات حول سيرة الرسول الكريم فقد عمد طه حسين إلى عشرات من الأساطير الزائفة التى أبعدها المحققون عن سيرة الرسول وعملوا على تنقية هذه السيرة الكريمة منها حتى تظل موثقة صحيحة ، فأعادها مرة أخرى إلى السيرة على نحو أشد خطراً مما كان، فقد توسع طه حسين فى هذه الأساطير وأضاف إليها وحذف منها واعترف نفسه صراحة بهذا العمل حين قال :

« أحب أن يعلم الناس أنى وسعت على نفسى فى القصص ، ومنحتها من الحرية فى رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأساً إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبى أو بنحو من الدين »

ولقد هاجم الدكتور محمد حسين هيكل صاحب حياة محمد، صديق طه حسين

على درب الحركة الأدبية بصفة عشر عاما هذا الاتجاه فكتب حصولا فى ملحق السياسة (١) قال فيه :

« إن أدب الأسطورة هذا خصب ألوان الأدب خصب إن الكاتب والقارىء والقارىء يعرفان جميعا أن المادة التى يعالجان هى من نوع الأسطورة لاجناح عليهم إذا هم أطلقوا للخيال فيها العنان فابتـــدعوا من خيالهم ما يزيد هذه الأساطير . رقة وعذوبة ، لا تحول بينهم وبين الأخذ بقول بعضهم « أعذب الأدب أكذبه » أى حائل .

ولذلك فانى استمح طه العذر إن خالفته فى اتخاذ النبى وعصره مادة لادب الأسطورة .

وأشار إلى ما اتصل بسيرة النبى ساعة مولده ، وما يروى عما حدث له من إسرائيليات روجت بعد النبى ، ثم قال · لهذا وما إليه يجب فى رأيى أن لا يتخذ مادة لأدب الأسطورة فإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب ما اندثر ، أو ما هو فى حكم المندثر ، ومالا يترك صدقة أو كذبة فى حياة النفوس والعقائد أثراً ما .

« والنبى وسيرته وعصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعا ، بل هى فلذة من هذه الحياة ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً فى توجيهها وطه يعلم أكثر مما اعلم أن هذه الاسرائيليات إنما أريد بها إقامة أساطير ميثولوجية إسلامية لافساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الاسلام ونبيه وقد كانت هذه غاية الأساطير التى وضعت فى الأديان الأخرى . ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى مختلف العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام » .

وهكذا انكشفت حقيقة خطيرة من وراء هامش السيرة أشد خطراً من الحقائق التى تكشفت من وراء (حديث الأربعاء) و (الشعر الجاهلى) م

(١) ملحق السياسة الأسبوعية (ديسمبر ١٩٣٣) .

فى الأدب الجاهلى

أثار صدور كتاب الشعر الجاهلى عام ١٩٢٦ ضجة كبرى اتصلت بالمشاعر الدينية من ناحية وبالصراع الحزبى من ناحية وكانت نقطة الخطر أن ما جاء فيه من آراء غير محققة بما ألقى على طلبة كلية الآداب ولقد قامت معركة أدبية كبرى حول الشعر الجاهلى واتهم الدكتور طه بالزيغ والالحاد ولما صودر الكتاب سارع الدكتور بإصدار كتاب بديل عنه تحت اسم (فى الأدب الجاهلى) حذف منه بعض الفصول التى أثارت الثورة عليه وأضاف فصولا جديدة غير أن كتابه الجديد لم يكن أقل خطراً من سابقه فيما حاول أن يعرض له من شبهات وما تزال هذه الشبهات قائمة بقيام الكتاب وإعادة طبعه ونشره .

وقد أجمعت لجنة من الغمراوى والعوامرى ومحمد بن عبد المطلب بأن الكتاب أضاع على العرب والمسلمين(١) الوحدة القومية والعاطفة الدينية(٢) والإيمان بتواتر القرآن وقراءاته وأنه وحى من عند الله (٣) كرامة السلف من أئمة الدين واللغة (٤) كرامة الثقة بسيرة النبى فى كل ما كتب (٥) إعتقاد صدق القرآن ونهيه عن الكذب(٦) أضاع الوحدة الإسلامية(٧) حرمه الصحابة والتابعين(٨) أضاع تنزيه القرآن غن التهكم والازدراء (٩) أضاع تنزيه النبى وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف (١٠) أضاع صدق القرآن والنبى فيما أخبر به عن ملة إبراهيم (١١) أضاع براءة القرآن مما رماه به المستشرقون من أعدائه (١٢) أضاع الأدب العلم مع الله ورسوله .

وقال الدكتور عبد الحميد سعيد ان تغيير العنوان (من الشعر الجاهلى الى الأدب الجاهلى) لم يغير شيئاً من روحه اللادينية فإن السموم التى أراد الدكتور أن ينفثها فى كتابه لا تزال ماثلة فى كثير من فصوله ومباحثه .

وقد صدرت كتب كثيرة فى الرد على طه حسين وكتابه أهمها ما كتبه فريد وجدى (نقد كتاب الشعر الجاهلى) .

ولطفي جمعة (الشهاب الراصد على الشعر الجاهلي) ، ومصطفى صادق الرافعي (تحت راية القرآن) .

غير أن الدكتور محمد أحمد الغمراوى أخرج كتابة فى الرد على كتاب (فى الأدب الجاهلى) فقال أن صاحب الكتاب لم ينتفع بنقد الناقدين على تعدد نقدهم وصوابه ، وقال أن عملية تنقية الكتاب بالحذف لم تقو على تخليصه من كل ما يجافى الدين وأن خلصته مما يظهر من كل ما يؤاخذ عليه القانون ، خلصته من الواضح الصريح الذى يمكن أن يمتد القلم إليه بالحذف ، أما المثبت فى ثناياه من التهكم الخفى فذلك مالا يمكن أن يتناول بالحذف ألا أن يحذف أكثر الكتاب .

فالكتاب وأن خلص من مثل (للتوراة أن تحدثنا أن ابراهيم واسماعيل وللقرآن أن يحدثنا ومن قوله : ولامر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى ألفاظه للغة العرب) فإنه لم تخلص من مثل قوله : (وفى القرآن سوره تسمى سورة الجن انبأت أن الجن استمعوا للنبى ، ومن مثل قوله « فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم » كشرط هذه القطعة التى وصفتها النيابة بسوء الأدب فى حق النبى ، وكان ينبغى أن تحذف » :

وأبرز مافى كتاب الأدب الجاهلى فى رأينا ليس هو مناقشة هذا الشعر والبحث عن حقيقة أمره ولكن اتخاذه « ستاراً » لإذاعة هذه اراء الجريئة الخطيرة فى الاسلام ورسوله وكتابه ومحاولة طرح هذا المنهج الخطير من مناهج البحث الذى يقول :

بفصل الأدب عن الفكر الاسلامى ، ونسيان القومية والدين كشرط من شروط البحث العلمى . وقد رد الكثيرون (كما رده فريد وجدى وغيره على هذه النقطة وكشفوا عن زيفها) ويقول الدكتور الغمراوى فى هذا الصدد :

إنه ذهب إلى أن نسيان القومية والدين شرط أساسى من شروط البحث العلمى فإن كان أراد بذلك أن على الباحث ألا يخفى بعض الحق أو يتراخى فى إستيفاء الدليل العلمى محاباة لقوميته أو إرضاء لعاطفته فقد أصاب ، أما إذا كان أراد أن الإنسان لا يستطيع أن يكون ذا عاطفة قومية أو دينية من غير أن يحابى أو يداجى فى العلم فقد أخطأ ولم يصب، إن الإنسان يستطيع أن يراعى الدقة العلمية التامة فى البحث وهو متذكر دينه كل التذكر ومعتقد صحة كل الاعتقاد ، غير مجوز على قرآنه خطأ أو على توراته . بل أن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص أن أمكن حرصاً على الحق واستمساكا به إذا وصل إليه . أن الباحث المتدين بين محبين فى الحق مرة لدينه ومرة لعلمه ، ويبغض الباطل مرتين كذلك ولا خوف عليه مطلقاً أن يخفى بعض الحق أو يدلس فى البحث محاباه لدينه إذا ليس الحق يخاف على دينه ولكنه الباطل وهو يعلم أن دينه حق . يعلم ذلك علم مستيقن ويعلم أن العلم قائم على قاعدة استحالة التنافى بين أجزاء الحق ، فهو لا يخشى أبداً أن يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تنافى دينه ولذلك يمضى فى أبحاثه آمناً مطمئناً متبعاً أقوم الطرق فى البحث والتفكير .

فالتدين الصحيح والعلم الصحيح ممكن اجتماعهما إذن وكثيراً ما اجتمعا ، كما أن العاطفة العلمية القومية والعاطفة الدينية القوية لا يتعارضان بل يتضافران فى خدمة العلم » .

الباب التاسع

تراجم الأعلام



لورنس

من الشخصيات التى أبرزها الاستعمار وأحاطها بهالة ضخمة من البطولة : شخصية الضابط لورنس الذى وصف بأنه (ملك العرب غير المتوج) والمغامر الذى كشفت المؤلفات والأبحاث عن هويته الاستعمارية وولائه المزدوج لبريطانيا والصهيونية العالمية ، وكيف خدع العرب وعايشهم فى خيامهم (أبان الحرب العالمية الأولى) على هدف واضح هو إسقاط الدولة العثمانية والايقاع بين العرب والترك ودفع العرب إلى الاقتتال من أجل إستيلاء فرنسا وبريطانيا على أراضى فلسطين وسوريا ولبنان ، وقد كشف عن هذه الخدعة التى قام بها فى كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) وفضح نفسه : حين قال : لو قيض للخلفاء أن ينتصروا فان وعود بريطانيا للعرب لن تكون سوى حبر على ورق ، ولو كنت رجلا شريفاً وناصحاً أميناً لصارحتهم بذلك وسرحت جيوشهم وجنبتهم التضحية بأرواحهم فى سبيل أناس لا يحفظون لهم إلا ولا ذمة ، وقوله : أما الشرف فقد فقدته يوم أكدت للعرب بأن بريطانيا ستحافظ على وعودهم ، وقوله : لقد جازفت بخديعة العرب لاعتقادى أن مساعدتهم كانت ضرورية لانتصارنا قليل الثمن فى الشرق ، ولاعتقادى أن كسبنا للعرب مع الحنث بوعودنا أفضل من عدم الانتصار » .

وقد كشف كثير من الباحثين الأجانب والعرب حقيقة لورنس : ذلك الجاسوس البريطانى الذى جاء (عام ١٩١١) قبل الحرب العالمية الأولى على هيئة عضو فى بعثة أثرية تدرس القلاع الصليبية وفى جبيل تلقى دروساً فى اللغة العربية فى مدرسة تبشيرية ، وقد أدعى لورنس أنه جاء ليكتشف الطريق التى سلكها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر بينما كان يعمل فى الواقع على رسم الخرائط للمنطقة لاستعمالها فى حالة الحرب ، فلما أعلنت الثورة العربية فى الحجاز رافق فيصل مدة عامين ونصف فى أثناء ذلك سار الجيش العربى من ميناء جدة على البحر الأحمر حتى دخل دمشق منتصراً فى ٣٠ سبتمبر ١٩١٨ .

ولقد خدع لورنس العرب وعمل على تحطيم قوى الجيش العثمانى ونسف

القطارات المحملة بالذخائر فلما انتهت المعركة وأعلن لورد اللنبى فى القدس (الآن انتهت الحروب الصليبية) وأعلن غوروا دمشق فى قولته :ها نحن قد عدنا ياصلاح الدين ، عمد لورنس إلى أعظم سرقة حين سلب قبر صلاح الدين إكليلا من الذهب كان قد قدمه له الامبراطور غليوم يوم زيارته لدمشق .

ولما نجحت خطط الاستعمار البريطانى ، اتجه بجهوده لانجاح خطط الصهيونية وأقنع فيصل بالاجماع بويزمان زعيم اليهود .

لقد كان من أكبر أهداف لورنس وبريطانيا إستبدال خليفة المسلمين فى نظر مسلمى العالم بالشريف من نسل الرسول حاكم الحرمين وحامى الكعبة .

وكان لورنس يؤمن ان الثورة العربية هى تقطيع أوصال الدولة العثمانية وإيقاع الخلاف بين العرب والترك وفتح الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين .

وقد أهدى لورنس كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) إلى ساره أرنسوهن الجاسوسية اليهودية إلى ألقى الأتراك القبض عليها فى الناصرة أثناء الحرب فى فلسطين فانتحرت حتى لا تبوح بسرها .

هذا هو لورنس الذى كانت الصحف تكتب عنه وتصوره على أنه منقذ العرب وملك العرب غير المتوج والذى جعلوه صانع الثورة العربية وقائدها الفعلى :

وقد كشف كتابات البريطانيين أنفسهم عن لورنس أنه لم يكن جاسوساً لبريطانيا والصهيونية فحسب ، ولكنه كان إلى ذلك إنساناً منحرفاً ، من الوجهة النفسية والاجتماعية والخلقية وأن تاريخ حياته يحمل صورة من الشذوذ الحسى غاية فى الغرابة والعنف .

فيليب حتى

كان (فيليب) حتى فى كل كتاباته ممثلا للطابع اللبنانى الخالص القائم على منطلق الفينيقية المنفصل عن العروبة والأمة العربية وقد أقام دراساته كلها على هذا النحو وأكد إقليمية لبنان وانفصاليته ورسم له تاريخاً قديماً مستقلا عن الأمة العربية مرتبطاً بأوربا والغرب وكانت مؤلفاته عاملا هاما فى تأكيد دعوى الكيان الخاص والانفصال بين لبنان والعروبة وقد أضفى هذا الاتجاه وهذه العقيدة على مختلف آرائه التى ساقها فى كتابه (العرب)وغيره طابعاً خاصاً ، بعيداً عن المنطلق العلمى والتفسير التاريخى المنصف الصريح الذى يرد الأمور إلى مصادرها فهو يتنكر تنكراً مطلقاً لأثر الاسلام فى الأمة العربية ويضيف كل تاريخ الاسلام ونهضته وحضارته السامقة الممتدة على الزمن إلى العرب وحدهم ويجرى الكلام عنها تحت عنوان العرب فى تجاهل واضح ، وانحراف عن المنهج العلمى القائم على تأكيد أثر المسلمين من أتراك وفرس وهنود وبربر وغيرهم . وبذلك فهو يمثل طابع المستشرقين ومنهجهم مكتوباً باللغة العربية (وأن لم يكتب هو مؤلفاته أيضاً باللغة العربية) بل كتبها بالانجليزية ثم ترجمت وأحيطت بقدر كبير من التركيز والاهتمام رغبة فى ترويج إرادته ونظرياته التغريبية الإقليمية البعيدة عن الانصاف .

وقد راجع هذه الآراء الخاطئة كثير من الباحثين المنصفين وكشفوا عن وجه الزيف والخطأ فيها وفى مقدمه من شجبوا آرائه الدكتور عبد العزيز الدورى الذى كشف عن خطأ فيليب حتى المتعمد فى القول بأن علم التاريخ عند العرب منقول من المفاهيم الأجنبية والفارسية القديمة وقد أشار إلى هذا حين قال : تبين لى فى نشأة علم التاريخ عند العرب ، إن هذا العلم عربى النشأة والأصول وان خطوطه الأساسية تحددت قبل الترجمة من الفارسية وخطأ قوله بأن المثال الذى احتذاه المؤلفون فارسياً عن الأصل على طريقه (خدا ينامه) مردود وقال نحن نعرف أن كتابه التاريخ الإسلامى إنما جرت على أساس السير وعلى أساس

الأسر الحاكمة قبل ترجمة الخداينامه وقال : لقد بدأ علم التاريخ عند العرب من أصول تتصل بدراسة الحديث (المغازى) من جهة وبمتابعة الاهتمام الموروث من الجاهليه بالأيام كما ظهر لدى الأخباريين .

وقد أشار كثير من الباحثين إلى مدى تعصب فيليب حتى ، وبعده عن المنهج العلمى وأنه وقع تحت تأثير النظريات التى فرضها النفوذ الاستعمارى على لبنان بعد الحرب العالمية الأولى والتى حاولت أن تخلق للبنان شخصية تاريخية منفصلة عن تاريخ العرب والاسلام ، وبدأت إقليميته فى أنه مزق تاريخ العرب على حده ما أسماه تاريخ لبنان ، تاريخ سوريا ، تاريخ فلسطين .

ساطع الحصرى

أحرز الأستاذ ساطع الحصرى شهرة بعيدة المدى فى مجال دراسة القومية وألف فيها عدداً من الكتب حتى أصبح مرجعاً أساسياً لنظرية القوميات القائمة على أساس اللغة والتاريخ . وقد استهدى الحصرى فى أبحاثه بالنظرية الألمانية وبمناخ البلقان فى حركته القومية التى رفع فيها شعار اللغة فى مواجهة الدولة العثمانية للتحرر منها وكان أكبر أساتذته ماكس مولر ونوردو وهما فيلسوفان يهوديان قصدا من وراء نظرية اللغة إلى إحياء القومية اليهودية وقد اعتبر ساطع الحصرى: اللغة أساس القومية وعارض نظرية الأرض التى دعا إليها (أنطون سعادة) وقد جرى الجدل بينه وبين عدد من النظريات الأوربية فى القومية دون أن يواجه الواقع العربى أو يفهم الفكر العربى وجذوره المستمدة من الفكر الاسلامى أساساً ، هذه الجذور التى يجعل من العسير فصل اللغة عن الفكر واعتبارها مقوم منفصل ، أو الاعتماد على نظرية أن بقاء اللغة أو ضياع اللغة ، هو بقاء الأمة وضياعها ، ذلك أن الانطلاق من مفهوم الفكر الاسلامى نفسه يجعل مثل هذه الآراء على درجة كبيرة من السذاجة والبساطة ، والواقع أن ساطع الحصرى كان غربى الفكر أساساً بل وغربى الذوق والنطق أيضاً ، وأن تركيبه الثقافى والاجتماعى يحول بينه وبين تبنى نظرية عربية أصلية مستمدة من واقع الأمة العربية وكيانها وذاتيتها وقيمها التى لا تنفصل فيها اللغة والتاريخ عن الفكر نفسه وفى ذلك مغالطة أو جهل ، ذلك أن اللغة العربية ليست لغة أمة ولكنها لغة أمة وفكر معاً وأن تاريخ العرب لا ينفصل تاريخ الاسلام .

ذلك أن ساطع الحصرى نشأ فى بيئة الإتحاديين الأتراك الذين كانوا صنائع للفكر الغربى ونشأوا فى أحضان المنظمات الماسونية وحملوا لواء الإيمان بالفصل بين الدين والمجتمع وفهموا الإسلام فهماً غربياً على أنه دين لاهوتى ، وعلى هذا الفهم الخاطىء القاصر قامت نظرية ساطع الحصرى فهى نظرية مضطربة من أساسها ذلك لأن كلمة واحدة لو أنها صححت لكان موقف ساطع الحصرى من نظريته مختلف كل الاختلاف ، هذه الكلمة هى أن الدين الذى أقام عليه نظريته ليس هو

دين العرب والمسلمين ولكنه دين أوربا ، ولذلك فان كل التحديات التى تعالجها نظرية القومية الوافدة لاتوجد أساساً فى الفكر الإسلامى ، هذا فضلا عن اختلاف مفهوم (العروبة) عن مفهوم القومية واختلاف مفهوم الإسلام عن مفهوم الدين بصفة عامة .

ويخطىء ساطع الحصرى فى أنه قصر تقصيراً كبيراً فى فهم الفكر الاسلامى وأبعاده وارتباط العروبة به ، وعاش فى مؤلفاته خادما لنظرية القوميات الأوربية الوافدة ، وهى لاتلتقى على أى وجه مع التحديات التى واجهتها الأمة العربية بعد سقوط الدولة العثمانية من وجهة نظر الثقافة العربية والفكر الإسلامى الذى يتحرك دائماً فى ثلاث دوائر : الوطنية المرتبطة بالأرض ، والعروبة المرتبطة بالأمة ، ووحدة الفكر الشاملة . ولقد وقف ساطع الحصرى موقف الخصومة والحقد والتعصب مع الاسلام كلما عرض له ، وكانت محاولاته للفصل بين اللغة العربية والفكر الاسلامى محاولة ساذجة ثم كشف نفسه وأسقط مكانته كاملة حين اعترف بالقومية اليهودية القائمة على الدين ، بينما عارض عنصر الدين فى فهم القومية العربية ، وإن كانت كلمة (دين) لا تؤدى معنى الإسلام حين يكون البحث حول العروبة .

وقد ثبت أن ساطع الحصري قد خدم بدعوته وفكره مفاهيم الماسونية والنظرية القومية الوافدة التى كان النفوذ الغربى حريصاً على تلقينها للعالم العربى ، وهى ليست إلا صورة من مفهوم الاقليمية اللبنانية . والمعروف أن ساطع الحصرى كان من أعمدة وزارة المعارف فى تركيا منذ أوائل حكم الاتحاديين إلى أن انتهت الحرب الأولى ، وأنه كان من أخطر الموجهين للبرامج التربوية والتعليمية فى العراق حيث عمد إلى فصلها عن الاسلام فصلا تاما وكان دوره أشبه بدور طه حسين فى التعليم المصرى .

وجملة القول أن ساطع الحصري نادى بمفهوم القومية الأوربية الوافد

وحاول تطبيقه على (العروبة) ذات الجذور العربية الاسلامية دون أن يدرك أعماق الأثر الذى تركه الفكر الاسلامى والقرآن فى اللغة العربية وفى الأمة العربية ومدى ترابط ذلك إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة بالأمة الوسطى الحنيفية السمحاء التى جاء بها ابراهيم فربطت هذا العالم الوسط :(عالم العرب والاسلام) بروابط تاريخه وثقافة عميقة دعمتها الأديان السماوية التى نزلت فى أرض الرافدين وختمتها رسالة الاسلام العالمية التى نزلت فى الجزيرة العربية .

وقد استوحى ساطع الحصرى نظرية (الفصل) وهى نظرية معروفة فى الفكر الغربى ، ولكنها تسقط سقوطاً شديداً عند ما تطبق على الفكر العربى الاسلامى الذى يقوم على التكامل وترابط القيم فقد ركز على اللغة كأساس لنظريته وعزلها عن مفهوم الفكر العربى الواسع كما ركز طه حسين على الأدب وعزله عن الفكر الاسلامى أو (عن الدين والقومية) على حد تعبيره .

ونظرة طه حسين كنظرة ساطع الحصرى نظرة ضيقة أوربية لا تتفق مع المزاج النفسى والاجتماعى الاسلامى القائم على تكامل القيم وشمولها . كما دعا إلى إعتبار التاريخ مقوما وبذلك عزله عن اللغة والفكر والثقافة جميعاً .

كما اختلف مع دعاة الأرض والوطنية (أنطون سعادة) وهى نظرية أخرى وافدة لا يعترف بها الفكر العربى الاسلامى الذى يؤمن بالحلقات الثلاث المترابطة المتداخلة : (الأرض ، والأمة ، والفكر)وقد اعترف ساطع الحصرى بإسرائيل قومية تقوم على الدين ، ورفض إعتبار الاسلام مقوما بوصفه دينا ، ومفهومه للاسلام هو مفهوم غربى خالص للدين الغربى استمده من مفهوم الاتحاديين فى تركيا ، وقد فهم الاسلام على أنه دين وروح كما فهم الأوربيون الدين وكما وصف المستشرقون والمبشرون الاسلام ولم يفرق بين الدين بعامة والاسلام ، ولم ينظر إلى فوارق العصر والبيئة والجذور الثقافية التى تختلف فيها القومية فى أوربا عن مفهوم العروبة فى عالم الاسلام والعرب .

وعند ما قاوم التجزئة والاقليمية لم يقاومها بأسلوب الاصالة العربية بل قاومها عن طريق الأسلوب الوافد ، وقد هاجم القوميين السوريين لأنهم أخذوا نظرية أوربية هى نظرية الأرض ولم يأخذوا نظرية أوربية أخرى هي نظرية اللغة التي دعا هو اليها وهاجم البعث فى سنواته الأخيرة ولكن دون أن يصل إلى إصالة مفهوم العروبة وترابطها مع الفكر الاسلامى ، ذلك الترابط الجذرى الذي لاسبيل للانفكاك عنه .

المتنبى

حرص دعاة نظرية النقد الأدبى الغربى الوافدة على وضع أسس وقواعد للأدب العربى تختلف إختلافا جوهرياً مع طبيعته وذاتيته ، وقد استهدفت هذه الدعوة إبراز شخصيات لا تمثل الأدب العربى فى أصالته ، فضلا عن إعلائها : لأبى نواس وبشار والضحاك وغيرهم، والعمل فى نفس الوقت على تدمير الشخصيات ذات الأصالة والقوة أمثال المتنبى والغزالى وابن خلدون .

وقد ساير الدكتور طه حسين المستشرقين فى هذا الاتجاه ونماه وفتح له آفاق الصحافة والمحاضرات العامة ، وكان المتنبى أحد ضحاياه فقد كتب عنه كتاباً حاول إتهامه بأنه لقيط ، فقد مضى يتشكك فى نسب المتنبى حتى وقع فى هذا الشك الجرىء فى محاولة للتقليل من مكانه المتنبى فى الأدب العربى وكان قد سبقه فى هذا أستاذه (بلاشير) الذى حارب المتنبى فى كتاب ضخم لا بد أنه كان الضوء الكاشف أمام محاولة طه حسين .

وقد جرت كل محاولات ما سنيون وفون كريمر وبلاشير ودى ساسى من منطلق الحقد على هذا الشاعر الفحل الذى يعتبره النقاد العرب بحق (ابين الناس منطلقاً عن الشخصية العربية وأشدهم اعتزازاً بها وتقديراً لها وسعياً لانهاضها) على حد تعبير الأستاذ محمود محمد شاكر فى كتابه عن المتنبى الذى سبق كتاب الدكتور طه حسين ، وقد كان شاكر هو أبرز الذين راجعوا طه حسين فى رأيه فى المتنبى فى مجموعه من المقالات رخص فيها تلك الشبهات التى أثارها الدكتور وكشف الغرض المبيت من ورائها .

ولا شك أن حملات المستشرقين على المتنبى تدخل فى باب إعـــلائهم،

وتقديرهم للمنحرفين فى تاريخ الأدب العربى ممن أولوهم إهتماما كبيراً أمثال الحلاج وشعراء الأغانى ، وهو أن لم يكن تعصبا وحملة تغريبية فإنما هو جهل بالذوق العربى والخصومة لشاعر خلدان العربية ألف سنة ولم يصل إلى مكانته واصل (١) .

وعلى كل حال فان طه حسين كان ظالماً ومسرفاً فى الشك وبعيداً عن الأسلوب العلمى فى هذه الشبهة التى أثارها والتى ليس لها سند تاريخى أو منطلق علمى .

(١) على أدهم .

الحلاج

أولى المستشرقون ومن تابعهم من دعاة التغريب إهتماما كبيراً بشخصية الحلاج ، وحاولوا تصويره من خلال فكرة خاطئة أريد لصقها بالاسلام وهى مصادرة الفكر والقتل باسم حرية الفكر ، وهذا مالم يحدث فى تاريخ الاسلام كله وأن حدث فى تاريخ أوربا الغربية المسيحية ، فلقد كان الاسلام حفياً بحرية الكلمة إلى أبعد حد ، مالم تخرج من نطاق الكلمة إلى نطاق آخر : كالتآمر السياسى أو مخابرة دولة أجنبية :

والحلاج لم تقتله الكلمة مهما كانت خارجة عن مفهوم الاسلام ، ومهما كانت مغرقة فى الشك والوثنية وإنما قتل حين ثبتت عليه مراسلات إلى القرامطة فقد ثبت أنه كان وكيلا لهم ، وكان القرامطة قد أزاحوا النظام الاسلامى وسفكوا الدماء وخربوا البلاد وأنشأوا لهم عاصمة فى هجر حملوا اليها الحجر الاسود فظل بها نحو ثلاثين عاما .

ولقد قال أبى يزيد البسطامى وابن عربى مقاله الحلاج دون أن يصيبهم شر ، والذى عليه القول الراجح أن الحلاج كان يعمل لحساب القرامطة ، وأن دعواه فى الحلول والاشراق ووحدة الوجود إنما كانت تعمل على إفساد الأساس الفكرى للدولة الاسلامية وهدم تعاليم الاسلام كمقدمة لتحطيم سلطته السياسية وهو نفس المناهج الذى سلكته الباطنية ، فقد رأى خصوم الاسلام أزاء عجزهم عن هدم دولته أن يلجأوا إلى تقويض عقيدة التوحيد التى جمعت شمل العرب وتذرعوا إلى ذلك بنظريات التصوف الهندى المجوسية الفارسية والفلسفة الوثنية اليونانية ، وكانت مقدمات ذلك السخرية بالشريعة الاسلامية والترخص فى الحدود وإباحة المحرمات ، وقد جرى الحلاج فى ذلك شوطاً طويلا فادعى الألوهية واتهم بمعارضة القرآن وأنه يحى الموتى وأن الجن يخدمونه وأنه يعمل من الخوارق ما يشبه المعجزات وأنه كان يدعو الى نوع آخر من الحج غير الطواف بالبيت

الحرام فى مكة . وله مـــع أصحابه كتابات بالشفرة لا يفهمها الا هو ومن أرسلها اليه .

وقد وصفته كتب التاريخ بأنه رجل مجوسى الأصل اشتغل بالمخاريق والحيل ادعى العلم بالأسرار ثم تناهى الى ادعاء النبوة ثم الربوبية واستغوى غلمان قصر المقتدر بالله العباسى لينفذ بهم الى تحقيق غايته فأدى ذلك الى قتله ، وذكر أمام الحرمين فى كتابه الشامل أنه كان بين الحلاج وبين الجنابى رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة وأن هذا هو السبب الحقيقى لقتل الحلاج .

السلطان عبد الحميد

لا أعتقد أن هناك شخصية فى العصر الحديث هوجمت يمثل ذلك العنف الذى هوجم به السلطان عبد الحميد ، حيث وصف بها ما وصف به الديكتاتوريون والظلمة والمستبدون في التاريخ كله، وقد جرى هذا السيل من الاتهامات وقتا طويلا حتى ساد جميع كتب التاريخ العربي الحديث وجرى على الألسنة وهو ما كشفت الوثائق السياسية الجادة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة عن زيفة وعن الغرض البعيد الذى كان وراء إسقاطه ، ذلك أن السلطان عبد الحميد قد رفض ما عرضته عليه الصهيونية العالمية من فتح الطريق لها إلى فلسطين والسماح بالإقامة فى القدس وقد كان رفضه صريحاً واضحا وحاسماً ، وكان ذلك مقدمة للحملة التى شنهـا الاستعمار والصهيونية عليه واتهامه تمهيداً لاسقاطه ، وقد جرت هـذه المحاولة بالسيطرة على جمعية الإتحاد والترقى ودفعها إلى الإنقلاب داخل المحافل الماسونية ولحسابها وكان السلطان عبد الحميد قد تزعم الدعوة إلى الجامعة الاسلامية فى مواجهة خطر تزايد النفوذ الاستعماري واقامة قوة حاجزة لا تكتفى بالعرب والترك وهما قوام الدولة العثمانية بل تضم المسلمين جميعا وقد نجحت الدعوة نجاحا كبيراً وأخذت تحقق نتائج هامة ، كان من أبرزها الالتقاء بين السنة والشيعة بعد الخلاف الطويل الذى فرضه النفوذ الاستعمارى ، وقد شهد جمال الدين الأفغانى للسلطان عبد الحميد بالدهاء السياسى الخطير فى مواجهة أوربا ، وكشفت الوقائع مدى رصانة عبد الحميد وحده جمال الدين ، حتى فى المسائل الصغيرة التى لا تحتمل من جمال الدين رجوعه عن بيعته للسلطان .

وقد جرت محاولات كثيرة للتركيز على جمال الدين الأفغـانى فى السنوات الخمسين الأخيرة وإبرازه فى صورة البطل والقديس ، ولم يكن هذا فى الواقع إلا محاولة لحجب السلطان عبد الحميد وانتقاصه واحلال جمال الدين كبديل لعبد الحميد وذلك فى مجال إخفاء الطور الخطير الذى قام به فى مواجهة الصهيونية العالمية والذى كان يعرف هو سلفا إنه سيكلفه عمره وعرشه وقد حدثت بالفعل محاولتين إحداهما لاغتياله وأخرى لاقصائه عن الملك وقد فشلت الاولى ونجحت الاخيرة .

ولقد حرصت الدعاوة الصهيونية والاستعمارية وألحت الحاحاشديداً تجاوز كل حد فى سبيل تصوير السلطان عبد الحميد فى صورة الحاكم الطاغية المستبد من ناحية والرجل الخائف المذعور من ناحية أخرى، وقد كشفت الوثائق التى برزت فى السنوات الأخيرة كذب الادعائين ولم يستطع الحاملون عليه إثبات إسم أحد من أسماء من وصفوا بأنهم أغرقوا فى البسفور داخل غرارات على حد قول حافظ ابراهيم فى قصيدته ،والحق أن السلطان عبد الحميد استطاع والدولة العثمانية تمر بأقسى مراحل الضعف أن يواجه العالم الغربى الاستعمارى بالحيلة والخدعة والمرونة السياسية وأنه أوقع الدول بعضها فى البعض الآخر ، وتركهم يشتغلون بصراعهم عنه فى وقت كانت محاولته لاخراج فكرة الجامعة الاسلامية الى الوجود قد خطت خطوات واسعة وقاربت أن تحقق نتائجها ، التى عملت على جمع المسلمين تحت لواء الخلافة من خارج الدولة العثمانية باسم الخطر الاستعمارى والصهيونى الذى يتهددهم وكانت صيحته « يامسلمى العالم اتحدوا » .

وكان هذا مثار الخصومة الحاقدة على السلطان من الاستعمار بالاضافة الى خصوم الصهيونية وكلاهما كان يطمع فى تمزيق الدولة العثمانية وتقسيم التركة(١) .

---

(١) راجع دراسة مطولة فى هذا الصدد فى كتابنا (الإسلام والعروبة)

السهروردى

حاولت حركة التغريب ومعها التبشير والاستشراق إعلاء شأن مجموعة من النماذج الغريبة وإعطائها صورة الاستشهاد والبطولة رغبة فى الترويج لآرائها وإثارة الرأى حول آراء وافدة على الفكر الاسلامى لم تكن فيه أصلا ولا تمثل جوهرة ولا حقيقته .

ومن هؤلاء شهاب الدين السهروردى (المقتول) الفارسى الذى حمل لواء الفلسفة الاسشراقية المستمدة من الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية والتى تتعارض مع مفهوم التوحيد فى الاسلام ، ولقد اهتم بروكلمن ، وريتز ، وفادى برج من المستشرقين بآرائه ووصفوه بالعبقرية وترجم أحدهم (بوج) كتاب (هياكل النور) كما عرض له ماسنيون أثناء بحوثه عن الحلاج واهتم به كثيراً باول كراوس وهنرى كوربان .

والحقيقة أن السهروردى نتاج غريب ، عن فكر الاسلام وطابعه ومزاجه الذى شكل أعلام المسلمين فى مجال الفكر من أمثال الغزالى وابن تيمية وابن حزم وغيرهم ، وهو أقرب إلى صور الباطنية والمتحللين والمعطلين ولن نصفه بأكثر مما وصفه به من يرونه عبقرياً وشهيراً : (لم يكن مظهره مما يلقى الهيبة والاحترام فى نفوس مستقبليه ، أهمل نفسه أو كاد وبلغ به الاهمال حتى كان على حد قول بعض من أرخ له (١) « كان زيه زريا منكراً زرى الحلقة ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، ولا يغسل له ثوبا ولا جسما ولا يداً ولا يقص ظفر ولا شعر » وزادوا على ذلك فقالوا « إن القمل كان يتناثر على وجهه ويسعى بين ثيابه وأن كل من يراه يهرب منه) هذا ما وصفه به سامى الكيالى فى مجال التقدير

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١١٥ .

والاعجاب ، فكيف بمن يراه غير ذلك ، ولا شك أن هذه الصورة التى يبدو بها السهروردى ، ليست إسلامية أساساً ولا يقرها الاسلام الذى صنع نماذجه على الأخلاق والطهارة والعزة وكان رسوله يعرف قبل قدومه بريح المسك .

وقد وصف السهرزورى تلميذ السهروردى أستاذه فى كتابه (نزهة الأرواح) بأنه مهمل الثياب وقد أشارت كتب كثيرة الى قذراته منها كتاب (آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى) وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج ٤ أول وجماع القول عنه أنه قرأ فلسفة الإغريق والهند وفارس والفلسفة الاسلامية ، وأنه أراد أن يبدع من هذا المزيج فلسفة جديدة رسم خيوطها فى فلسفته الاشراقية .

وما ذهب اليه السهرورى فى تفسير الاشراق مخالف كل المخالفة لحقائق الاسلام ولمفهومه فى التوحيد ، الذى يفصل بين الله والعالم والذى لا يقر الاتحاد على النحو الذى قالت به فلسفات الوثنية .

ولم يكن السهدوردى متصوفا بمفهوم التصوف الاسلامى ، ولكنه كان فيلسوفا غالياً ذهب الى أبعد المدى فى التبعية لمدرسه أفلوطين المسيحية الوثنية التى اعتبرت الاشراق أساس المعرفة الوحيد ، وهذا الانحراف عن مفاهيم الاسلام هو الذى أثار عليه خلاف الفقهاء والصوفية والعقائديين المسلمين جميعاً ، فقد خرج بآرائه من مفهوم الاسلام الصحيح وانحرف به ، وجمع بين الشك والايمان والكفر والشعوذة والتصوف والهرطقة حتى جر عليه كل ذلك الاتهام بالزيغ وانحلال العقيدة هذا فضلا عن اشتغاله بالفلسفة والكيمياء والسحر وأبواب النيرنجيات ، بالاضافة الى التأويل وكلها صفات دعاة الباطنية .

ومع ذلك فان هذا الانحراف عن مفهوم الاسلام لم يكن ليقضى على السهروردى بالقتل ، لولا ثبوت الاتهام عليه بالاسفار مع خصوم المسلمين أبان الحروب الصليبية ، وكانت هذه الخيانة هى الذى دفعت الملك الظاهر بن صلاح الدين الى المطالبة بأهدار دمه .

ومن هنا تكذب كل التخرصات التى ساقها التغريبيون بأن السهروردى ذهب ضحية حرية الفكر، فالسهروردى فى الحق لم يذهب ضحية معتقدة ولا فكره ولم يكن ضحية أذى حاكم أو نفوذ سلطان ولم يذهب ضحية التخويف بالله والاساءة الى نبوة الرسول ، فذلك كله فى الاسلام موكول الى امر الله ولكن السهروردى ذهب كما ذهب الحلاج ضحية خيانته ضد الدولة الاسلامية والاتصال بخصومها

وكانت الباطنية حركة سياسية خطيرة تصارع الاسلام وتحاول ان تنفذ الى اعماقه بوساطة امثال هؤلاء الغلاة .

شبلى شميل

حمل شبلى شميل لواء الدعوة إلى الفلسفة المادية وكان واحدا من دعاة التبشير والغزو الثقافى الذين خرجتهم معاهد الارساليات فى لبنان وقدموا إلى مصر من أجل العمل وكان منطلقه هو مذهب داروين وقد اختار له تفسير بخنر وهو من غلاة الماديين ولم يقف شبلى شميل عند حدود المذهب العلمى بل ذهب يطبقه على المجتمعات من خلال نظرية التطور المادية التى تريد أن تفرض تفسيرا للفكر والمجتمع والحياة منطلقا من معارضة تامة للأديان والقيم والمثل التى صاغت النفس العربية الاسلامية وقد كان إلى هذا الاتجاه نحو هدم كل المقدرات مواليا ولاءا استعماريا للنفوذ البريطانى فى مصر والأجنبى فى البلاد العربية ولم يكن داعية إلى الحرية والايمان بمقومات العرب أو ذاتيتهم ، وكان طامعا فى أن يضع هذه الأمة فى آتون العالمية والاممية لتنصهر فيه مسخا غريبا لا هو عربى ولا غربى .

وقد كشف صديقه وزميله الدكتور صروف عن أخطاء شبلى شميل فأشار إلى أنه تعلم الطب ولم يدرس العلوم الطبيعية ولذلك فان رأيه فى هذا المجال غير علمى بالقدر الكافى ، وأن صروف نفسه الذى درس العلوم الطبيعية لا يرى رأى شميل فى مذهب داروين ولا فى نظرية النشوء والارتقاء التى اعتمد فيها شميل على الغلاة : هيكل وبخنر يقول : تناول مذهب النشوء وترجم كتابا مفصلا فيه هو شرح بخنر على مذهب داروين ثم توسع فى هذا الموضوع وطبقه على كل ما فى الكون حاسبا إياه وسيلة لاصلاح حال المجتمع الانسانى .

وقال : ولم يكتف الدكتور شميل بمتابعة العلماء الذين لم يروا فى الكون غير المادة والقوة ، بل تابع العلماء الذين قالوا أنه ليس فيه غير القوة وأن المادة حالة من حالات القوة .

ولكن العلماء الطبيعيين الذين أثبتوا بالتجارب أن المادة قوة ، أكثرهم من المعتقدين بوجود الأرواح مستقلة عن المادة وجلهم من المعتقدين بصحة مذهب داروين ولكنهم لا ينفون وجود الخالق (أى كما ينفيه شبلى شميل) .

وأشار صروف إلى قول مطران كارليل . إذا عد صانع الساعة حكيما ماهرا فالذى يصنع ساعة تصنع ساعة أخرى أحكم وأمهر ، أى إذا كان الخالق أودع فى المادة أو فى القوة قوة تجعلها تولد العناصر والمركبات الكيماوية والنبات والحيوان حتى الانسان فذلك أدل على عظمته وحكمته وقدرته مما لو فرضنا أنه يعنى يوما بيوم يخلق كل نبات وكل حيوان وكل إنسان .

وقال أن بخنر خالف دارون ، وأن داروين صرح بأن الخالق نفخ نسمة الحياة فى الحى الأول الذى تولدت منه الأحياء وبخنر نفى ذلك (وتابعه شميل) .

وأشار صروف إلى اندفاع شميل العاطفى وراء كل رأى يراه دون حذر أو تقدير للأمور ، وان ذلك كان من أخطر مغامز شخصيته ، ومن الحق أن يقال أن شميل كان يعمل من خلال هدف تغريبى واضح ، وأن صروف كان يريد أن يخفف الصدمة ، ويعمل عن طريق إدخال نفس أفكار التغريب عن طريق المراحل ودون إثارة الضجيج .

ولقد أخذ المؤرخون على شبلى شميل خيانته الوطنية حين كانوا يدعوا إلى العالمية بينما كانت الحركة الوطنية هى السلاح الوحيد إزاء الاستعمار وأنه كان تحت دعوى العالمية يدافع عن مد امتياز قناة السويس ويوالى الانجليز وقد كشف أخيرا عن أن الدعوة إلى العالمية كانت من أكبر أهداف الصهيونية .

(١) راجع دراستنا عن شبلى شميل فى كتابنا (أعلام وأصحاب اقلام) .

ابن رشد

أثيرت شبهات كثيرة حول موقف خليفة قرطبه مع ابن رشد وسجنه إياه وتحريق كتبه وحاول بعض دعاة التغريب وخصوم الإسلام أن يصوروا ما وقع له من اضطهاد ، على أنه مصادرة للفكر فى الإسلام ، وليس هذا صحيح فى الواقع ولم يعرف فى تاريخ الإسلام أى نوع من اضطهاد المفكرين مهما كانوا يحملوا من آراء، أما ابن رشد فقد كانت خصومته مع الأمير خصومة تجمعت لها عدة عوامل أهمها :
(أولا) خصومة الفقهاء له مستغلين بعض تزيدات ابن رشد .

ومنها مخاطبته للخليفة ،حيث كان يقول له (يا أخى) وكان المنصور لا يضيق به فى أول الأمر فلما تردد كلام الفقهاء عنده بدأ يضيق به ، وأضيف إلى ذلك ما أخطأ به ابن رشد حين قال فى كتابه عن الحيوان : ورأيت الزرافة عند ملك البربر مشيراً بذلك إلى المنصور ،وقد غضب لذلك الأمير الذى كان يسمى نفسه خليفة للمسلمين أن يوصف بأنه ملك ، وأمر بنفى ابن رشد فأقصاه فى قرية بعيدة أقام بها ثلاثة أعوام ، غير أن الفيلسوف دافع عن نفسه ونفى تهمة العيب فى حق المنصور وقال أنة حين أراد أن يكتب (ملك البرين) سبق القلم بها فجاءت ملك البربر أو أن ما وقع هو تحريف من الناسخ .

ثم كان أن اقتنع الخليفة وعفا عنه وعاد مرة أخرى إلى قرطبة .

ابن الراوندى

أولى المستشرقون وكتاب التغريب اهتماماً كبيراً بعدد من الزنادقة والمنحرفين من الخارجين عن الإسلام ونشر مؤلفاتهم ودراسة حياتهم ومن هؤلاء ابن الراوندى الذى قال الحافظ بن الجوزى أنه واحد من ثلاثة من زنادقة الاسلام . وابن الراوندى من أصل يهودى وكان أبوه يدين باليهودية ثم أسلم وروى أن بعض اليهود كان يقول لبعض المسلمين بشأن ابن الراوندى : ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا ، وكان أبوه قد انشق لأمر ما عن أهل طائفته فأخذ يثير عليهم عجاج الجدل والمشاغبة ، كما كان ابنه يفعل فيما بعد ، فلما لم يتم له ما اراد انقلب مسلماً نكاية فى بنى دينه اليهود .

قال البلخى عن ابن الراوندى : أنه كان فى أول أمره حسن السـيرة حميد المذهب ، ثم انسلخ عن الدين وأظهر الالحاد والزندقة وطردته المعتزلة فوضع الكتب الكثيرة فى مخالفة الاسلام .

وقد دحض آراؤه ورد عليه أبو الحسن الخياط المعتزلى فى كتابه الانتصار وقد بلغ ابن الراوندى قمة الخصومة للاسلام فى معارضاته للقرآن الكريم فقد عارض نظم القرآن ينطم من وضعه ووضع التأليف للرافضة عند أهل السنة ، والاعتزال ، وللسنة ضد الآخرين ، كما وضع لليهود كتابا يرد به على المسلمين ، ثم رام نقضه بنفسه ، ووضع كتاب (الامامة) للرافضة لقاء ثلاثين دينارا وكتب غيره للطعن على التوحيد وأهله .

يعقوب أرتين

من الأسماء التى لمعت لمعانا خاطفاً فى ظل الاستعمار البريطانى ، وفى دعم مخططاته فى التعليم ، وكان اليد القادرة من وراء دنلوب القس الإيرلندى مستشار الوزارة ومن وراء . سعد زغلول ناظر المعارف وعين اللورد كرومر ، يعقوب ارتين الأرمنى الذى عمل وكيلا لوزارة المعارف منذ عام ١٨٨٤ حتى توفى فى عام ١٩١٩ وكان تركيبه الاجتماعى والتاريخى عاملا أساسياً فى تأهيله للعمل الذى قام به بالإضافة إلى تعليمه ، فهو من أسرة أرمينية تعلم فى باريس ومكث بها نحو سبع سنين وعين مربياً لأمراء البيت المالك وأخصهم فؤاد الذى أصبح سلطانا على مصر ١٩١٧ فملكا وقد وصفه المقتطف بعد وفاته بأنه (تولى عدة مناصب خطيرة مملوءة بالمعضلات لا يقوى على تذليل صعابها إلا من أتاه الله مقدرة فائقة وذكاء أعظيماً وفى جميعها فاز بالقدح المعلى) وله كتاب : القول التام فى التعليم العام ، وكان له دوره فى تغيير مناهج التعليم العربية الإسلامية التى كانت قائمة قبل الاحتلال وإبدالها بمناهج زائفة حذفت منها اللغة العربية والقرآن وتاريخ الإسلام .

وقد حرص يعقوب أرتين الأرمنى الأصل أن ينفى عن المصريين كل عبقرية أو ذكاء فقال فى رسالة عن الأقاصيص فى وادى النيل له أنكر فيها حتى الذكاء المصرى على ابتكار الأقاصيص الشائعة التى ترويها العجائز للصغار فمن رأى أرتين أن هذه الأقاصيص إما من مصدر تركى فارسى بكثير منها ذكر الجن والعفاريت والنساء وأما يونانية أوربية يكثر فيها الأسلوب البيزنطى والخرافات الموضوعة على السنة الحيوانات وأما بربرية يغلب عليها الباعث الدينى والترنم بمحاسن بغداد ، وأما زنجية تدور على السحر والغيلان والرقى والتعاويذ وقال العقاد معلقا : أن هذا الراى يدل على جهل بملكة معروفة عند المصريين .

عمر الخيام

إستطارت شهرة عمر الخيام فجأة ، بعد أن كان واحداً من العلماء المسلمين في مجال الكشوف الجغرافية ورصد الكواكب فأصبح شاعراً خطيراً في مجال الدعوة إلى الانطلاق ، وذلك عندما نشر شاعر انجليزى مجموعة من الشعر عام ١٥٨٩ نسبها إلى الخيام هو فيتزجرالد ، وقد نقلت هذه القصائد الانجليزية مرة أخرى إلى اللغة العربية وأذيعت وأوليت إهتماما بالغاً فبلغ عدد من ترجموها إلى العربية أكثر من سبعة من الأدباء منهم البستانى والزهاوى ورامى والصافى النجفى والسباعى وأبو شادي ومحمد الهاشمى .

وقد تبع ذلك إهتمام بالغ وتركيزاً أشد خطورة على اسم الخيام دفعا لهذا التيار الجديد وتعميقاً له فصدرت طوابع البريد فى مختلف أنحاء أوربا باسمه وصورته ، وأنشأت الأندية الليلية الصاخبة تحت لوائه، وكتبوا اسمه على أطراف البطاقات (كارت بوستال) تعظيما وتكريما لقصائد التحلل والمجون المنسوبة اليه .

وقد كان لهذا التيار أثره فى التعريف بالخيام فى نظر الشرقيين (عرباً ومسلمين) شاعراً ماجنا عربيداً يدعوا إلى اللذة، وقد استمر ذلك وقتا طويلا حتى كشفت الأبحاث العلمية والدراسات الخالصة البعيدة عن كل زيف عن أن هذه الموجه كاذبة فعلا وأن الخيام لم يكن هو قائل كل هذا الشعر الذى نسب إليه ولم يكن فى حياته إنسانا خليعا ولا داعية إلى اباحة .

والقول الصحيح أن من وراء رباعيات الخيام هدف من أهداف التخريب والاستعمار ـ يقول السيد حبشر الطرازى الحسنى مؤلف كتاب كشف اللثام عن رباعيات الخيام (لن الاستعمار وجد فى هذا العمل ولاسيا فى ايران والهند أهمية خاصة ، وكان فيتزجرالد الشاعر الانجليزى قد لبى الاشارة من قبل بعض

الانجليز فقدم للمستعمر خدمة تحت ستار الأدب الغربي بترجمة تلك الرباعيات بصور خلابة وضعها فى كلمات إنجليزية جذابة بحيث تخلب قلوب الشاب الناشىء فى الشرق ولا سيما الإيرانيين والهنديين منهم من حيث طلاوتها ومماشاتها مع الشهوات والنزعات النفسية ولما كانت هذه الرباعيات (منسوبة) للحكيم الكبير صاحب المكانة الرفيعة فقد خدع بهـا كتاب العرب وترجموها إلى لغتهم وأمطروها بالثناء . والحقيقة أن (فيتز) قد خدع الشرق والشرقيين بهذه الخدعة السياسية الاستعمارية حيث تمكن من نشر هذه السموم بين أبناء الشرق والهند وإيران ودعاهم إلى تناول الخمور وملازمة السرور والغناء ومجانبة السعي والعمل ضد العاملين والركون إلى الجمود والسلوك مسلك الكسالى وحثهم على الاباحية والزندقة والحرية المطلقة ، الأمر الذى دفع الشرق فيما دفعه إلى التأخر وجعله مستعداً لقبول تدخل المستعمر فى مختلف شئونه)

وقد بلغ الغربيون فى تعريف صاحب الرباعيات (عمر الخيام) على ألسنة خطبائهم وأقلام كتابهم ومقدمات تراجمهم إلى حد أنهم شبهوه بأبيقور اليونانى وأبى العلاء المعرى ترويجاً لسوق الرباعيات وتضليلا للشرقيين ولا سيما الجيل الناشىء وكان ذلك تنفيذا لخطتهم السياسية ضد المسلمين تأكيداً لأغراضهم العدائية .

ولا شك قام الأدباء العرب بترجمة هـذه الرباعيات لأهداف سياسية وأغراض مذهبية وحرصوا على توسيع نشرها وتعميم تناولها بكل طريق ممكن حتى نشروها فى قطعات كارت بوستال .

والملاحظ أن المركز الثانى لنشر الرباعيات بعد لندن كان الهند ، حيث نشرت فى عواصم دلهى ولاهور وكلكتا وبومبى وقال لى طالب فى بعض المدارس فى بومباى أن هذا الكتاب يدرس فى مدرستنا التانوية ككتاب أدب انجليزى وكان ذلك سنة ١٩٥٠ حينما مررت بالهند عضوا فى الوفد الأفغانى الى المملكة السعودية وقال : أن ترجمة فيتزجرالد الإنجليزية للرباعيات كانت مدرجة فى برامج التدريس بجامعة بعليك أعظم جامعات الهند .

ثم قال السيد مبشر الطرازى : أنه ليس هناك من مصادر أكيدة تؤيد نسبة هذا الشعر إلى عمر الخيام ولا وجود لمصدرها الأصلى وانما أسندت الى عالم عظيم شرقى وحكيم فلكى بارع ومنجم لامع فى نفس الوقت الذى أغمضوا أبصارهم عما ثبت عن الحكيم النيسابورى من مقولاته واثارة التى تدل على ديانته وتمسكه بها بتعاليم الشريعة الإسلامية وحرصه على تطبيقها فى كل شئون الحياة فى العالم الإنسانى، وقال: أن الغربيين لم يكرموا عمر الخيام بإنشاء نادباسمه أو كتابه اسمه على أطراف الطاقات لمكانته فى العلوم الرياضية وعلوم الفلك وإنما من أجل الأهداف السياسية التى أشرنا اليها فى اذاعة قصائد التحلل والمجون المنسوبة اليه وأنهم لم يفعلوا ذلك لابن سينا أو الفردوسى أو الغزالى أو الزمخشرى من أعلام الفكر الاسلامى ، لقد كان تعظيم الغربيين موجها فى الصحيح وفى الواقع الى تلك الرباعيات الخليعة التى مهدت لهم سبيل النيل من الإسلام وتعاليمه ودعوة أهل الشرق الى التحلل الخلق والحرية المطلقة والضعف والهوان ». اه

وقد أشار كثيرون الى خطأ نسبة الرباعيات الى عمر الخيام وفى مقدمتهم أرنست رينان الذى قال أنها (أى الرباعيات) لا تتفق مع مفاهيمه واتجاهه العلمى وأشار العلامة الطرازى الى أنه لم يثبت أصلا وجود نص حقيق كتبه عمر الخيام للرباعيات ويتضح باجماع الباحثين أنها رباعيات موضوعة لا أصل لها وضعها دعاة الشعوبية واستغلها التبشير والاستعمار .

ولى الدين يكن

ما من اسم وضع تحت أضواء التغريب الشعوبية إلا كان ضالعاً مع الاستعمار وما من كاتب احتضنته جريدة المقطم إلا وكان خصما لأمته وفكر أمته ، ومن أبرز هذه الأسماء شبلى شميل وولى الدين يكن الذى وصف بأنه خصم مقاوم لظلم السلطان عبد الحميد بينما كانت خيانته التى سجن من أجلها بعيدة كل البعد عن أعمال الوطنية والحرية ، وقد سمعت من أحمد حلمى باشا رئيس حكومة فلسطين وأمين الحسينى مفتى فلسطين فى ندوة كامل كيلانى أن تهمة ولى الدين يكن التى وضعته فى السجن لم تكن مشرفة وأنها كانت تتعلق بالعمل الذى كان يليه فقد كان عضوا فى الجمعية الرسومية الجمركية وأخذت عليه بعض الاتهامات بالاختلاس والرشوة فلما خرج من سجنه عام ١٩٠٨ بعفو عام ادعى أنه من الأحرار الذين اعتقلهم السلطان وقد جاء إلى مصر فانطوى إلى أنصار بريطانيا وخصوم العرب والإسلام ووالى الانجليز وكان من اتباع كرومر ومن محررى المقطم .

وقد كان ولائه للانجليز هو أهم ما دافع عنه بعض الكتاب اللبنانيين يقول كريم ملحم كرم فى مجلة الرسالة : يقول الناقدون على الرجل أنه ساير الإنجليز فوقف عليهم قلمه ورحب باحتلالهم لوادى النيل » وهو بذلك يعترف بموقف ولى الدين يكن ويستدرك فيقول « أن الانجليز ساعدوا على ترقية مصر » ولقد حاولت حركة التغريب والشعوبية أن تلقى الأضواء على هذا الرجل فرفعته إلى مصاف كبار الكتاب ونشرت آثاره بين أيدى الطلبة والقراء .

ووضعه بعض كتاب لبنان فى صف كتاب الروائع ، وفى صف شوقى والمنفلوطى ، بل لقد بلغ الأمر بكاتب مثل سامى الكيالى (وهو تغريبى عتيق) أن يقول عنه أنه من الأدباء الذين نهجوا نهج الاصلاح كمحمد عبده، قاسم أمين . وأمامنا قصيدته المؤسفة التى نشرها فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ فى جريدة المقطم وهو يوم بسط الحماية البريطانية على مصر مصدرا بها الصفحة الأولى وموجهة (ملك بريطانيا وأمبراطور الهند) يبارك فيها الحماية ويقول موجهاً كلامه إلى الملك :

غاندى

لمع اسم المهاتما غاندى فى الثلاثينات فى مصر لمعاناً خاطفاً وتحدثت الصحف عن وطنيته وجهاده فى مقاومة الانجليز فى الهند ، ومع أن الانجليز كانوا يحتلون مصر إذ ذاك فقد سمحوا لهذه الكتابات أن تتسع ولهذه النغمة أن تعلو .

وقد وصفت الحركة الوطنية الهندية بأنها حركة قد أنشأها غاندى بعد عودته من جنوب أفريقيا وكانت اليه قيادتها وبطولتها :

وكان هذا هو التحريف الخطير الذى لم ينتبه إليه الكتاب المسلمون والعرب إذ كيف يمكن أن يكون غاندى خصما لبريطانيا بينما بريطانيا تفسح له المجال لابراز بطولاته وعظمته !

ولقد ظلت هذه الحلقة المفقودة خافية حتى سافر إلى الهند وفد من علماء المسلمين ومن بينهم العلامة عبد العزيز الثعالبى الذى طاف طوافا واسعاً بالقارة الهندية وحقق كثيراً من المواقف التاريخية والسياسية وكان من أهم ما وصل اليه وكشف عنه النقاب، تلك الحلقة المفقودة التى أ تؤكد أن الحركة الوطنية لتحرير الهند إنما بدأت أصلا فى أحضان المسلمين وقد أزعجت الاستعمار البريطانى إزعاجا شديداً فالمسلمون هم حكام الهند السابقين والذين يحملون مفهوما صريحاً فى مقاومة المحتل والظالم والدخيل، والجهاد عندهم واحدة العقائد الكبرى .

ولذا فقد عمدت بريطانيا إلى القضاء على هذه الحركة بأسلوب غاية فى البراعة والمكر ، قصدت به إلى عزل المسلمين عن قيادة الحركة الوطنية وتنحيتهم وإسلامها إلى الهندوس الذين أجروها على الأسلوب الذى أرادته بريطانيا .

فالإستعمار البريطانى الذى سيطر على الهند بعد ثورة ١٨٥٧ التي قادها

مصر الوفيـة لا تزال وفية   وكما عهدت النيـل والأهرام
نالت حمايتك التى اعتزت بها   أمثالها واستمسكن الاسلام

وقد زين ولى الدين يكن كتابه بصورة كرومر كما فعل فى كتابه (المعلوم والمجهول) وقد كتب تحت صورته (مصلح مصر) .

وآية خيانته أنه هاجم عرابى والعرابيين وعبد الله نديم ، ونعى على نديم أنه اختفى بعد الثورة العرابية بينما لم يختف هو صديق الانجليز ، ولا شك أنه ليس هناك أى وجه للمقارنة بينه وبين عبد الله نديم ، ولقد قذف بقلمه المأجور هذا المجاهد الصادق فقال(بقى مختبئا فى مكامن خوفه اختباء الأفاعى فى جحورها) ولا بأس على عبد الله نديم ولا ضير فى أن يختفى وأنه لشرف له لا يستطيع أن يدعيه لص الجمارك .

وكذلك هاجم مصطفى كامل ورجال الحزب الوطنى واتهمهم بالنفاق والتهريج .

وتكشف كتابات ولى الدين عن نفسية ملحدة جريئة على القيم والمقومات فقد كان يتحدى شعور المسلمين بكتاباته وسخرياته عن شهر رمضان على صفحات المقطم ومن ذلك قوله(دوى مدفع الظهر الذى أفطر عليه) ومن أجل ذلك وصفه مندور بأنه من أحرار الفكر وضمه إلى قائمة فولتير وكان يكون منصفا لو وصفه بالزندقة ومما يروى أن ولى الدين يكن يمد بأصل إلى الدونمة اليهود الأتراك الذين كان لهم دورهم الخطير فى إقامة محافل الماسونية وضرب الخلافة والدولة العثمانية لحساب الصهيونية .

المسلمون كان حريصا على ألا تتحقق للمسلمين السيطرة مرة أخرى على الهند وكان المسلمون قد تقدموا إلى العمل من أجل الدعوة إلى تحرير الهند ، والحصول على حقوقهم وتصدرت منهم جماعة كبيره فكانت جمعيتهم الاسلامية إلى طاق عليها جمعية إنقاذ الخلافة برئاسة علام محمد فتو عام ١٩٢٠ ودخل فى عضويتها الزعماء المسلمون وجمعت مالا لعل عن سبعة عشر مليون روبية من أجل مواجهة تآمر الدول الغربية على الدولة العثمانية.

إلى هذا الوقت كان غاندى غير معروف فى الهيئات السياسية فى الهند وكان منزويا يعمل متطوعا فى فرقة تمريض الجنود ثم اتصل بجمعية الخلافة فاستقبله المسلمون أحر استقبال ، رغم تحذير المولوى (خوجندى) ، وكان على صلة به من قبل ويعلم من أمره مالا يعلمون وخاصة فيما يتعلق بتعصبه للهنادكة على المسلمين وقد أشار غاندى باستئلاف الهنادكة فقبل المسلمون رغبته وندبوه للسعى إلى ذلك فطاف الهند على حساب الجمعية يدعو إلى الوفاق ويقول المطلعون أنه كان يتصل بالهنادكة ويتآمر معهم على شل الحركة الإسلامية ثم سعى لضم جمعية الخلافة إلى المؤتمر الوطنى الهندى فانضمت ثقة بغاندى ، وقد أقترح المسلمون فى أول إجتماع لهم تعديل القانون الأساسى وطالبوا بتعديل المادة التى تقرل بإصلاح حالة الهند الى عبارة (إستقلال الهند) فوافق المؤتمر على ذلك ومنذ ذلك اليوم أخذت الأحزاب تطالب بالاستقلال التام طبق رغبة المسلمين وكانوا قبل ذلك لا يطالبون الا بإجراء إصلاحات فارتاعت الحكومة (البريطانية) لهذا التغيير وعدته فاجعة فى سياسة البلاد وعلى أثره القت القبض على الزعماء وزجتهم فى السجون . وطالب المسلمون بإصدار قرار يتضمن إعلان الأمة الهندية وأن الحكومة الحاضرة غير مشروعة مع دعوة البلاد الى مقاطعتها وعارض غاندى وثبط الهمم ودعا الى عدم مقاومة الحكومة وقال له ممثل المسلمين : ان كان غاندى يتصور أن أعمال المسلمين فى الهند لا يقوم الا على مساعدة الهنادكة فقد آن له آن يخرج هذه الفكرة من دماغه وليعلم أن المسلمين

لم يعتمدوا قط على أحد الا على الله وعلى أنفسهم .

وشرعت الامة الهندية على أنحاء ذلك فى مقاطعة الحكومة والامتناع عن دفع الضرائب وحرق المسلمون كل مافى مخازنهم من البضائع الانجلزية وترك المسلمون الموظفون مناصبهم فى الحكومة لحل الهنادك محلهم واشتدت المقاطعة فى البنغال اشتداداً عظيما ليس له مثيل وهاجر عدد كبير من المسلمين الى الافغان بعد أن تركوا أملاكهم وأرضهم فى الهند ، وخطب اللورد ريدنج (الحاكم العام) فى كلكتا فقال : اننى شديد الحيرة من جراء هذه الحركة ولست أدرى ماذا أصنع فيها .

ومن هذا السياق تستطيع أن تتصور قوة المسلمين فى الحركة الوطنية وضعفها فى الهندوكية ومن هنا فقد عمدت بريطانيا الى ضربة خطيرة بتحويل الحركة من أيدى المسلمين الى أيدى الهنود .

فقد انتهزت فرصة إجتماع الزعماء وإعلانهم عام ١٩٢١ إستقلال الهند إستقلالا فعليا وقاموا بتعيين ولاة الولايات وحكام المقاطعات وقضاة المحاكم فى جميع المدن ، هناك اجتمع اللورد ريدنج مع غاندى وطلب اليه حل الوفاق العونى بين المسلمين والهندوك ، وقال له أن مصدر الحركة الإستقلالية فى الهند المسلمون وأهدافها بأيدى زعمائهم لو أجبنا مطالبكم وسلمنا لكم مقاليد الأحكام صارت البلاد للمسلمين وأن الطريق الصحيح هو أن تسعى أولا لكسر شوكة المسلمين بالتعاون مع بريطانيا وحينئذ لا تتمهل بريطانيا فى الإعتراف لكم بالإستقلال وتسليم مقاليد الحكم فى البلاد اليكم .

وهنا وقع الصدع ، فقد عمدت بريطانيا إلى زعماء المسلمين فاعتقلتهم (شوكت على ، حسين أحمد ، كثار أحمد ، بير علام محمد ، الدكتور سيف الدين كستشلو) وهنا تقدم غاندى إلى هيئة المؤتمر بأن يفوض اليه أمور الحركة جميعا وقال أن الزعماء معتقلون ولا بد من إعطائى السلطة المطلقة وسرعان ما أعلن

غاندى فى أول إجتماع برئاسته أن الوقت لم يحن بعد لاعلان إستقلال الهند وبذلك خان أمانة زملائه وحطم مشاريعهم ، وضربت بريطانيا بيد من حديد كل محاولات المسلمين ووضعتهم فى السجن وبذلك سيطر غاندى على الحركة الوطنية حتى إذا خرج المسلمون من السجن كان غاندى هو كل شىء .

هذا هو ملخص التحقيق الذى أجراه العلامة عبد العزيز الثعالبى أثناء زيارته للهند عام ١٩٣٧ وكشف به عن أسطورة غاندى :

سارتر

إن وقائع حياة « سارتر » تستطيع وحدها أن تكشف عن طبيعة فكره وعن التحديات الخطيرة التى فرضت عليه هذا الاتجاه الفلسفى الذى أطلق عليه إسم (الوجودية الملحدة) تفريقا بينها وبين الوجودية التى دعا إليها من قبل (كيركجارد) :

ذلك أن التحديات والأخطار التى واجهها فى مطالع حياته بعد انفصال أمه عن أبيه ، وحياته فى ظل جده الذى كان قاسيا عليه ، وما يتصل ذلك بعدم اقتناعه بما كان يفرض عليه من اتجاه دينى وبالإضافة إلى تحديات عصره ، وإلى الدم اليهودى الذى يثير فيه الإحساس بالحقد على المجتمعات المسيحية الغربية ، كل ذلك كان له أثره فى تشكيله وتركيبه وفى الآراء التى حملها ودعا اليها .

هذا بالإضافة إلى شىء آخر ، ذلك هو التركيز على هذه الآراء بالدعاية لها ونشرها وتعميق ظهورها فى المجتمعات الغربية وهو ليس من عمل الكاتب أو الفيلسوف ولكنه من عمل القوى التى تروقها هذه الفلسفة وترى فيها خدمة لأهدافها ولا ريب أن هذه القوى هى التى حملت من قبل آراء فرويد ونظرية نيتشة وغيرها وأذاعت بها وخلقت حولها هذا الجو الخطير ، وأدخلتها فى قصص الأدباء وكتابات الباحثين ومناهج الدراسة فى الجامعات .

وواضح من كل كتابات سارتر ذلك التحدى الخطير الجرىء على كل الحقائق والقيم وفى مقدمتها وجود الله وطبيعة الخلق والمجتمعات والناس .

وقد أدت به هذه العوامل المختلفة (من تكوينه خاصة ومن أثار مجتمعة) إلى تكوين نظرية مليئة بالقلق والسأم ، رافضة لكل القيم والمقدرات والأخلاق وتقوم نظرية سارتر أساسا على القول بأن الله غير موجود وإذا كان الله ليس له وجود فكل شىء مباح . وهذا لا يعنى الحرية وإنما يعنى الفوضوية التى تنكرها كل الأديان والعقائد والقيم والتى تدمر الانسان تدميراً كاملا .

فآراء سارتر تحتقر العلم وتنكر قيمته .

وسارتر يرى أنه قد صنع ذاته لأنه لم يكن إبناً لأحد، وأنه يعيش فى الهواء ويقول : اليوم كغد ، والغد كبعد الغد ، وأنه لا طعم لشىء ولا لذة ولا أمل فى شىء .

* * *

ولما كانت المذاهب الفكرية والفلسفة هى رد فعل لنفسية صاحبها وعقليته ، فان نظرية سارتر تكشف تماما عن طبيعة تركيب النفس والعقلى وتفصح عن غموض مطالع حياته واضطرابها ،هذا الذى ساقه إلى الكفر بكل القيم الإنسانية ، ويجمع الباحثون على أن مذهب سارتر مستمد من تحديات حياته شخصياً ،فإنه ولد وليس له أسرة ومات أبوه فى الشهر الثالث وكانت أمه ممسوخة الشخصية لم تشعره أبداً بحنان أمومتها (وهى يهودية الأصل) والأسرة التى عاش فيها لم تزد عن جدين عجوزين كان يؤذيانه هو وأمه ويشعرانهما بالضياع .

وقد كشف سارتر عن نفسه خلال ترجمته الذاتية فأنكر الكنيسة وقال كنت كاثوليكيا وفى نفس الوقت بروتستانتيا ومن هنا أراد أن يؤكد ذاته بأن له رسالة ، وهو الطفل المنبوذ فى مجتمع يرعى الأطفال العاديين .

ابن خلدون

كانت الحملة التى قادها الدكتور طه حسين فى مطالع هذا القرن على ابن خلدون فى أطروحته الفرنسية التى نال بها الدكتوراه من جامعة السربون علامة على ذلك الخط الذى اختاره المستشرقون والمبشرون لكتابنا بالنسبة إلى أعلام الفكر العربى الاسلامى والتاريخ الاسلامى وهو نفس الخط الذى مضى فيه زكى مبارك إلى مهاجمة الغزالى ومضى فيه طه حسين من بعد إلى مهاجمة المتنبى ومضى فيه كثيرون إلى تدمير أعظم الشخصيات العربية الاسلامية التى هى فخر تاريخنا والمثل الأعلى الذى يتطلع اليه شبابنا .

وكان طه حسين قد أعد أطروحته تحت إشراف باحث يهودى هو «دوركايم» ومن هنا فقد حرص على نقل آرائه واصطفاء وجهه نظرة ، وقد مضى فى ذلك شوطا طويلا فى الظلم والاعنات حتى أعتبر أن إطلاق لقب (اجتماعى) على ابن خلدون مبالغة كبيرة .

وكان هذا غاية فى الظلم والاعتساف وقد كشفت أبحاث الباحثين عن هذه التبعية الخطيرة التى دفعت طه حسين إلى تبنى آراء دوركايم فى ابن خلدون واتخاذها أساساً لبحثه وهو يهودى من أتباع النظرية الماركسية ورأيه فى ابن خلدون مشوب بالتعصب .

ولقد وقف طه حسين هذا الموقف الظالم لابن خلدون بينما وقف أغلب كتاب الغرب المنصفين موقف التقدير لهذا العلامة وكشفوا عن سبقه وعن ريادته فى مجال : التاريخ والاجتماع والاقتصاد بالنسبة لمن جاءوا بعده من أمثال آدم سميث وأوغست كونت وبينهم وبينه أكثر من أربعة قرون .

وقد أكد المنصفون من الباحثين أن نظريته فى المقدمة لم تكن مجرد جمع لمعارف منوعة ولكنها جاءت كعمل منظم ومرتب ينطبق عليه لفظ العلم فى معناه الدقيق .

وقد ردد هذه المعانى : شميدث ، وفيليب ، وإيف لاكوست . روبرت فلينت وجو ميلوفيتس واستيفانوا كولوزيو .

وسجل أرنولد توينبى « أن ابن خلدون فى المقدمة التى كتبها التاريخ العلم قد أدرك وأنشأ (فلسفة التاريخ) وهى بلاشك أعظم عمل من نوعه أبدعه أى زمان ومكان » .

وفى مؤتمر ابن خلدون عام ١٩٦٢ بالقاهرة اجتمع أكثر من مائة عالم وقدموا أكثر من ثمانمائة صفحة عن ابن خلدون كلها تصفع آراء طه حسين الزائفة الوافدة التى تحمل طابع التبعية والجحود .

وقال الدكتور عمر فروخ فى هذا الموقف : انه لمن دواعى الأسف أن يعرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل ان يعرفه الشرقيون أنفسهم ولكن الذى يؤسف له حقا أن يقوم بعض الشرقيين يحطون من قدر ابن خلدون بعد أن جهد الغربيون كل جهد فى نشر فضائله واظهارها .

ميكافيلى

أولى التغريبيون إهتماما كبيرا بميكافيلى وكتابه الأمير ، لا على النحو الصحيح وهو إبراز الفوارق بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى فى مجال السياسة ودخص نظرية ميكافيلى وإعلان ذاتية الفكر الإسلامى التى تؤمن بأخلاقية كل القيم والمفاهيم من سياسة واقتصادواجتماع وتربية ولكن على أساس غزوالفكر الاسلامى بمفاهيم تختلف عن ذاتيته وأخلاقياته وقيمه الأساسية .

والحق أن ميكافيلى مطابق للفكر الغربي في أسسه الرومانية واليونانية وهو إضافة حقيقة اليها ، وليس غريباً عنها ، ولكنه غريب بالنسبة للفكر العربى الاسلامى ، حقيقة أن ميكافيلى يمثل أول انكسار فى الخط الذى أشاعته تعاليم المسيحية ولكنه مطابق لذلك التحول الخطير الذى اتجه اليه الفكر الغربى حين حرر نفسه من قيم الأديان وانطلق إلى نزعته الوثنيةالقديمة : نزعة الغايةالتى تبرر الواسطة .

وقد كانت نظرية ميكافيلى هى منطلق جميع نظريات الديكتاتورية والفاشية والنازية والتسلط التى سادت الفكر الأوربى والمجتمع الغربى وهى نظرة غريبة على مجتمع العرب والمسلمين فى أصالته ،وان كان قد تأثر بها تأثراً بالغزو الغربى الذى فرض عليه الفلسفة الليبرالية ، والأنظمة الديمقراطية الغربية بكل فسادها واضطرابها وتعارضها مع مفاهيم الفكر الاسلامى القائمة على الحرية والكرامة والعدالة والترابط بين الفرد والمجتمع وحرية المعتقد الدينى .

ولذلك فاننا يجب أنه نتنبه إلى مدى عمق الفوارق بين الفكر الغربى والفكر الاسلامي فى مجال السياسة وفى عرض الشخصيات المختلفة وفى مقدمتها ميكافيلى .

تولستوى

نزعة الغاندية والتولستوية فى الأدب العربى والفكر العربى الحديث نزعة دخيلة وافدة ، غريبة عن طبيعة هذا الأدب وهذا الفكر ، وهى محاولة لإخراج الفكر الإسلامى والثقافة العربية عن ذاتيتها القائمة على العدل والرحمة معاً ، والتى تجعل (الجهاد) أفقاً عالياً من آفاق العقائد لا سبيل إلى التخلى عنه أو المهادنة فيه أو التفريط فيه .

وتقوم الغاندية والتولستوية على فكرة مستمدة من المسيحية الغربية هى فكرة السلام والدعوة إلى إلقاء السلاح وإلغاء الحروب والتقريب بين الأديان وهى جميعها دعاوى تكشف أن من ورائها الصهيونية العالمية والماسونية فى محاولة تخذيل كل القوى المدافعة عن أرضها ومحاولة تقبل ما يسمى بالثقافة العالمية أو الفكر العالمى أو الأخوة العالمية . وتبرز هذه الدعوات وتستشرى فى ظل ذلك الخطر الإسرائيلى الماثل المسيطر على الارض العربية .

بينا لا تحمل أى دعوة ما يحمله الإسلام من سلام وأخاء ومحبة وتقريب بين الناس ودعوة إلى الإنسانية والأخاء البشرى ، دون انتقاص لأحد أو احتلال لأرضه أو سيطرة عليه أو إذلاله .

ومن هنا كان خطر التزيين بما دعا إليه تولستوى أو غاندى من سلام ، أو ما يشار إليه من العصيان المدنى فى مواجهة الاستعمار أو الدعوة إلى الرحمة المسيحية ، ذلك أن الإسلام يقوم على قاعدته الأصيلة سلاما كاملا عن طريق الجهاد ، الذى هو فى مفهومه الأصيل عملية دفاع وحذر واستعداد وليست عملية قتل أو قتال أو حرب : وهى تتمثل فى الآية الكريمة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فهى استعداد وحذر وتحصين للثغور وتغطية فى مواجهة العدو ، تحمل السلام ، وتفرضه ، وتحول دون القتال والحرب إلا إذا اعتدى على أرض المسلمين أو غزيت بلادهم فهنا يكون القتال من أجل استرداد الأرض وحماية الذمار .

يعقوب صنوع

هذا واحد عمد دعاة الغزو الثقافى الغربى إلى تزيينه وإعلاء إسمه ووضعه فى صفوف المجاهدين والمحررين والمقاومين للظلم والاستبداد ، حتى لقد أضيف اسمه إلى قائمة تلاميذ جمال الدين الأفغانى بينما كان هو خادماً للأهداف الاستعمارية شأنه شأن جرجى زيدان وسليم سركيس وفرح أنطون وولى الدين يكن وغيرهم فيعقوب صنوع يهودى أساساًوقد حمل الدعوة إلى العامية وأنشأ الصحافة الساخرة للعبث بكل القيم والمقدرات وإدخال عنصر الفكاهة والسخرية بكل شيء ، من النكتة المكشوفة إلى الكلمة الجريئة ، وهو الذى فتح هذا الباب فى صحافتنا العربية والمصرية فمضى الكتاب فيه من بعد وكان من الأسلحة الخطيرة التى حملها المحترفون فى سبيل العدوان على الأعراض والكرامات والبيوت .

ولم يكن يعقوب صنوع إلا واحداً من هذه المدرسة التى عملت فى صف القصر والاستعمار وخدمت أهدافها بالاستيلاء على قيادة الصحافة والمسرح ، وقد حمل معه سموم القصص والمسرحيات الفرنسية المكشوفة فعربها ومصرها ، وساهم بجهد ضخم فى إنشاء المحافل الماسونية فى مصر عام ١٨٦٥ والواقع أن يعقوب صنوع كان صنيعة الخديو أساساً وكان يعلم أولاده اللغة الفرنسية وله قصائد عديدة فى مديحه والإشادة به وتردد أنه كان أستاذا فى علم الرقص وأنه علمه فى قصور الخديو والباشوات ، وكان أمراء عابدين قد أرسلوه إلى باريس ليتعلم بها فهو ربيب نعمتهم أصلا ، وليس خلافه مع الخديو اسماعيل مرتبطاً بهدف أو ايمانا بفكرة كما حاول بعض التغريبيين أن يصوروه ، بل على العكس كان جريا مع التيارات الصهيونية والاستعمارية التى حملت على الخديو رغبة فى اسقاطه .

وإذا كان يعقوب صنوع قد ألف محفلا أو محفلين فان ذلك كان فى خدمة الماسونية طليعة الصهيونية فى هذا العهد . وقد كشف ابراهيم عبده هذا المعنى فى كتابه عنه حين قال :

« كان فى محفلة يتحدث عن تقدم الآداب والعلوم فى أوربا . حاملا على تخفيف حدة كراهية النفوذ الأجنبى ومسالمته ، وكان المتحدثون فى ندوته يدعون للحكمة والاخاء بين الشعوب وقد كانت جمعيات يحضرها اليهود والنصارى والمسلمون ويغرى بها طلبة الأزهر وضباط الجيش « ليتعرفوا » على مبادىء الحرية الأوربية والفرنسية خاصة » .

ولا شك أن تعبير إبراهيم عبده انما هو محاولة لبقة لاخفاء صفة الماسونية التى كانت تسيطر على هذه الاجتماعات وكل ما أورده هو من دعواها الخطيرة التى آلت بالمخدوعين فيها الى أن يكونوا خدما معصوبى العينين للبنائين الأحرار الذين يدعون فى خفية الى اعادة بناء هيكل سليمان وهم طلائع الصهيونية .

لا ريب اذن فى أن يعقوب صنوع كان طرفا فى الحركة الماسونية وأداة من أدوات النفوذ الأجنبى . وآية خيانته أنه حين اتسع خلافه مع اسماعيل لجأ الى القنصلية الإيطالية فنال حمايتها واستند عليها فى مهاجمة إسماعيل كما لجأ الى حماية فرنسا .

وهكذا تنحسر الهالة الضخمة الكاذبة التى اخفاها هؤلاء التغريبيون عن يعقوب صنوع وينكشف فى ضوء الحقائق أنه عميل شعوبى ماسونى خائن لوطنه .

أديب اسحق

إلى عهد قريب كانت كتب المطالعة في المدارس الأميرية تحمل نصوصاً من كتابات أديب اسحق الذى تصفه بأنه داعية من دعاة الحريه وتنسب اليه أنه كان تلميذاً من تلاميذ جمال الدين الأفغانى وهو بذلك يعلو على الاتهام ويرتفع عن الشك فيه . ولكن الحقيقة لا يبحث عنها خلال إقامة جمال الدين فى مصر وقد غادرها ١٨٧٩ وإنما يبحث عن هذه الأسماء التى دارت حول فلك جمال الدين بعد سفره ، أين ذهبوا وكيف عملوا ، فقد كانوا جماعة من الوصوليين الذين استغلوا دعوة هذا الداعى فى سبيل كسب لحساب الاستعمار والتغريب والماسونية، ذلك أن أديب اسحق ما كاد يرى جمال الدين وهو يغادر مصر حتى أصبح ولياً للقصر والاستعمار وأنه حين عاد إلى مصر كرمته الدوله التى كان يعارضها فى ظل جمال الدين وعين وكيلا لقلم الإنشاء والترجمة بديوان المعارف وأعاد جريدة مصر إلى الوجود ، وهكذا عاد أديب اسحق ليجد تكريماً من الدولة المحتلة ثم يتصل بالخديو فينعم عليه برتبة البكوية ويصبح كاتماً لأسرار مجلس النواب ومعنى هذا أنه تحول عن مذهبه الأول ثم أصبح من دعاة « الاعتدال » إبان الثورة العرابية مما أسخط عليه رجال هذه الثورة ومنع جريدته من أن تكون لسان حالها ولأديب اسحق شعر حمل فيه على الثورة العرابية وعرابى .

هذا فضلا عما عرف عن أديب اسحق من تحلل فى الخلق والدين ، الصحافة عنده حرفة وليست فكرة ، كما عرف بسرعة الانفعال وهياج الأعصاب والتقلب كما وصفه عارفوه بأنه يؤمن بالجرى وراء هوى النفس ، كما وصف بالتساهل فى طرق معاشرته وإطلاق هواه مما ساق إليه عنف المزاج وحدته وقد كان هذا سبباً من أسباب استفحال مرضه وتعجل وفاته بداء الصدر ، وقد عرف أن هدفه كان هو النيل من وحدة العالم الإسلامى تعصباً ضد الدولة العثمانية التى كانت تجمع بين العالمين العربى والإسلامى .

ولعل أخطر ما وجه إلى أديب إسحق من اتهام أنه كان يواجه الاستعمار

البريطانى فى مصر ولا يهاجم الاستعمار الفرنسى فى بلاده سوريا ، بل كان يعطف على فرنسا الأم ويواليها ويصفها بأنها محررة الشعوب . وذلك موضع الاتهام فى إمانته ككاتب وأخطر مغمز يوجه إلى أدبه وشخصه .

ولقد كان متابعاً بالطبع للماسونية ومن أولياء الدعوة إلى ما دعت إليه من اكبار واجلال للثورة الفرنسية والفكر الغربى .

جرجى زيدان

ما زال دعاة التغريب يخدعون القارىء العربى والمسلم حول جرجى زيدان ويقدمون له روايات الهلال المليئة بالسموم والإتهامات الباطلة والشكوك والشبهات وذلك فى طريق حركة الغزو الثقافى التى تركز على التاريخ الإسلامى وتحاول إفساده فى نظر الشباب ، ولقد ظهرت فى الفترة الأخيرة تراجم جديدة لجرجى زيدان حاولت وضعه فى صفوف الإعلام والمؤرخين بينما أن وقائع حياة جرجى زيدان وحدها كافية لتكشف عن حقيقته فقد اعتمدت عليه المخابرات الأجنبية ورافق الحملة النيلة إلى السودان ١٨٨٤ بوصفه مترجماً فى قلب الاستخبارات ، فلما كشف عنه الاستعماريون ووجدوا فيه طلبتهم أرسلوه إلى بريطانيا وأعدوه إعداداً خاصاً فلما عاد درس اللغتين العبرانية والسريانية وجاء إلى مصر فألف أخطر كتاب فى تاريخ الماسونية وكان من دعاتها الأبرار وعضواً مؤسساً فى المحافل الماسونية ، ولم يقف أمره عند هذا بل أدخل إلى أفكاره وآرائه سموم الآراء الخطيرة التى تحملها هذه الدعوى التى كانت مقدمة للصهيونية العالمية والتى استقطبت كثيراً من الغافلين فى العالم العربى .

وكان الهلال وروايات الهلال من الأدوات الخطيرة فى هذا المجال فى سبيل الدعوة لليهود وتزييف التاريخ القديم . ولقد ثبت اتصال جرجى زيدان بالاتحاديين الأتراك الذين كانوا أداة النفوذ الاستعمارى والصهيونى فى تمزيق الدولة العثمانية وأنهم أولوا اهتمامهم بالكتابه عن الانقلاب العثمانى وكان رأيه فى السلطان عبد الحميد متابعاً للصهيونية حتى أنه عندما أشار إلى موقفه الكريم فى رفض عرضهم ، لم يزد على أن قال كلمات غامضة لا تكشف الحقيقة تمويهاً وإبقاءاً للشبهة حول الرجل الكريم وكتابات جرجى زيدان تحمل لواء الخصومة لكل وطنى ومجاهد ومصلح : مصطفى كامل وعرابى والمهدى محمد أحمد وغيرهم .

نيتشه

عمد دعاة التغريب إلى إعلاء شأن الفيلسوف نيتشه وإبراز فكره وكانوا فى ذلك غير صادقين ، بل لقد استغلوا جانبا من نيتشه ولم يكشفوا عن حقيقته أو التحديات التى دفعته .

وما ردده الفيلسوف نيتشه لا يتصل بالفكر الاسلامى ولا بالاسلام ولا بالأدب العربى من قريب أو بعيد فقد كان نيتشه مسيحيا وكان هجومه كله على المسيحية الغربية ، وفى كل ما حاول أن يصورها به من قصور أو عجز من مواجهة العلم (كما فعل رينان) من بعده أو إثارة الاتهامات حول شخصية سيدنا عيسى وهل هو إله أم بشر (على نحو ما فعل لدوفيج من بعد) كل هذا لا يطرح على الفكر الاسلامى ولا يمثل أدنى صلة به ذلك أن الفكر الاسلامى فى متابعه من القرآن والاسلام يختلف اختلافا بعيدا فى نظرته إلى العلم والى النبوة والى التوحيد والى مختلف مفاهيم الحياة وقيمها .

أما الذين طرحوا نيتشه وفكره فى محيط فكرنا العربى الاسلامى فانما أرادوا اثارة الشبهات وخلق جو من الشكوك والالحاد والاباحة جريا على التمويه الذى توجه اليه حملات التغريب والصهيونية وهو مهاجمة الدين بوصفه دينا ، أما الاسلام فليس دينا بالمعنى الذى يريده هؤلاء أو يقصدونه ، ذلك أنه ليس منهجاً تعبدياً لاهوتيا خالصا يقوم على العبادات أو الاتصال بالله وحده ولكنه نظام كامل للحياة والمجتمع والحضارة فيه تترابط الصلة بين الانسان والله والانسان والمجتمع جميعا . ومن هنا فان فكر نيتشه وصيحته ان الله قد مات لا تدخل مطلقا فى نطاق الفكر العربى الاسلامى الا من ناحية دراسة تطور الأديان وعلومها المقارنة .

ماركس

أبرز مفاهيم ماركس نظرية التفسير المادى للتاريخ وهى نظرية ثبت أنها جزئية وليست صالحة للتطبيق لا من حيث المجتمعات ولا من حيث العصور ، وانها واحدة من نظريات التفسير الجغرافى للتاريخ ، والتفسير الطبيعى للتاريخ والتفسير الاجتماعى للتاريخ والتفسير الجنسى للتاريخ ، وكلها نظريات يقف أمامها الفكر العربى الاسلامى موقفاً واضحاً ، هو أن للفكر الاسلامى نظريتهم فى التفسير الإسلامى للتاريخ أو ما يمكن أن يطلق عليه « التفسير الانسانى للتاريخ » .

وماركس يدير التاريخ كله حول نظرية القيمة ويفسر بها كل الأحداث ، وقد أصبح الرأى على أن العامل الاقتصادى ليس هو العامل الوحيد الذى يقرر الكيان الاجتماعى لأى أمه ، ذلك أن هناك عوامل كثيرة تؤثر على مجرى التاريخ من بينها العوامل السياسية والقانونية والأفكار الدينية، وفى كثير من الأحيان تكون الغلبة لأحد هذه العوامل وليس للعامل الاقتصادى .

وقد اعتمد ماركس فى دعم نظريته ، وعلى كثير من الأحداث التاريخية الغامضة والتى وقعت قبل التاريخ كما حرف كثيراً من الحقائق وتجاهل حوادث أخرى هامة لا تنطبق على نظريته ، ومما ذهب إليه ماركس ولم يتحقق نظريته القائلة بأنه التقدم الاجتماعى من شأنه أن يحقق تقدما أخلاقيا وقد أثبتت تطورات الحضارة عكس ذلك ، ومصدر أخطاء ماركس أنه اعتمد على الجوانب المادية وحدها ولم يحسب حساب العوامل الفكرية والروحية .

فرويد

لقد أعطى فرويد تركيزاً ضخماً وألقيت عليه أضواء كثيرة وطرحت آرائه بقوة نفوذ الأعلام الصهيونى واليهودى حتى أصبحت من مقررات الجامعات ومصادر الكتابة لدى القصاصين والكتاب ، دون التفات إلى ما هوجمت به آرائه من زملائه وما كشف عنها من نقص . وخاصة فى نظرية فرويد الرئيسية

القائمة على أساس الجنس والقائلة بأن غرائز الإنسان هى التى تحكمه وتسيطر عليه وقد خالفه فى هذا الاحتمال أقرب اثنين اليه من زملائه : هما ادلرويونج مناقش وقد أجمع الباحثون على أن فرويد (متنبىء) أكثر منه عالما وأنه مخترع للفرضيات أكثر منه لها ، وأن فرويد قد اعتمد على كثير من الأساطير اليونانية القديمة فحولها إلى نظريات ومن ذلك عقدة أوديب وعقده الكترا .

وقد كشفت الأبحاث التى نشرت أخيراً عن علاقات خطيرة بين هوتزل وفرويد ، وأن هدف مذهب التحليل النفسى هو جزء من مخطط بروتوكولات صهيون الداعية إلى تدمير النفس الإنسانية وأن فرويد قد حقق ذلك عن طريق نظريته التى أذاعتها الصهيونية وأعطتها قدراً كبيراً من الاهتمام بما وضع كل النظريات الأخرى والأقرب إلى الصواب فى الظل .

وفرويد بطبيعته يهودى يحس بهذا الحقد البشع للمجتمعات الأوروبية والإنسانية وقد عاش فى النمسا فى مجتمع يكره اليهودى ويضطهدهم ، ونقطة الضعف فى نظريات فرويد وفى مكانته كعالم هى أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم والوصول إلى قوانين عامة ، كما اعتمد فرويد على نماذج كلها من المرضى الذين زاروه ، ولم يعتمد على نماذج من الأصحاء .

ولقد أشار كثير من مؤرخى فرويد إلى أنه كان مجموعة من العقد النفسية وأنه كان مريضاً وكانت مزارة الطبع خله ملازمة له فى علاقاته بغيره .

سعد زغلول

لمع اسم سعد زغلول فى تاريخ مصر فى العصر الحديث لعانا خاطئا بما وصف به من أنه قائد ثورة ١٩١٩ - غير أن سعد زغلول من الشخصيات التى انقسم حولها الراى والتى لم تظفر بالطمأنينة الكاملة فى الحكم عليها من جميع الأطراف ، ذلك أن سعد زغلول قبل الحركة الوطنية كان له ولاء مشبوه مع النفوذ البريطانى تجلى فى أكثر من مظهر ، وكان أبرز مظاهره مصاهرته لمصطفى فهمى الرجل الذى فرضه الانجليز رئيساً للحكومة بعد الاحتلال فامضى ثلاثة عشر عاما حاكما مطلقاً والرجل الذى كان موضع ثقة كرومر وموضع نقمة وكراهية المصريين جميعاً .

وعن طريق هذه المصاهرة التى تمت فى حضانة كرومر ، وفى مجال الدعوة التى دعاها إلى ظهور طبقة من الشباب المصريين المتفرنجين الذين يعاونون الأجنبى ويتولون حكم البلاد ، ظهر سعد زغلول لأول مرة ناظراً للمعارف عام ٩٠٧
وكانت شقيقه فتحى زغلول أحد قضاة دنشواى ؛ وفى خلال نظارة سعد حدثت أحداث كان له فيها أكبر قدر من الولاء للنفوذ الأجنبى فقد صادر اللغة العربية بالرغم من الأصوات التى ارتفعت لجعلها لغة التعليم وفرض اللغة الانجليزية ، وأيد امتياز قناة السويس أربعين عاما فى الجمعية العمومية ، وأنه الرجل الوحيد الذى ذكره كرومر فى خطاب الوداع بعد أن حكم مصر ربع قرن ووصفه بالرجل العظيم صهر الرجل العظيم ، كل هذه الخلفية لصورة سعد زغلول على رأس الحركة الوطنية تكشف بوضوح عن الدور الذى أعده الاحتلال البريطانى له ، والذى يتمثل فى احلال شخصيات لها ولاء بريطانى محل شخصيات وطنية خالصة ، ومن هنا فقد كان سعد زغلول ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى فى مقدمة الرجال الذين عملوا فى الحركة الوطنية السياسية من داخل دائرة النفوذ الاستعمارى ووفق مفاهيمه وهى الدائرة التى حلت مكان دائرة اليقظة والاصالة التى أسقطها الانجليز من زعامة البلاد وأقصاها ونفاها قبل الحرب العالمية الأولى .

لطفي السيد

أن الدعوة التى حمل لوائها لطفى السيد عام ١٩٠٧ على صفحات الجريدة وهى مصر للمصريين :

وقد وجدت خلافا كثيراً فى تقديرها وفى أصالتها وفى مدى ارتباطها بحركة اليقظة العربية الاسلامية وكذلك مدى ارتباطها بمحاولة الاستعمار والنفوذ الأجنبى فى فصل مصر عن العروبة والعالم الاسلامى والاسلام نفسه. فقد كان رأى لطفى السيد وهو مستمد من مفاهيم كرومر وفلسفته أن المصريين يجب أن يعيشوا داخل وطنهم دون أن يأبهوا بأن رابطة تربطهم بالعرب كاملة او بالعالم الاسلامى وعليهم ان يشكلوا مجتمعهم على هذا الوضع منعزلا عن العالم القريب الذى اتصلوا به قرونا عديدة ، ولكنه لا يرى بأساً أن يفتح المصريون طريقا بينهم وبين الغرب وان يركزوا صلاتهم الفكرية والاجتماعية مع الليبرالية الغربية وما يتصل بها من مفاهيم فى السياسة والاجتماع والتربية . ومن هنا فقد بدت دعوة لطفى السيد غريبة قلقة ، لأنها انفصلت عن قاعدة التاريخ والفكر والأمة ، وقد كشفت الأحداث والوقائع أنها لم تكن دعوة خالصة فقد كان وراءها حزب الأمة الذى هو حزب الالتقاء مع الاحتلال فى منتصف الطريق ورجاله هم خاصة السراة وصفوتهم ممن شكلهم الاحتلال البريطانى ، وقد كانت هذه الدعوى محاولة للنيل من الدعوة الوطنية الخالصة المرتبطة بمختلف قيم العروبة والاسلام ، غير أن الاستعمار استطاع أن يركز أعلام دعوه لطفى السيد وأن يدفعها بقوة بعد أن صفى مراكز الحركة الوطنية وهاجر زعمائها إلى الخارج أو ذهبوا إلى المنافى وبذلك أعد المسرح إعداداً كاملا لسيطرة هذه النظرية السياسية على مسرح الحياة المصرية بعد الحرب العالمية الأولى تحت سماء الأحزاب المختلفة التى كانت جميعاً تدور فى فلك الولاء الفكرى الغربى ، وان كانت تدعو الى الاستقلال السياسى .

كرومر

وولى كرومر منصبه فى مصر ممثلا للدولة البريطانية فترة لا تقل عن ربع قرن (١٨٨٣ - ١٩٠٧) .

وكان ذا نفوذ بالغ مسيطر على كل أجهزة الحكم وعلى القصر جميعاً ، حتى أطلق عليه صاحب السلطة الفعلية فيما أطلق على الخديو صاحب السلطة الشرعية .

وقد استطاع فى خلال هذه الفترة الطويلة أن يؤكد وجود النفوذ الغربى فى مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والتعليمية والقانونية المصرية ، وتمثل تقاريره فلسفة كاملة للتعامل بين النفوذ الاستعمارى والمصريين ، وقد استطاع كرومر أن يعد ركيزتين هائلتين فى سبيل دعم الاحتلال البريطانى والنفوذ الاستعمارى كان لهما أثرهما البعيد بعد ذهاب كرومر وإلى وقت بعيد، هاتان الركيزتين هما :

وضع لطفى السيد على رأس صحيفة الجريدة لسان حال حزب الأمة منذ عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩١٤ ليبث يومياً فلسفة استعماربة إقليمية تمثل المنهج الغربى الاستعمارى الذى ورثناه خلال فترة الاحتلال البريطانى كله والذى ماتزال آثاره ممتدة إلى اليوم بالرغم من كل محاولات التحرير والاصلاح :

ووضع سعد زغلول على رأس نظاره المعارف تأكيداً للمعانى التى حرص النفوذ البريطانى على تحقيقها من خلال التربية والتعليم وأهمها فرض اللغة الانجليزية على مختلف مناهج التعليم ورفع مناهج القرآن والتاريخ الاسلامى والمفاهيم الأخلاقية والاجتماعية والتربوية الاسلامية من المناهج وكان كرومر حفيا بتكوين جيل يرث الاحتلال البريطانى ويكون من متفرنجه المصريين الذين يؤمنون بصداقة بريطانيا ويوالون النظريات الغربية فى مختلف مجالات الاجتماع والسياسة وقد تحقق هذا فعلا وتحققت ثمرته بعد الحرب العالمية الأولى وفى فترة ما بين الحربين على أوسع نطاق .

دنلوب

كان اسم دنلوب من الأسماء الاستعمارية الضخمة فقد وكل إليه كرومر شئون التعليم فكان مستشار نظارة المعارف منذ وقت طويل وامتد نفوذه إلى قبيل الحرب العالمية الأولى .

وكان دوجلاس دنلوب قسيساً أرلندياً إختاره كرومر ليحقق به سيطرة النفوذ الغربى على مناهج التعليم والتربية فكان عمله أشد قسوة مما حققت مناهج مدارس الإرساليات الأجنبية فقد استطاع إسقاط كل الجوانب التى من شأنها أن تبنى العقل العربى الاسلامى من مناهج التعليم خاصة فيما يتعلق بالقرآن والتاريخ واللغة والأدب .

وأضاف كثيراً من تراث الفكر الغربى وخاصة الأدب الانجليزى بهدف خلق طاقة إعجاب وتقدير للمستعمر وإعلاء لشأن الحضارة الغربية والنفوذ الاستعمارى ، وعمد إلى خلق ولاء أوربى فى النفس المصرية يستهدف إحتقار القيم العربية والاسلامية والمصرية ويؤمن بأن المصرى كان طوال تاريخ مستعبداً بالفرس واليونان وبالعرب أيضا فقد اعتبر دنلوب العرب مستعمرين للمصريين وجرى على المنهج كثيرون من بعد .

كما أعلى فى نفوس الشباب المصرى الاعجاب بالأوربى ، والنظر إلى الاستعمار البريطانى على أنه عملية تمدين للشعوب المتأخرة ، وحاول أن يجعل العلاقة بين المصريين والبريطانيين علاقة صداقة .

غير أن هذه المناهج جميعاً لم تلبث أن فشلت ولم تحقق الأهداف التى طمع إليها النفوذ الأجنبى .

ولفنجستون

حاولت كتب الجغرافيا فى المدارس العربية إسداء صفة البطولة على قادة الحملات التبشيرية والاستعمارية من أمثـــال : هنرى الملاح وولفنجستون وفاسكودى جاما ووصفهم بأنهم طلائع الكشوف العلمية وكان ذلك نتيجة لسيطرة النفوذ الاستعمارى على مناهج التعليم فى العالم العربى كله ، والواقع أن هؤلاء لم يكونوا مكتشفين ، ذلك أن كل المناطق التى ارتادوها كانت مكتشفة فعلا ومعروفة للمؤرخين والرجال العرب من قبل ذلك بمئات السنين .

وان ما ورد من أن ولفنجستون وصمويل بكر قد اكتشفا أفريقيا هو محض ادعاء يكذبه من أورده ابن بطولة فى رحلته من وصوله إلى أعالى نهر النيجر وإلى تمبكتو وسكوتوا قبل أن يصل إليها هؤلاء الاوربيون بنحو ثلاثة قرون وكذلك ذكرها السائح الهروى ولقد كان العرب يعرفون هذه المناطق منذ وقت طويل قبل وصول هؤلاء المستعمرين المبشرين ، وقد بقيت تمبكتو وهذه المناطق أعصراً طويلة جزءاً من سلطنة المغرب الأقصى وهذا ما يؤكد أن صمويل بيكر لم يكن مكتشفاً لمنابع النيل الأبيض لأنها لم تكن مجهولة فى وقته عام ١٨٦١

ويتحتم هنا أن نقول ان العرب هم الذين قادوا ولفنجستون إلى بحيرة تنجانيقا عن طريق زنجبار وكان ذلك بمساعدة السيد حامد بن محمد المعروف باسم (تيبو سيب) أشهر تاجر فى تلك الأصقاع ولما انقطعت أخباره وجاء (ستانلى) ليبحث عنه لم يستطع أن يصل إليه فى مدينة (أجيجة) إلا بمساعدة السيد حامد كذلك . ولقد كتب ولفنجستون فى تقريره (أن نهاية الاكتشاف الجغرافى هى بداية العمل التبشيرى وأن هذه حقيقة كلية إذ أنه من المحال أن نكتشف أرضاً جديدة دون أن ينبه ذلك فينا سوق دعوة أهلها إلى الانجيل) وهكذا ينكشف المخطط الصريح الكامن وراء ذهاب هؤلاء الطلائع إلى هذه المناطق كمقدمة للبعثات التبشيرية والإرساليات .

ولدينا نص يؤكد هوية ولفنجستون أورده (رولاند اوليفر) فى كتابه : (العامل التبشيرى فى شرق أفريقيا) حين قال : لقد أعد ولفنجستون نفسه منذ

سنوات حياته الأولى حين كان يعمل فى جمعية التبشير اللندنية للاضطلاع بمشاكل التبشير الخاصة بأفريقية الاستوائية وبالعمل بين شعوب فطرية فى بلاد لم يكن قد سكنها الأوربيون » .

وفى عام ١٨٤٩ كان ولفنجستون لا يزال يفكر بطبيعة الحال فى التجارة أكثر من الاستعمار . وبما أنه كان أولا وقبل كل شىء مبشرا فقد اختار كعضو فى هذه الحملة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمخر فيه داخل البلاد، ولقد أراد ولفنجستون أن يستكشف طريقا فى افريقيا للمبشرين لا للمدنية، كان ولفنجستون مبشرا قبل ان يكون رحالة ولم تكن رحلته المشهورة إلا تمهيدا للبعثات التبشيرية(١) .

هذه هى الحقائق التى غفل عنها مع الأسف أولئك الذين حالوا تصويرا هؤلاء بأنهم أبطال استكشاف جغرافى وخدعونا عنهم ،ولقد ذهب بعض الأدباء والكتاب إلى مجاراة هذا الاتجاه فكتب أحدهم فى صحيفة كوكب الشرق عام ١٩٣٣ بحثا يمجد فيه ولفنجستون ويصفه بأنه من رجال الاصلاح وبالشخصية العظيمة .

وكان هذا جرياً من التيار التغريبى الذى يريد أن يكسب رجاله طابع البطولة !

---

(١) دكتور بدر الدين القاسم : بحث فى مجلة العلم العربى سنة ١٩٦٠ .

فاسكو دى جاما

كان أمثال هنرى الملاح فى آسيا وولفنجستون فى افريقيا وفاسكودى جاما فى الهند من طلائع التبشير والاستعمار بالرغم من كل ما أضفته عليهم بعض الكتابات التاريخية الزائفة . ولم يكن دورهم الذى تاهوا به إلا من عصارة جهد المسلمين والعرب الذين رافقوهم فى هذه الرحلات ، وفاسكودى جاما لم يستطع أن يصل إلى الشواطىء الشرقية إلا بمساعدة البحار المسلم العمانى (أحمد بن ماجد أسد البحر) الذى كتب أبحاثاً كثيرة فى أمور البحر والرحلة فيه .

بل أن دى جاما قد خدعه حتى استطاع أن يحقق غرضه وذلك بعد أن أسكره بالنبيذ ودفعه بالتهديد إلى أن يقود حملته إلى الهند . وقد كانت كتب أحمد بن ماجد هى العون الأول لكل الغزوات التبشيرية فى اكتشاف الطرق البرية ومسالكها عن طريق العلامات التى أوردها لهداية البحار من نجوم ومسالك بحرية وعلامات الليل والنهار .

وقد اتصف فاسكودى جاما بكرهه للمسلمين والعرب وقد ضرب بمدافعه الثقيلة أثناء رحلته إلى آسيا مركباً عزلاء تنقل الحجاج إلى مكة فأحرقها بعد أن نقل أموال أهلها وأمتعتهم إلى أسطوله وبعد أن حظر على رجاله إنقاذ الغرقى منهم وفيهم النساء والأطفال حتى هلكوا جميعاً إلا عشرين طفلا بعث بهم إلى البرتغال حيث حملوا على اعتناق النصرانية .

وقد كذبت الوقائع التاريخية ما حاولت الكتب العربية المؤلفة فى ظل النفوذ الاستعمارى أن تنسبه إلى فاسكودى جاما من أنه وصل إلى كلكوتا ، ذلك أنه لم يذهب إلى (كلكوتا) بل وصل إلى مدينة أخرى تدعى (كاليكوت) تقع على ساحل كيرالا فى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة الهند وتبعد بأكثر من ألف ميل عن (كلكوتا) التى تقع على مصب نهر الكونج فى الشمال الغربى من الهند .

الغزالى

لم يواجه مفكر مسلم بمثل ما ووجه به الامام الغزالى من شراسة الحملة عليه ومحاولة تدميره وكان مصدر الحملة عليه هو موقفه المشرف من الفلسفة الالهية اليونانية وهى الفلسفة الوثنية التى تعارض مفهوم التوحيد فى الاسلام معارضة واضحة صريحة ، أما موقف الغزالى من الفلسفة الطبيعية أو الفلسفة الرياضية فلم يكن موقف المعارض لها بحال .

ومن هنا نعرف مصدر الحملة وأسبابها فقد كانت حملة الداعين إلى تدمير الفكر الاسلامى بالفلسفة اليونانية ومعارضة من يقف منها الموقف الواضح الصريح ، ومن خلال هذا المفهوم كانت حركة التغريب والتبشير والاستشراق وراء رسالة زكى مبارك (الأخلاق عند الغزالى) ووراء غيرها من بعد حتى ليقول أحدهم « إن كتاب تهافت الفلاسفة للغزالى كان بمثابة الرتاج الذى أغلق باب الفكر الفلسفى فظل مغلقا ما يزيد على سبعة قرون » ، ومن الحق ان يقال ان الفلسفة اليونانية قد فشلت فشلا ذريعا فى محاولتها الاولى إبان عصر العباسيين كما فشلت فى محاولتها الثانية فى العصر الحديث فى ان تخرج الفكر الاسلامى والثقافة العربية عن جذورهما بالرغم مما أتيح لها فى هذا العصر من حرية واسعة فى نقل الوثنيات والمسرحيات والأساطير مما رفضه المسلمون الأول ، ومع ذلك فإن المسلمين يعرفون أن فلسفتهم تنطلق من الفقه الاسلامى وان منطقهم مستمد من القرآن كما حرره ابن تيميه وأن الفلسفة الاسلامية تقوم على التوحيد وتنبنى فى مجتمع يختلف كل الاختلاف عن مجتمع اليونان العبودى أو مجتمع الغرب الوثنى الإباحى .

ولقد كشف الامام الغزالى عن الوفد بين أسلوب القرآن وأسلوب المتكلمين فقال : ان أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الاكثرون بل أن أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى »

لقد أنكر الغزالى النتائج التى توصل إليها فلاسفة ما وراء الطبيعة والإلهيات واعترف بصحة آراء فلاسفة المنطق والرياضيات والطبيعيات .

أما رد ابن رشد على الغزالى فقد جاء بعد مائة عام حيث لم يكن ابن رشد معاصراً للغزالى ولذلك فإن المقارنة بينهما والقول بأن كتابه تهافت التهافت هو رد على الغزالى ، هذا القول من الناحية العلمية يبدو عملا من أعمال التمويه التى يريدبها خصوم الغزالى أن يصوروه فى موقف الهزيمة بينما نرى أن كتاب ابن رشد يوافق الغزالى فى أكثر مسائله ويختلف معه فى أقلها وبينهما قرن من الزمان .

كارل مارتل

يحاول الاستعمار والتغريب أن يضفى على اسم (كارل مارتل) معنى البطولة وذلك لانتصاره على المسلمين فى معركة (تور أويواتية) التى يطلق عليها اسم معركة بلاط الشهداء عام ٧٣٢ م ١١٤ هـ وهى المعركة التى توقف عندها التوسع الاسلامى فى أوربا ثمة ثم عاود حركة على أيدى الأغالبة فى تونس .

والحق أن هذه الموجة كانت قد وصلت إلى غايتها منذ بدأت عام ٩٢هـ حتى توقفت عام ١١٤ ، وكان قوامها البربر والعرب معاً وقد استنفدت قوتها وبعدت عن جبل طارق الذى هو نقطة بدأها نحو ألف ميل . فكان بلوغ الزحف موقع (بلاط الشهداء) فى الحق هو أقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الموجة .

غير أن ما وجه إلى كارل مارتل من التشريف والتكريم لم يكن فى الحقيقة إلا ممثلا لوجهة نظر المتعصبين الذين حاولوا بكل ما أوتوا من قوة أن يوقفوا زحف الاسلام على أوربا ولكن المنصفين من المفكرين والباحثين والعلماء لم تفتهم الاشارة إلى مدى الخطر الذى لحق أوربا نتيجة لتوقف التوسع الاسلامى مما أخر نمو الحضارة سبعة قرون كاملة وقد شهد بذلك «كاودفارير» أحد كتاب الغرب الذى قال بأن موقف كارل مارتل الهمجى أبقى على ظلمات أوربا سبعة قرون وحال بينها وبين أنوار الحضارة الاسلامية وهكذا شهد شاهد من أهله .

دوركايم

أبرز ما وصل اليه دوركايم هو أنه ألغى الفطرة ، وحاول عن طريق فلسفة عنيدة أن يقول بأن الدين ليس فطرياً وأن الزواج والأسرة ليسا فطريين وأن القواعد الأخلاقية ليست فطرية .

وتقوم نظرية دوركايم فى نطاق النظرية المادية التى تجد قاعدتها فى دارون ومدرسته وهى شطر النظريتين : النفسية ونظرية التفسير المادى للتاريخ وتستهدف نفى القداسة والأصالة عن الأسرة والأخلاق والمجتمعات .

ودوركايم فيلسوف فرنسى يهودى ، كان على صلة بعيدة المدى بالدراسات التاريخية والاجتماعية التى أداها الدكتور طه حسين وكان مشرفاً على رسالته عن ابن خلدون ، هذه الرسالة التى حملت كل أساليب التحقير والاستهانة بابن خلدون وفكره ومفاهيمه . وقد خضع الدكتور طه حسين فى ذلك إلى نظرية دوركايم ولاءاً للفكر الغربى الجانح إلى احتقار الفكر العربى الإسلامى وتقديراً لأستاذه ، ولقد ظل طه حسين فى مختلف دراساته التى قدمها خاضعاً للمذهب الاجتماعى الذى قرره دوركايم ، عندما درس المجتمع الإسلامى والفتنة الكبرى ومذاهب الأدب وتراجم الأعلام وغيرها ، وعن مذهب دوركايم نقل إلينا تلك الفكرة المادية الإلحادية حين أعلن « أن الدين لم ينزل من السماء وإنما خرج من الأرض كخروج الجماعة نفسها » .

وهذا بالنص من آراء دوركايم وقد واجه طه حسين وآرائه هذه معارضة كبيرة فى ضوء مقاييس الفكر العربى الإسلامى الذى يؤمن بالفطرة والذى يعرف الأهداف الضخمة وراء دعوات أمثال دوركايم وهم من داخل مخطط الصهيونية العالمية الذى رسمته بروتوكولات صهيون حيث يقول : (لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم وأن الأثر الهدام للاخلاق الذى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد) .

دارون

اكتسب دارون شهرته الضخمة نتيجة لنظريته القائلة بالتطور، وان الانسان تطور من الحيوان . وفى الحقيقة أن دارون لم ينكر وجود الله ولا أنكر قوة الخالق الذى خلق الخلية الأولى . وقد أشار صراحة إلى أن الحياة فى الأصل بدأت بقدرة الخالق العظيم ، الخالق لأصل الأنواع ولم يقل دارون بالتولد الذاتى أو نفى الخالق وإنما قال بذلك آخرون تلقفوا هذه النظرية وأرادوا أن يجعلوها قاعدة أساسية للفلسفة المادية التى انبنى عليها من بعد صرح ضخم من الفلسفة فيما يتعلق بعلاقة الانسان بالحياة وعلم النفس ومنها انبثقت فلسفات الماركسية والفرويدية ونظريات دوركيم وغيره ، غير أن الطبقة الأولى التى حملت لواء النظرية وجولتها عن طبعتها تتمثل فى لا مارك وأرنست هيكل وأوبارين ومن بعدهم جاء سنبسر ثم جاء كثير من الماديين الغلاه .

ولا مارك قال بالتطور قبل دارون ولكن داردن كان أكثر إعتدالا منه ولم يقل دارون بأن الإنسان والقرد من أصل واحد أو أن القرد هو أبو الانسان الأول وإنما قال بذلك الغلاة . ولم ينسب الحياة إلى المصادفة ، وغيره هو الذى قال أن الحياة الأولى تولدت من المادة تولداً ذاتياً دونما أى تدبير من مدبر ، ولكن النظرية المادية كلها نسبت اليوم إلى دارون وكل ما قاله دارون أن الانسان والمجموعة الشهيرة بالشمبانزى منحدران من أصل واحد ، وقد وجدت نظرية دارون معارضة من كثير من العلماء فى مقدمتهم هكسلى تلميذ دارون الذى نفى أن الانسان قد انحدر من القرد ، كما أنكر وجود أى نوع من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعى أو الانتخاب الصناعى وكان أجاسيز فى مقدمة من عارضوا النظرية حينما قال أن التشوء لا يتم إلا وفقا لخطة ألهية حكيمة ، وأن الاصطفاء الطبيعى إذا حل محل الخلق الالهى فإن الانسان يكون قد جرد من روحه وعدالة صماء وأن الفكرة التى يعتقها الدارونيون عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضاً إعتباطياً يتعارض والآراء الفسيولوجية الرصينة .

وأنكر العلامة (والاس) : أن يكون الانسان قد تم على طريقة التطور والارتقاء حيث قال : أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لا يصدق على الانسان ولابد من القول بخلقه رأساً .

وقال (فرخو) . أنه قد بين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقا بعيداً فلا يمكننا أن نحكم بأن الانسان سلالة قرد أو غيره

وقد أشار فريد وجدى إلى الاعتراضات الموجهة الى نظرية دارون فقال أنها :

(أولا) عدم مشاهدة أى ارتقاء من أى نوع كان فى الأحياء الأرضية من عهد ألوف السنين .

(ثانيا) عدم وجود الصورة المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلل كان يوجد مثلا حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة وأدنى من الانسان رتبة واحدة .

(ثالثا) طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الأحياء فان عمر الأرض كما قالوا لا يكفى لأحداث كل ما يرى من هذه الأشكال المختلفة غاية الاختلاف .

وقال نديم الجسر : أن الحيوانات البحرية الدنيا باقية حتى اليوم على الحالة التى كانت عليها من ابتداء العالم ولم نجد أنها تأثرت بناموس الارتقاء ولو كان ناموس الارتقاء أكيد لوجب أن يكون الأعلى منها كذوات الفقرات قد وصل الى أعلى الطبقات .

وبعد : فان الخطر فى نظرية داردن لم يكن فى النظرية نفسها وانما كان فى محاولة تطبيقها على المجتمعات كما فعل سبنسر وبخنر ثم اتخذت بعد ذلك أداة هدم للأديان ولكل ما ليس مادى من جوانب الغيب الخفية عن الحس والمشاهدة غير أنما حققته كشوف الذرة فى الأعوام الأخيرة قد حطم هذه النظرية نهائيا .

هـ . ج . لورنس

إذا كان فرويد هو منشىء مذهب التحليل النفسى على أساس الجنس وهو المذهب الذى عارضته كل المناهج الفلسفية والنفسية الأصيلة فان هـ . ج . لورنس هو أبرز من طبق هذا المذهب فى كتاباته ، أو كان هو بشخصيته وإنتاجه رمزا على الانحراف الخطير فى الشخصية الانسانية حين يستعلى ويحاول أن يتصدر أنه منطلق من منطلقات الحرية .

وقد عنى لورنس بتصوير أزمته النفسية تجاه العجز الجنسى الذى كان مصدره حب أمه له وإسرافها فى احتضانه حتى فقد قدرته الحسية ، فكانت كتاباته ثورة على كل القيم . وقد كان أدب لورنس بالإضافة إلى أوسكار وايلد فى انجلترى الى بودلير . وبروست فى فرنسا ظاهرة من ظواهر الانحلال الخلقى التى عملت على تدمير المجتمع الاوربى بعد إشاعة الانحلال فيه ، وقد كان لدعوة لورنس الى تجنيد الفوضى الجنسية أثرها البعيد فى المجتمع الانجليزى وشاعت قصة عشيق اللادى شارلى التى تصور امرأة منحرفة متزوجة من رجل مريض ، وقد عكس لورنس آلام حياته واضطرابها فى قصصه ومات فى سن الخامسة والأربعين مريضا بالسل وكان خلاصة موفقة كما صوره أحد نقاده .

لقد ضحى لورنس بكل شىء حتى نفسه وبكل القيم الانسانية التى كان بغير شك يكتبها فى نفسه فكانت تسبب له فى حياته أشقى صراع وانقسام نفسانى ، وكان ذلك فى سبيل إشاعة الفوضى النفسية التى ارتدت اليه آخر الأمر وقتلته بعد أن جرعته غصص الشقاء فى حياته » .

نعم ، لقد خسر لورنس كل شىء وكسبت القوى التى حركت لورنس وأفادت من إثارة لتذيع دعواها الأباحية وتعمق هدفها من المفاهيم التى أعلنها فرويد وطبقها لورنس .

جبران خليل جبران

لمع اسم جبران خليل جبران لمعاناً خاطفاً فى الثلاثينات ثم لم يلبث أن انطفأ، ذلك أن المذهب الأدبى الذى حمل لواءه كان براقا مليئاً بالظلال والأضواء استطاع أن ينفذ إلى نفوس الشباب فى ظل أجواء غلبت فيها الوجدانية والمشاعر السائبة ، غير أن هذا التيار لم يستطع أن يثبت فقد اكتسحه تيار الأصالة العربية المستمدة من الجذور العميقة للبلاغة والبيان ، والمستمدة أساساً من القرآن فقد عمد جبران ومدرسة المهجر الشمالى إلى إعلاء أسلوب التوراة . واتخاذ مزامير داود وكتابات العهد القديم نمطاً . من أنماط الكتابة العربية ، كخطوة تالية للخطوة التى حاول تحقيقها مترجموا الكتاب المقدس إلى اللغة العربية حين رفضوا وضعه فى الأسلوب فصيح وأصروا على بقائه فى أسلوب العامية ، ثم جاء جبران ونعيمه وغيرهم فحاولوا أن يتخذوا من هذا الأسلوب منهجاً فى الكتابة وفتحوا كلماتهم بعبارات التوراة :(الحق أقول لكم، فى البدء كان الكلمة) ثم أضافوا إلى ذلك قدراً من العبارات المجنحة المضببة التى نقلوها من الشاعر الأمريكى ويتمن وظنوا أن زخرفة الورق وجمال الطباعة والاهتمام بالنشر بين شباب العرب سوف يفرض هذا اللون فرضاً وسيحيل إليه الأذواق والأذهان غير أن صوت المنفلوطى فى أسلوبه العربى البليغ المستمد من القرآن لم يلبث أن غلب هذه الصيحات وأقام معبراً يصل بين بلاغة الجاحظ وكتابات الزيات والرافعى وزكى مبارك وغيرهم مما أسقط أسلوب الظلال والأضواء ، الأسلوب الحالم الغريب الذى لا يتصل بالمزاج النفسى العربى ولا يستمد من أصالة اللغة والبيان العربى ، ولا يجرى مع طابع الأدب العربى وذاتيته التى ترفض كل دخيل وبذلك سقطت مدرسة جبران خليل جبران وما تزال تسقط بالرغم من محاولات إحيائها من جديد .

أبو نواس

أعلا الدكتور طه حسين وجماعة التغريبيين من شأن عدد من الشعراء والكتاب محاولين اعتبارهم نماذج عليا فى الأدب العربى، فى نفس الوقت الذى هاجموا وزيفوا فيه حياة آخرين، وكانت المقابلة هى : تزييف المتنبي وإعلاء أبى نواس.

ولقد اعتبر طه حسين(أبو نواس وبشار ومطيع وحماد عجرد والخليع)هم مثل لعصرهم بينما لم يكن هؤلاء فى الحقيقة إلا ثلة من المنافقين الخلعاء الذين كانوا موضع كراهية المجتمع واحتقاره لسلوكهم الاجتماعى، أما بالنسبة للأدب العربى والفكر الإسلامى فقد كانوا مجموعة من الشعوبيين الذين لا يمثلون الروح العربية ولا المزاج الإسلامى، وقد كانوا فى الأغلب من زنادقة الفرس المجوسيين فكرياً بالرغم من التصاقهم بالمجتمع العربى الإسلامى.

وقد رد بعض الباحثين اضطراب حياة أبى نواس إلى وضعه الاجتماعى وموقفه من أمه (جلبان) وقد أشار بعضهم إلى أنه أدركته عقدة أوديب فأحب أمه وكلف بها كلفاً بلغ الهيام، مما أفسد عليه الحياة الاجتماعية من بعد فكلف بالخمر واتخذ منها غاية وافتتن بها، وقد وصف الخمر وغلا فى وصفها وقال فيها ما لم يسبق إليه.

أما أم أبى نواس (جلبان) فقد ظلت سوءة صفحتها تطارده وتفسد عليه حياته، فقد تركها زوجها هانى (أحد جنود مروان) وتوفى فكانت تعانى وولدها شظف العيش حتى فارقت الأهواز واستقرت فى البصرة وأصبح بينها مباءة الغاوين والضالين، فلما وعى أبو نواس وأدرك أحاديث الناس عن أمه مال عنها والتحق بالغواة فعب من الخمرة ما ينسية تلك الأحاديث التى كانت تصيب منه.

مقتلا ويخرج كرامته ؛ ثم التحق بواليه بن الحباب الذى بصره بقول الشعر وأغرقه فى بحار الملذات واللجوء إلى الحانات فانتقل به إلى الكوفة والبادية لتقويم لسانه وإطلاعه على أقوال العرب ثم كانت عودته إلى البصرة والتزامه خلف الأحمر الذى حفظه من شعر العرب ألف قصيدة ثم أمره نسيانها . وانتقل إلى بغداد فعب من اللذات ما شاء وأحب من الجوارى العابثات (جنان) وتغزل بها وبعدها تاب إلى رشده »(١) .

وقد كان لاضطراب حياته بين موقفه من أمه وحبه لجنان ما أنشأ فى نفسه مذهب النرجسية ،(ثم مضى إسرافاً فى المجون واغراقا فى العبث وغلافى الاعتداد بنفسه حتى لم ير غيرها ففتن بنفسه) .

ومما يصفه به خصومه وأصدقائه على السواء أنه كان شعوبيا ، أغرق فى التنكر للعرب والسخط عليهم ، ثم اتخذ(أبو نواس) رمزاللاستهتار والازدراء بكل شيء وإهدار كل قيمه .

وكان لطه حسين أكبر الفضل فى اذاعة شعر ابى نواس وتقريره على طلبة وطالبات كلية الآداب وامتجانهم فيه ، وهو شعر الغزل الحسى والغزل المذكر وقوله فى تبجح شديد « ان هذه الفنون(١) من جد أبى نواس ودعابته ليست خطرا على الشباب ، لا تفسد أخلاقهم »(٢)وهذا ولا شك يفى للتدليل على أن طه حسين بعد أن بلغ هذا السن لا يزال مصرا على ماقاله عام ١٩٢٤ فى مطالع الشباب ولا يزال داعيا اليه وقد كنا ظننا أنه قد تاب وأناب عن اسرافه وخطأه .

---

(١) عن بص لشعار فواز .

(٢) طه حسين : خصام ونقد ص ٢٢٥ .

هرتزل

كانت دعوة « هرتزل » إلى الدولة الصهيونية التى أعلنها ١٨٩٧ بدأ بتاريخ جديد فى الفكر العربى الاسلامى المعاصر ، وقد حاولت الصحافة الأدبية والسياسة فى الثلاثينات من إعلاء شأن هرتزل وخليفته ماكس نوردو وحفلت الهلال والمقتطف والأهرام والعصور والمجلة الجديدة بإذاعة ما اسمته « السامية » وجرى ذلك كله داخل إطار المحافل الماسونية التى كانت قد انتشرت فى البلاد العربية باسم البنائين الأحرار الذين كانوا يجندون الصهيونية على النحو الذى نعرفه باسم إعادة بناء هيكل سليمان ، ولم تكن فى هذه الفترة قد توافرت أبعاد الحركة الآن ، فلم تكن قد كشفت بعد العلاقة بين هرتزل وبين ماركس وفرويد ودوكايم ، وقد انكشفت هذه العلاقة فى السنوات الأخيرة واستعلنت الصلة بين دعوات التحلل الخلقى والاجتماعى وبين الصهيونية العالمية وكان من أبرز ما كشف عام ١٩٥١ تقريبا هو « بروتوكولات صهيون » التى عرفتها أوربا منذ عام ١٩٠٢ وظلت محجوزة عن الشرق الاسلامى حوالى خمسين عاما ، حتى لا يتعرف المسلمون والعرب على المخططات التى وضعت للقضاء عليهم وتدمير مقوماتهم والاستيلاء على فلسطين .

ولقد كان هناك زيف كثير وتموية كبير للتغطية على موقف من أخطر المواقف التى واجهها هرتزل ذلك هو موقف السلطان عبد الحميد الذى عارض إغراءات وتهديدات الصهيونية العالمية التى حملها اليه هرتزل واعلن رفضه البات عن إتاحة أى فرصة لليهود لإقامة أى وضع لهم فى فلسطين وكان هو وملكه والدولة العثمانية ضحية هذا الموقف الشريف ، فى نفس الوقت الذى وجهت إليه الصهيونية العالمية حملة عاتية عن طريق الصحافة العربية تتهمه فيها بالإستبداد والظلم وقد سجل هرتزل فى مذكراته تلك العبارات النارية التى وجهها اليه السلطان عبد الحميد إباءاً وحفاظاً على أرض الاسلام .

ابن المقفع

احتفل دعاة التغريب بابن المقفع وأعـــلوا من شأنه حتى لقد بلغ بهم بأنه هو الذى أدخل النثر الفنى إلى الأدب العربى ، وقد كان هذا فى الحق تمويها ومحاولة لإنكار أثر القرآن الكريم فى الأدب العربى ونسبة البلاغة العربية إلى الفرس .

والواقع أن ابن المقفع لم يكن إلا داعية من دعاة المجوسية أعلن إسلامه تقية وتخفيا حتى يحقق أغراضه وأن ما نقله إلى الأدب العربى من الأدب الفارسى كان واضحاً فيه تعمد إذاعة الفكر الوثنى فقد قدم كتاب مزدك ثم كتاب برزويه وكان هدفه من هذا إذاعة الشبهة حول وحدة الأديان والقول بتناقضها وعند ما كتب تاريخ الشعوبية والحملة الباطنية الحاقدة على الاسلام اعتبر ابن المقفع واسمه (روزبه) فى مقدمة العاملين فى هذا المجال ودعاته الأول ، وقد سجل ذلك الدكتور على سامى النشار فى كتابه (مقدمة مناهج البحث عند مفكر الاسلام) وقال أن روزبه القديم عبد الله بن المقفع كان أكبر طاعن على الإسلام وأن كتابة : مرزدك وبرزويه (الواقع فى مقدمة كليله ودمنه وليس منها) انما قصد بهما إثبات تناقض الأديان ومخاصة الاسلام وعدم يقينها فضلا عن أن باب برزويه يحاول التشكيك فى القرآن بالخطأ والتناقض والدعوة إلى أن الفلسفة هى طريق اليقين .

وكان الدكتور طه حسين هو مقدمة من أعلوا من شأن ابن المقفع جريا وراء ما ردده المستشرقون من أثره فى الأدب العربى نتيجة تأثره بالثقافة اليونانية وذلك متابعة للمذهب الغربى الوافد الذى ينسب كل شىء من عظمة الأدب العربى أو الفكر الاسلامى إلى اليونان أو الفرس أو الفكر الوافد، تجهيلا لأثر القرآن الذى هو المصدر الحقيقى والأساسى للفكر الاسلامى كله .

ولقد أسلم ابن المقفع إسلاما فيه ريبة ، وكتب فى الزندقة كتبا كثيرة رد عليها المسلمون ، وقد انتهى به أمره شر نهاية ولقد شهد النقاد بأن أسلوب ابن المقفع لم تكن فيه إصالة العربية ولا روعتها ، وشهد بذلك طه حسين نفسه حين قال

أن ابن المقفع عند ما يتناول المعانى الضيقة التى تحتاج إلى الدقة فى التعبير يضعف فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة وأن الاصمعى لاحظ أنه يلحن وأخذ عليه الجاحظ أنه لم يكن يحسن ما يحاول من الفنون .

ومن عجب أن يحاول دعاة التغريب وضع هذا الرجل المجوسى على رأس النثر الفنى فى الأدب العربى بعد نزول القرآن بأكثر من مائة عام، والقرآن لاشك هو المصدر الأول للنثر الفنى فى اللغة العربية والأدب العربى الذى لم يعرف هذا الفن من قبل ،قال السيد المرتضى فى أماليه قال جعفر بن سليمان روى عن المهدى أنه قال ماوجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله لابن المقفع ويروى البعض أنه مر ببيت النار بعد إسلامه فتمثل بقول الأحوص :

يادار عاتكة التى اتعزل خذر العدا وبك الفؤاد موكل
إنى لا منحك الصدود وانى قسما إليك مع الصدود الأمثل

يقول الجاحظ : أنه كان يجتمع على الشراب مع مطيع بن اياس ووالبه بن الحباب وبشار بن برد وأبان اللاحقى فيهجو بعضهم بعضا وكل منهم متهم فى دينه .

هذه هى حقيقة ابن المقفع ، أما ما أورده أحمد أمين وبطرس البستانى وغيره ممن زخرفوا صورته فردود والواقائع الصحيحة تنقضه .

هنرى الملاح

وصفت الكتب المدرسية العربية هنرى الملاح بأنه عالم جليل ومكتشف جرىء ، والحقيقة أن هنرى الملاح شأنه شأن البوكرك وولفنجستون وغيره هم من طلائع الاستعمار والذين كانوا مدفوعين إلى الشواطىء العربية والإسلامية الإفريقية بدافع الانتقام والحقد والتعصب الدينى بعد أن تعاهدت أسبانيا والبرتغال على أثر سقوط دولة العرب والمسلمين فى الأندلس على اقتحام العالم الاسلامى واستعماره والسيطرة عليه .

وهنرى الملاح البرتغالى الذى ورد اسمه فى كتب التاريخ بالتمجيد هو واحد من غلاة الاستعمار المتعصبين وقد بدأ حياته بحملة حربية ضاربة على مدينتى : سبتة وطنجه العربيتين الاسلاميين ثم اسس مدرسة بحرية ضمت رجالا وجهم بالتعصب إلى قتال المسلمين ثم خوله البابا نيقولا الخامس حق الفتح والاستيلاء فى جميع البلاد حتى الهند وقد وصفه البابا بأنه رافع لواء النصرانية فى البلاد النائية .

وكان مثلا مزريا فى الحقد على الاسلام والمسلمين والاندفاع وراء هدف الاستعمار المغلف بالتبشير شأنه شأن هذه الطلائع جميعا التى كانت من أعداء العرب ومع ذلك فقد حاولت الكتب التاريخية المدرسية ان تضعه فى صورة البطولة الخادعة .

أبو ذر الغفارى

حاول الكتاب فى العصر الحديث إضفاء هالة ضخمة من المجد حول شخصية أبو ذر الغفارى تخرج به فى الحقيقة عن نطاق الدور الذى قام به والتاريخ الصحيح الذى سجلته له كتب السيرة ولنا على موقف أبى ذر ملاحظات :

(الأولى) الدور الذى قام به (عبد الله بن سبأ) وما ألقاه إلى أبى ذر من رأى فى المال كان مصدر الخلاف بينه وبين معاويه ومصدر متاعبه كلها . ذلك أن أبا ذر كان صادقاً مخلصا يندفع وراء ما يرى أنه الحق بينما كان عبد الله ابن سبأ يدير مؤامرة كبرى للمسلمين .

(الثانية) أن ما يراه أبو ذر يختلف عما كان يراه النبى صلى الله عليه وسلم ، فالمعلوم المتواتر عن النبى أنه كان يأخذ جزءاً من المال ويترك الباقى لصاحبه وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم : (ليس فيما دون خمس أواق صدقه ، أى زكاة).

وهذا يختلف مع دعوة أبى ذر إلى عدم جواز ادخار الذهب أو الفضة بعد أداء زكاتهما : يقول العلامة الإمام عبد الحميد بن باديس .

(أخذ أبو ذر بظاهر قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة) وقد جاءت النصوص الصحيحة الصريحة بأن الأخذ إنما يكون لبعض الأموال ، فقوله تعالى (ولا ينفقونها) معناه : ولا ينفقونها كلها وهؤلاء هم الذين لم يعطوا شيئا منها وهم مانعوا الزكاة فلا تصدق الآية على الذين أنفقوا) .

وقال : لقد أصاب أبو ذر فيما اختاره لنفسه من الزهد وعدم الادخار ولكنه أخطأ فيما أراد من حمل الناس على حالة لم يوجبها الله عليهم ولن يستطيعوها ، وقد خالف أبو ذر إجماع الصحابة بنظريته السابقة مع قيام الدليل القطعى من النقل المتواتر ، والنصوص القرآنية الكثيرة المتضافره على خلاف رأيه .

وكان خلافه هذا فى مسألة من كبربات المسائل ، ومع ذلك فقد تركوا له حريه النظر ولم يلق منهم من أجلها أذى ، وهم لم يتعرضوا له فى نظره

أو اجتهاده إلا عندما خشوا من بثه الفتنه فى الناس .

ويحاول المعاصرون أن يصوروا الموقف بالنسبة له كأنه النفى أو الإخراج ، ولكن النصوص والوثائق تغاير ذلك .

فقد عرض عليه الخليفة ما يراه أصلح له فاختار (الربذة) أو هو استأذن عثمان فى الخروج ، وعلى كلتا الراوتين لم يأمره عثمان بالخروج حتى يقال أنه قد نفاه .

وقد أرسل إليه عثمان : أن تماهد المدنية حتى لا ترتد إعرابياً وقد نهى المسلمون عن التعرب بعد الهجرة لما فيه من الانقطاع عن الجماعة كما أقطمه عثمان صرفه من الإبل .

خاتمة

كانت قضية تصحيح المفاهيم وتحرير القيم والكشف عن الشبهات والأخطاء الشائعة ودحضها رسالة قائمة مستمرة فى تاريخ الفكر الإسلامى كله وفى مقدمة من عنوا بها وأولوها اهتمامهم :

الامام الغزالى فى الرد على الباطنية . وفلاسفة الإلهيات

الامام ابن تيميه فى الرد على المناطقة والصوفية والمحرفين .

الامام ابن حزم فى الرد على ابن النغريلة اليهودى وفى كتابه الملل والنحل .

الامام الشاطبي فى كتابيه الاعتصام والموافقات

الحسن بن عثمان الخياط : فى كتابه الانتصار والرد على ابن الراوندى .

ومن أبرز المؤلفات التى أولت اهتمامها بالكشف عن الشبهات :

(العواصم من القواصم : للقاضى بن العربى)

ويعد القاضى بن العربى أزكى من فطن لدسائس الشعوبية والباطنية .

قال . لن يأمن من يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب ولا يفهم كنهه إذا انتشرت الشبهة فالجواب واجب ولا يمكن الجواب إلا بعد عرض الشبهة ثم إظهار فسادها .

وحذر القاضى بن العربى من أهل الأدب وقال أنهم غلبت عليهم صناعة الأدب فمالوا إلى كل غريب من الأخبار دون أن يتحروا الصدق أو يهتموا بالرواية والإسناد . وأشار إلى كثير مما أورده الأدباء مما يتعارض مع التحقيق العلمى أو التوثيق التاريخى .

وقال : هذا كله كذب صراح فما جرى منه حرف قط وإنما ذكرت هذا لتحذروا من الخلق ، وخاصة المفسرين والمؤرخين وأهل الأدب فأنهم أهل جهالة بحرمات الدين أو على بدعة مصرين فلا تبالوا بما رووا ولا تقبلوا رواية إلا عن أئمة الحديث .

ثم تعرض ابن العربى إلى الفلاسفة السوفطائيين والطبائعيين والإلهيين وناظر الباطنيين والحلوليين وأرباب الإشارات من غلاة الصوفية وظاهرية الأحكام والفرق التى أظهرت بعضها بإسم الاسلام . وأخـــذ على المحدثين ما لديهم من خرافات ورد عليهم وأعلن عدائه لمن أرادوا أن يخضعوا الاسلام للفلسفة اليونانية .

(تلبيس إبليس : للامام ابن الجوزى)

قال فى المقدمة . أنه وضعه محذراً من فتنة مخوفاً من محنة .

والتلبيس هو إظهار الباطل فى صورة الحق ، وجمع فيه الشبهات المختلفة التى عرفها عصره وفى مقدمتها مذهب الدهرية القائم على إنكار الخالق والبعث وجحد النبوات وهو مذهب يستمد أصوله من المجوسية ويتصل به من يقولون بالتناسخ وحرق الأجساد ورد على المقلدين الذين أبطلوا منفعة العقل الذى خلق للتأمل أو التدبر ، وهاجم مذاهب المعتزلة والخوارج والرافضة كما عارض أركان التصوف الفلسفى من وحدة الوجود إلى الفناء فى الله وعرض للسفسطائية والدهرية والثنوية والفلاسفة الذين أنكروا بعث الأجساد وعارض الباطنية الذين يبطلون النبوة والعبادات والبعث ويدعون أن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجرى مع الظواهر مجرى اللب من القشر ، وسفه هذه الآراء كلها وكشف عن أنها خارجة عن السنة الصحيحة وعن أصول الاسلام المستمده من القرآن الكريم .